ماذا لَوْ.. سُخرِيَة القَدَر

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الرواية: ماذا لَوْ.. سُخريَة القَدَر

اسم المؤلف: منى أحمد الضايع

التدقيق اللغوي: منى أحمد الضايع

تصميم الغلاف: عمر الصباغ

الإخراج الداخلي: خالد محمود

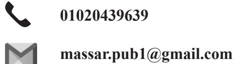
رقم الإيداع: ٢٨٤٣٨ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٤٢٨-٧-٢




ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية


01020439639


massar.pub1@gmail.com

ماذا لَوْ.. سُخريَة القَدَر





إهداء

ولاء

عندما كتبت الرواية منذ سنوات لم أكن أعرفها، لكن يستحيل أن تكون هذه الرواية لأجل أنثى غيرها.

يصعب علينا أحياناً أن نعرّف الأنوثة، لكن مع ولاء لا يمكن للأنوثة أن تتخفّى، إنّها تلك الفتاة المفعمة بالأنوثة.

الفتاة التي لا تهدأ أبداً حتى تثبت لنفسها ولمن حولها أنّها تستحق أن تكون تلك الفتاة الاستثنائية من بين كل فتيات الأرض.

ناعمةٌ كالزّهرة، قويّةٌ كالأرض التي تنبت منها، صلبة كذلك الوطن الذي مازال صامداً إلى الآن من أجلنا، كما هي ولاء تماماً؛ صامدة بجمالها من أجلنا، من أجل من حولها رغم شُحّ تربتها كما نحن جميعنا في سوريا.

هي ليست كذلك وحسب بل هي معطاءة، زهرة استثنائية رغم ذلك العطش لا تقبل إلّا أن تفوح بالحبِّ لمن حولها.

ولاء؛ لا يمكن لي أن أتجاهل أيّ ولاء على هذه الأرض بعد أن عرفتك، كل ولاءات الأرض ستكون ممتنّةً لكِ.

إهداء إلى طلّابي الأعزّاء في مدرسة طائر الفينيق الذين شاركوا بوضع اسم روايتي هذه بكلِّ حب.

أنتم لستم مجرّد أرقام أو أسماء تملأ أوراقي ومصنّفاتي وحسب؛ أنتم أفراد لعائلة جديدة قد انضممت لها يوماً عندما دخلت إليكم الصّف لأوّل مرّة وأنتم تعتلون مقاعدكم مرغمين لأجل سماعي كمعلّمة.

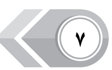
ما لا تعرفونه أنّكم كنتم معلِّمين لي أيضاً، وأكثر ما تعلّمته منكم هو الحب اللامشروط.

أحبّكم كحبِّ الأم لأبنائها، ذلك الحب الذي لم أعرفه يوماً إلّا معكم.

أشكركم لذلك

(هارون ابراهيم، يزن حبابة، هايدي سليمان، نور عثمان، يائيل علي، علي شحادة، ورد ظروف، بيان بربور، مريم غندورة، حورية بربور، عائشة شحادة، أليسار محمد، ميار الشيخ ديب، حسن غندورة، انجي صالح، بشرى السيد، جودي شحادة، جولي زهرة، زهراء حميد، زينة حسن، زينة خليل، عارف زهور، ديانا شاويش، هند حمادة، عبد الله عسيلي، علي محمد، عمر صقر محي الدين طعمة، نينار ديب، كريم حمّود، مايا عطية، مهنّد الشيخ ديب، ميس محمد)

اسبيردون سقّا، بيير سيوفي، حلا يحيى، حنّا قاطرجي، ديانا داوود، رند طوفان، روني رفّول، ريهاند لبادة، سنا قنبر، غصون عثمان، فراس باكير، كرم سقيفة، مجد عليوي، مجد يونس، نور الدين سليمان، نور لوله، يوسف حسن، يوسف معلّا، عبد الله حنا، هايدي رجّوح، ميكلا حلوة، هادي ملحم، أمنة فحل، أية بدرة، حسين حسين، خديجة مرقبي، داليا هوشة، رنا عثمان، سارة أبو النصر، صديقة اسماعيل، فاطمة اسماعيل، فاطمة الخطيب، فاطمة منصور، لونا ميلص، محمد قدورة، نعيمة بيازيد، ياسمين الجندي، اسراء محمد، ثريا حسن، وردة عثمان، أمل صبرة، آيات فحل، أية بدرة، خديجة منزلي، دعد مهاوش، رنيم رمضان، روعة بيازيد، سيدرا فخير، شهد جوهر، شهد اسماعيل، غزل غندورة، فرح جوهر، فايزة اسماعيل، ميار عكرة، نجم الدين بلقيس، ندى لينا فحل،



علي قحطان أحمد، نور عبد العال، هبة الله جبيلي، نور عبد العال، عبد الكريم بهلوان، زياد شحادة

***

(الياس ديب، جاك شماس، جان شماس، ستيفاني رفول، ريان مرقباوي، ستيلا الضاهر، أحمد رحال، ستيفاني فروي، الحبيبة أحمد، ايلينا عرنوق، وحيد توما، مالك رفول، هيا جريس، ايفان السليم، مي نادر، جنى عصفوري، بربارة حجار، جاد زهير، ناهد لحدو، ناصر سليمان، زين جنيد، زكريا حسن، زين العابدين الكنج، عثمان رجب، بيلسان الكنج، اكتمال بيازيد، أمل عزوز، أونج ديب، حلا عكرة، خالد هيكل، خليل معروف، روضة بري، سامية منعم، شهد اسماعيل، غادة حمامي، ليلاس طيبة، هبة الله حجازي، هيا قنبور، هند شحادة، يارا منصور، فاطمة الأحمد، ليال ملحم، ريم عثمان، جوري جوهر، تالا الشمالي، آمنة فحل، هلا عثمان، ابراهيم أحمد، اعتدال عثمان، أمل محي الدين، أمين بشارة، جودي الأحمد، جوى زيدان، حسن عبدو، حمزة سليمان، خالد كدة، رجاء طعمة، سدرة أحمد، شيماء اسماعيل، علي أحمد، علي رزوق، غالية زغيبي، غنى يحيى، فيفيان حسن، ليث العلي، ماريانا غانم، محمد صبرة، محمد كنعان، محمود إبراهيم، مريم رسلان، هادي الشيخ، ايميلي مسوح، عمر أبيض)

ستبقى أسماءكم ذكرى تزيّن روايتي هذه، لن أنساكم ما حييت، أحبّكم.

صباحاً

أفقٌ قد انحسر بأربعة جدران مغلقة أكلتها الرطوبة نوعاً ما، ذلك الضوء الأبيض الذي يتوسَّط سقف الغرفة.. لا يتحرَّك.. هو فقط يصغي بسكونٍ، مرّةً إلى صراخ أمي وأخرى يهتز على رنين تنبيهات هاتفي المحمول بقربي الذي لا يلبث أن يتوقّف حتى يعود للرنين والإزعاج مرّةً أخرى.

لا أدري ما الذي ينتظره هذا الضوء صامداً هكذا في مكانه كلّ هذه السنين !

قابعٌ هكذا في وسط سقف الغرفة، فوق نظري مباشرةً و أنا نائمٌ مستلقٌ على سريري الخشبي، أستيقظ كلّ يوم لأراه متمسكاً بمكانه أكثر وأكثر، فإن تغيّر حاله فلابد أنّ نظري هو من جعَل منه مصباحاً مهتزاً بعض الشيء.

لا أدري لما لا نكون مصابيح لا تحتاج النهوض باكراً كلّ يوم..!

لما نسعى للنهوض يومياً عبر ضبط منبهاتٍ عديدة.. !

نسعى باحثين جاهدين عن هموم الحياة وأعبائها لا لشيء إلّا لحملها، راكضين بها من حياةٍ إلى أخرى، ومن وقتٍ إلى أخر، هكذا إلى أن نصلَ إلى حافة العمر متعبينَ كاهلين أثقلتنا تلك الهموم التي قد حملناها مطوّلاً، وجعلت من عمرنا ينفذ مسرعاً دون الشعور بمتعة وملذّات الحياة وما فيها.

الحياة لن تُعَاد ولن تُكَرر..أمَّا النهاية فليست إلَّا اللحظة الأخيرة من ذلك العمر..

أووه...

إنّه الصباح اللعين مجدداً يا محمَّد.. !

– محمد.. محمد

صوتها القوي ذاته كلَّ صباح، أمِّي في الطابق الأرضي تناديني من هناك..

– محمد.. أين أنت يا بني.. أمازلت نائماً ؟

هناك من يريدك على الهاتف هيّا بسرعة.. إنّه ينتظر..

رفع محمَّد صوته وحاول امساك سمَّاعة الهاتف رافعاً يده إليها بجانب السرير :

– حسناً حسناً.. أنا أسمعك ماما.. أغلقي السمَّاعة من فضلك، سأجيبه من هنا

استجمع قواه ونهض متكاسلاً ممسكاً السمَّاعة بشكلٍ جيّد :

– ألو..

– مرحباً أستاذ محمد نحن من مخبر التحاليل الطبية " المخبر الحديث "

– أهلاً بكِ.. ماذا تريدين ؟!

– لقد تركت لدينا عيِّنة دم مرفقة بطلب تحليل وهذه النتائج قد ظهرت الآن.. نرجو منك الحضور بسرعة لاستلامها

- أيّ تحاليلٍ هذه..؟

- تحاليل قد....

- نعم، نعم لقد تذكَّرت.. حسناً سأمرُّ لاستلامها اليوم

- أرجوك أستاذ محمد لا تنسى ولا تتأخَّر

شعر محمَّد بإلحاح وحماس الممرضة فأصابته بعض الحيرة لذلك

- خير يا أنسة ؟!

هل يوجد بالتحليل ما يدعو للقلق..؟

- نرجو منك المرور بالمخبر وأخذ النتائج على الفور للاطمئنان وشكراً لك

- حسناً شكراً لك ولكن حبّذا لو قلت لي العنوان من فضلك !

- قرب البريد مقابل صيدلية البلد

- شكراً لك

يبدو أنَّ تلك المكالمة كانت كافية لإيقاظ محمّد الذي يصعب ايقاظه.. نهض من فراشه بتكاسل، بدت على وجهه علامات الاستغراب التي مازالت مرسومة بعد تلك المكالمة الهاتفية السريعة..

جلس إلى طرف سريره، سرّح شعره الأسود الكثيف بكلتا يديه ثمَّ نهض مسرعاً خارج غرفته مستخدماً سلّماً إلى الطابق السفلي للمنزل، حيث كان منزله عبارة عن طابقين متصلين بسلّم خشبيٍّ بسيط قد قام الوالد بصناعته وقد تدّبر أمر تقسيمه بهذه الطريقة لِيَتسع أفراد الأسرة والضيوف أيضاً،

كان الطابق السفلي هو الطابق الأساسي، فيه غرفتي نوم احداها للوالدين والأخرى لأخته الكبرى زينب، وغرفة جلوس تتوسَّط الطابق وصالة اضافية صغيرة بقربها للضيوف ولن يخلو المنزلُ من مطبخ متواضع وحمّام رئيسي..أمّا الطابق العلوي فلم يكنٍ إلّا غرفة نومٍ صغيرةٌ لمحمد وأخرى لأكرم الأخ الأصغر له، وحمّامٍ اضافيٍ أيضاً.

أسرع محمد إلى الأسفل باتّجاه والدته التي وقفت في المطبخ تحضّر وجبة الافطار الصباحي لأخوته ووالده المعتادون على النهوض باكراً على عكس محمد.

– ما الذي جعلك تنهض باكراً اذاً ؟؟

– صباح الخير أولاً ماما

– صباح النور

– لديّ أمرٌ مهم عليّ انجازه

أين زينب، أريدها !

– تراها بالصالة تصلّي ركعتي الضحى كعادتها يا بني

ضحك مستهزئاً :

– أيّ ضحى، وأيّ صلاةٍ ولمن ؟

ألن تفهم أنّ من تصلّي له ليس موجوداً، لو أنّها استغلّت هذا الوقت الذي يذهب في الصلاة لأجل ذلك الإله المزعوم بالنوم لبعض الوقت الإضافي لكان أفضل لها.

- كفاك يا محمد هذا الكلام الذي لا تمل منه.. هداك الله

أخبرني أين ذاهبٌ الآن ؟ هناك ساعتين أو أكثر على عملك ما الذي جعلك تنهض مبكراً هكذا ؟

ربّما تسأل عن زينب لتخبرها السبب أليس كذلك ؟ فهي مأمن أسرارك على الدوام

- لا ماما.. لقد أخبرتك لديّ عملٌ اضافي اليوم عليّ اتمامه

- حسناً يا بني كان الله معك

كان محمد في الثامنة والعشرين من عمره قد تخرّج منذ أربعِ سنواتٍ تقريباً من كلية التجارة والاقتصاد في جامعة دمشق ويعمل موظفاً بإحدى البنوك التي قد توسّط لديهم والده لأجله للعمل بها فقد كان مدير هذا البنك صديقاً له.

على الرغم من التزام محمّد بعمله واحترامه لوالديه والعائلة وحبّه لإخوته إلّا أنّه خارج هذا الاطار لم يكن إلّا شاباً طائشاً يهيم بين المقاصف والأصدقاء يبحث عمّا يملأ ذلك الفراغ الكبير داخله، ذلك الفراغ الذي لم ينتبه له يوماً لم يكن إلّا نتيجة عدم وجود ما يؤمن به ويجعل منه صاحب عقيدة فعلية.

لم يكن محمد يؤمن بوجود إله على الاطلاق، ولا ينتمي إلى أيّ ديانةٍ إلهيةٍ،حتّى أنّه لم يجرّب أن يبحث بأيٍّ منها أو أن يفكّر بالإيمان بها.

كان فقط يستهزأ بمن يفكِّر بأنّه يمكن لهذا الكون أن يكون له إلهاً..!

- إنّها تهيّؤات.. أيّ خالقٍ هذا ؟

تفكيره يشبه إلى حدٍ ما تفكير مراهقٍ في الرابعة عشر من عمره قد تغلغلت هذه الأفكار بعقله حتى دون قصد، مجرّدٍ تقليدٍ لمن حوله أو ربّما موضة أحبّ أن يتّبعها كما الباقين، كان يتقصّد استفزاز من حوله لا لشيء إلّا للاستهزاء والضحك.. هكذا كمراهقٍ لا يُطاق أبداً لثقل دمه كما يُقال.

زينب هي الأكثر تحمّلاً لاستهزاء محمد في العائلة وهي الأكثر استهدافاً للاستفزاز من قِبَله، ربّما لأنّها الأقرب إلى قلبه.. رغم أنّها فتاة ملتزمة وقريبة إلى ربِّها، تقيم صلاتها بوقتها، لها وردها الخاص بها يومياً ولم تكن تفوّت أيّ من السنن والنوافل اضافة إلى الفرائض، ورغم كل الاختلاف بينها وبين محمد إلّا أنّها كانت الأقرب إليه وكلاهما ليسا إلّا مأمناً لأسرار الآخر.

في ذلك اليوم خرج محمد بعد أن أتمّ فطوره مع عائلته مسرعاً باتجاه مخبر التحاليل لاستلام النتائج قبل موعد عمله في البنك.

قَبَل يَومين..

جلس محمد أمام حاسوبه الخاص على طاولة عمله يتأفف حيناً ويتثاءب حيناً أخرى.. لم يكن عمله صعباً للغاية، كانت بضع معلومات تصل إليه عبر ملفاتٍ ورقية أو رقمية يقوم بنقلها إلى برنامج خاص بالبنك تتّبع لنظام معيّن لنقلِ البيانات وترتيبها وحساب ما يتطلّبُ حسابه، لكن محمد لم يكنْ شغوفٌ لعمله، عمله الذي لم يكن إلّا واجب يضطره للاستيقاظ صباحاً كلّ يوم ما عدا الجمعة والعمل بها لساعاتٍ طويلةٍ وبذل الجهد والعناء من أجل راتبٍ شهري يضمن له تلبية مصاريفَ لهوه وسهره اليومي في الملاهي الليلية وغيرِها من الأماكن التي تحقّق له المتعة والسعادة كما يظُنُّها ..

رنّ هاتفه طويلاً لم يستطع سماعه وهو في وضع كتم الصوت إلّا أنّه لمح اضاءته بطرف عينه فأسرع بالرد قبل أن يقفل المتصل (أسامة) :

– أهلا أسامة

– ما بك لا تجيب يا رجل؟ مللت وأنا أكلّمك وأنت لا تجيب

– أسف أسف إنَّني في العمل وضعت هاتفي على الوضع الصامت.. قل لي الآن أين ستكون سهرتنا اليوم ؟

– ستكون في شقَّة بشير...

- يا عم... الليلة اذاً ستكون نارية

- وهل تشك بذلك ! جهِّز نفسك عند الساعة السابعة لأوافيك بسيارتي أمام منزلك

- حسناً..

- إلى اللقاء

ما أن انتهت مكالمة محمد حتى حلّت الفوضى داخل مبنى البنك الذي لم يبق سوى أقل من ساعة على انتهاء دوامه لهذا اليوم..

- ماذا هناك يا أبو خالد ؟

- لا أدري يا أستاذ محمد، يقول باقي الموظفين أنّها لجنة فحص طبيّةٍ لأحد مخابر التحاليل الحديثة ستقوم بتحاليل مجانية لموظفي البنك.. اذهب ً لملئ استمارة هناك فيها بعض المعلومات عنكً إن أردت إجراء هذه التحاليل لديهم يا أستاذ

- وما هي هذه التحاليل ؟

- تحاليل عامة

ترك أبو خالد _أحد العمال المستخدمين في البنك _ " الأستاذ محمد " كما كان يقول له مسرعاً وهو يردد أنّ هذه التحاليل هي تحاليل عامة وربما مكسب لموظفي البنك للاطمئنان على صحتهم بدون تكلفةٍ أو عناء.

- بالفعل هي مكسب لكلّ موظفي البنك.

ذهب محمد لاحقاً بأبو خالد باتجاه تجمع الموظفين ومندوبي المخبر، ملأ

استمارة فيها اسمه و أرقام هواتفه ومعلومات عامة عنه للرجوع إليها في المخبر وإرسال نتائج التحليل له فور انتهائها. سُحبت عينة من دمه من قبل ممرضي المخبر كُتب عليها اسم "محمد عبد الحليم " ثمّ عاد محمد إلى مكتبه وكأنّ شيئاً لم يكن.

لم يدرِ محمد ما فائدة ما قام به هذا اليوم.. لم يرَ نفسه إلّا بين تجمُّع الموظفين والعاملينَ والمخبريين يفعل ما يفعله باقي الموظفين ثمّ ينهي دوامه ويعود للمنزل وكأنّ شيئاً لم يكن خاصةً أنّ سهرة اليوم في شقّة صديقه بشير أي أن سهرته لن تخلو من الفتيات والعلاقات المحرّمة التي لم يكن محمد يأبه القيام بها.

هذا اليوم لن يكون يوماً عابراً في حياة محمد، هذا اليوم سيكون اليوم الفاصل في حياته، سينتقل بنفسه من مكانٍ إلى أخرٍ مختلف تماماً، لن يكون محمد بعد هذا اليوم هو نفسه محمد الذي كانَ يوماً ما.

محمَّد في مختبرِ التحليل الحديث

جلس محمّد في غرفة الانتظار محتاراً في أمر هذا التحليل، فكرهُ منشغلٌ بكلام الممرضة التي طلبته من المخبر صباح هذا اليوم نفسه.

- ربّما أمرٌ روتيني..!

تكلّم مع نفسه مطمئناً إيّاها..

دائماً ما يكون الانتظار أمرٌ صعبٌ للغاية خاصةً عندما يكون ما تنتظره مجهولاً، هذا الذي تنتظره ليس إلّا شيئاً مجهولاً سيُتعِبُ تفكيرك إلى حين معرفته.

- الأستاذ محمّد عبد الحليم..!

أعادت الممرضة اسم محمد وهو شاردٌ يكلّم نفسه

- السيّد محمّد عبد الحليم..

- نعم هنا يا أنسة

- تفضّل بالدخول لأخذ النتائج من دكتور المخبر

- حسناً

دخل محمّد مسرعاً إلى مكتب الطبيب المخبري " الدكتور عصام "

- مرحباً أيّها الطبيب

- أهلا بك.. أستاذ محمد عبد الحليم ؟!

- نعم

- أهلا بك.. أنت من موظفي البنك اذاً ؟

- نعم، نعم

- كيف العمل بالبنك.. هل هو مُتعب ؟

- لا، لا ليس هكذا على الاطلاق

- ما هي طبيعة عملك هناك ؟

- محاسب

كان محمّد يجيب بارتباك وبشكلٍ سريعٍ على أسئلة الطبيب واستفساراته التي ليس لها أيُّ معنى الآن

- هل هناك ما يُقلق في نتائج التحليل يا دكتور ؟

- الحقيقة يا سيّد محمد هناك شيءٌ بالفعل.. هناك أمرٌ ما، لكن لا تقلق..

أخبرني عن نشاطك بشكلٍ عام أو عن وجود أيِّ مشكلةٍ صحيّة لديك منذ مدة أو شعورٍ بالقلق أو الأَرهاق...؟؟

- ماذا ؟؟

لا لا أنا لا أشكو من أيّ أمرٍ ولا ارهاق أو تعب

- أتدري يا أستاذ محمد منذ ثلاث سنوات كان لديّ مخبر تحليلٍ صغير

وكنّا نعمل به أنا وزوجتي، هي أيضاً طبيبة مخبرية، ومعنا ممرضتان أيضاً. كنا نعمل بكلّ جدٍّ وأمانة رغم أنّه ما كان يصلنا من تحاليل ليست إلّا تحاليل بسيطةٍ كالسكّر والشحوم وتعداد الدم وغيرها من التحاليل العامة التي لابدَّ لأي كان من الناس إلا القيام بها بشكل روتيني..

ذات يوم جاءنا شاب بدت عليه العجلة وطلب تحليل تعداد دم عام بشكلٍ سريع. كانت زوجتي مسئولة عن جهاز التعداد هذا، في ذلك اليوم كانتً لدينا كمية كبيرة من عينات الدم على غير العادة مطلوب لها تحاليل عدة وغالبها تعداد دم.

هذا الشاب قد أربك زوجتي بسبب دخوله إلى غرفة التحليل ووقوفه فوق رأسها لاستعجالها بإجراء تحليله على الفور، فهو على موعدٍ مع رحلة سفر بعد ربع ساعة على الأكثر مما دفع زوجتي لحل هذا الأمر وإنهاء تلك الفوضى التي افتعلها هذا الشاب. أمسكت أنبوب عينة دمه بشكلٍ سريع لتقوم بإجراء التحليل لأجله فوقع أرضاً لشدّة توترها وغطّت يديها بالدم وكذلك الأرض فلم يكن منها إلّا غسل يداها سريعاً وإعادة سحب عينة أخرى للشاب وإجراء تعداد له على الفور وهكذا أخذ الشاب نتيجته ورحل مسرعاً.

ذلك اليوم كان يوماً فاصلاً في حياتنا أنا وزوجتي..

تنهّد الطبيب طويلاً ثمّ عمّ الصمت قليلاً بينهما، كان محمد شارد الذهن بما يقوله الطبيب حائراً بعلاقة كلامه بنتيجة التحليل التي جاء لاستلامها، ربما كان يلعن ذلك اليوم الذي جاء به أولئك المخبريين إلى البنك وقاموا بتلك التحاليل الغبيّة له.

أكمل الطبيب وقد بان على وجهه الحزن والتأثّر :

– يا بني لقد توفّت زوجتي والجنين الذي في رحمها بسبب فيروس إتش أي في HIV نقص المناعة المكتسب وهو الايدز، لقد انتقل إليها بسبب دم هذا الشاب الذي حدثتك عنه.

كانت زوجتي رحمها الله تعاني من حساسية في يديها تسبب لها جروحاً وتشققات تنزف أحياناً، يبدو أن دم الشاب كان مصاباً بذلك الفيروس وقد انتقل إلى زوجتي عن طريق تلك الجروح في يدها عند سكب عينة دمه عليها.. لا أدري إن كان للشاب أيّ علمٍ بإصابته ولم يكن ذلك مهماً بعد انتقال المرض إليها..

كانت زوجتي في تلك الفترة تقيم في منزل أهلها بسبب حملها فقد فضلّت الجلوس هناك للحصول على أكبر قدرٍ من الراحة أثناء الحمل ولا أعلم إن كان ذلك لحسن حظي مثلاً..!

لقد اكتشفنا المرض عند زوجتي على الفور عند أول عَرَض بسيط لها، فلطالما قمت بدراسات عديدة عنه، لكن للأسف لم تحتمل زوجتي إلّا عدة شهور وتوفت مع الجنين، كان ألمها النفسي أكبر من أن يحتمل ذلك المرض اللعين في جسدها خاصةً أنها تعلم بانتقاله إلى طفلها الأوّل الذي كانت تنتظره بكلّ شوق وحب. توفيت زوجتي والجنين بعد عدّة شهور ورحلا الاثنان مما جعلني أفكّر بإقامة مركز خاص بمرض الايدز، لا ندري لربما كان العلاج قريباً والأهم الكشف عن المصابين به حتى لا يكونوا سبباً في إصابة آخرين.

صمت الطبيب مجدداً لكن هذه المرة صمته كان طويلاً ربما كان ينتظر أي

تعليقٍ من محمد إلّا أن محمد بقي صامتاً أيضاً.

- الايدز !

كان محمّد صامتاً شارداً يفكّر بكلّ علاقاته المحرّمة التي قام بها مع الكثير من الفتيات، صمت يفكّر بتلك الفتيات وعلاقاته معهن بكلّ تفاصيلها.

- هل أنا مصابٌ بالايدز أيُّها الطبيب ؟؟

- للأسف يا بني.. لكن لا تقلق مازال لديك الكثير من الوقت، لربّما سنوات طويلة ربما سيكون عمرك أطول من عمري فالمرض ليس ظاهراً عليك يا بني وهذا شيءٌ جيد ولكن أتمنى منك الحذر بالتعامل مع الآخرين أو القيام بأيّ علاقات جنسية.

لم يجب محمد على الاطلاق أخذ نتيجة تحليله من الطبيب وخرجٍ من المخبر لا يرى شيئاً أمامه سوى صور تلك الفتيات اللاتي عاشرهن يوماً.

حتّى أنّه لم يشكك بنتيجة الطبيب التي غالباً ما رآها منطقية لحياته التي كان يعيشها.

إنّه الموت اذاً !

الموت الذي لم يحب محمد أن يفكّر به يوماً.. الموت أصبح قريباً حقاً..

الموت الذي يجعل للحياة معناها على الدوام..

خرج محمد مدهوشاً مما سمع..

- إيدز !

مشى طويلاً هذا اليوم عبر الشارع المؤدّي إلى عمله إلّا أنّه لم يدخل إليه،

استمرّ بالمشي طويلاً وطويلاً حتى عن التفكير قد عجز تماماً.. لم يخطر في باله يوماً أن يجد نفسه يقف مباشرةً أمام الموت، الموت الذي يبعد عن ذلك الشاب القوي المغامر، ذلك الشاب الذي لا يمكن لأيّ شيء أن يقف بطريقه على الاطلاق.. يقف الموت الآن بطريقه ليقول له قف وفكّر طويلاً في تلك الحياة التي تعيشها.

بعد مشي استمرّ لساعاتٍ طويلة حتى عمّ المساء، وجد محمد نفسه متعباً فدخل حديقّة كانت بطريقه، أسرع إلى أوّل مقعدٍ فيها وجلس متنهداً وكأنّه عاجزٌ في التسعين من عمره.

- ماذا أفعل الآن ؟؟

- لا، لا لا.. أنا أعلم كم ارتكبت من الأخطاء التي لابد لها أن توصلني لمثل تلك النتيجة، لن أنكر أبداً أنّني طالما وقفت مع نفسي للحظات لأعطيها فرصة التفكير بأنّ ما أفعله ليس إلّا خطأً بل إجراماً بحقّ نفسي وسمعتي وحتى أهلي، لطالما ارتعد قلبي بل جسمي بكلّ أجزائه لمجرّد الخوض بالتفكير بعواقب ما ارتكبت.. كنت أهرب من تلك الفرصة على الدوام.. أهرب من نفسي خوفاً من الوقوف أمامها عاجزاً عن تبرير أخطائي التي أعلمها وأعلم تماماً مدى خطورة عواقبها، وهأنا الآن أقف أمام أول مشكلة، لا ليست أول مشكلة بل إنها الكارثة التي خَرَجْتُ بها من كل تجاربي في هذه الحياة القصيرة..القصيرة جداً..

- يا الله أنقذني..

الله !



هل أنا من نطقتها !

أشعر بالدوار.. أريد أن أهرب مجدداً..

لكن إلى أين..؟

لا سبيل للهرب بعد الآن يا محمد ..

في تلك الليلة عاد محمد إلى منزله هارباً من كلّ ما حوله من بشر وحجر وأي شيء في هذا الوجود إلّا نفسه،، هذه المرة هرب ليختلي بنفسه.

وصل المنزل ومشى مسرعاً نحو غرفته مستخدماً السلّم الخشبي، لم يعرْ أيّ انتباهٍ يُذكر لأحد في طريقه، حتّى لوالدته التي نادته :

- محمّد، محمد.. ما بك يا بني !

لم تأتِ إلى الغداء اليوم..!

أكلتَ مع أصدقائك في الخارج بالتأكيد أليس كذلك !

- نعم، نعم

- حسناً يا بني، ستخرج الآن بالطبع، لكن أرجوك هذه المرّة لا تطيل سهرك كما عادتك

- لن أسهر اليوم.. لن أسهر بعد اليوم.. اطمئني يا أمّي

قال ما قاله وأسرع منطلقاً إلى غرفته والدموع تملأ عينيه، نزلت دموعه أخيراً.. أسرع إلى غرفته هارباً من والدته كي لا تراها فينفضح أمره.

أمّا الأم فبقيت واقفة مكانها أسفل السلّم متعجّبة مما قاله ولدها..

بدا على وجهها بعض القلق إلّا أنها اعتادت على طباع ولدها الغريبة بعض الأحيان لذلك لم تسأله عن أيّ شيء بل تركته يصعد الغرفة وعادت لإكمال ما كانت تقوم به..

دخل محمّد غرفته وعيناه لم تتوقّف عن ذرف الدموع، رمى بجسده المتعب على سريره وأجهش بالبكاء هكذا إلى أن غفت عيناه ونام تماماً..

فَجراً..

الله أكبر، الله أكبر

لا إله إلا الله

فتح محمّد عينيه على ترتيلات الأذان، صوت التكبيرات يتسلّل مسامع محمد وكأنّه يسمعه لأوّل مرّة.

شعر بأحدٍ يناديه وكأنّ للأذان نداءٌ خفي قلّما يسمع القلبُ صداه، هذه المرّة كان لقلبٍ محمّد أذنان مفتوحتان تماماً لسماع الأذان بل لسماع نداء الله.

لم يفكّر على الاطلاق، نهض من سريره وتوجّه إلى الحمّام قرب غرفته، توضّأ ثمّ عاد للغرفة يبحث عن سجَّادة صلاة فلم يرها، بالطبع لن يرى في غرفته سجّادة وهو لم يصلّ منذ أن كان طفلاً يذهب المسجد مع والده لأداء الصلوات جميعها.

وهل سيتذكر كيف سيصلي بعد كل تلك السنين ؟

التوجه إلى القبلة، التكبير، الاقامة، وكل ما يليها من الصلاة..

أسرع راكضاً إلى الأسفل متجهاً حيث يصلي والده وأمسك بالسجادة هناك ثم صعد بها مسرعاً إلى غرفته كأنّه لص قد سرق ما هو قيّم جداً، كانت زينب تستعد للصلاة أيضاً في الأسفل عندما لمحته صاعداً إلى غرفته بتلك

السرعة، أسرعت هي أيضاً باللحاق به فقد تعجّبت من حالته، وصلت إلى غرفة شقيقها ثم نادته على الفور:

- محمد ما..

صمتت ولم تكمل.. فقد كانت المفاجأة..

إنّه يصلي..

محمد يقف على سجادة الصلاة متوجهاً إلى القبلة ويصلي..!

كادت زينب تطير من الفرح.. هل تذهب إلى والديها وتخبرهما عمّا رأت..!

كانت سعيدة وحسب، لم تشأ أن تزعج محمد أو أن تلفت نظره لها، علّه إن رآها تلتفت إليه يمتنع عن الصلاة وكأنّ أحدهم مس شيئاً من كبريائه.. هكذا ما يكون عادةً من يقررون الالتزام بالصلاة فجأة بعد الانقطاع عنها لفترات طويلة، يخجلون منها وكأنّها ذنباً يرتكبونه حديثاً لا العكس.

أسرعت زينب بالفرار قبل أن يراها محمد وتمنت من الله أن لا يكون قد سمع نداءها له، إلّا أن محمد كان بعالم أخر، لم يكن يشعر بها ولا بأي شيء اطلاقاً، لم يكن يشعر سوى بنفسه هو، نفسه التي بدأت تناديه، تلك التكبيرات التي انهالت عليه منذ قليل وكأنها فيض من مشاعر الحب والأمان، الأمان الذي لم يسبق له أن شعر به منذ زمن طويلٍ حقاً.

أكمل محمد صلاته بشكلٍ كامل وكأنّه لم ينقطع عنها يوماً استغفر الله كثيراً كمتعطشٍ لها..

إنها الراحة..

اطمئنان يملأ القلب بما فيه..

لم يفهم محمد ما هذا الشعور الجميل الذي ينتابه بل يملأه..

من المفروض أن يحدث له عكس ذلك.. أم ماذا !

لم يفكّر بأي شيء، عاد إلى النوم وكأنّه لم ينم منذ قرنٍ تقريباً. لقد كانت تلك الليلة هي الليلة الأولى التي ينام بها محمد قرير العينِ مرتاح البال رغم مصابه.

صباحاً..

كما هي العادة وقفت الأم في المطبخ تعدّ وجبة الافطار، وضعت صحناً فيه بعض كرات اللبنة مع الزيت واللبنة هي طبق رئيسي على طاولة الفطور الصباحي في أغلب المنازل السورية واللبنة هي لبنٌ رائبٌ مختر يخزّن في أوعية زجاجية مليئة بالزيت فيصبح اللون الأبيض ممزوج مع لون الزيت اللامع، إلى جانب اللبنة وضعت أم محمد صحناً من الزيت والزعتر وصحن جبنةٍ بيضاء مع حبة البركة والصحن الأهم هو المكدوس أمّا المكدوس فهو باذنجان محشي بالجوز والفلفل الأحمر وقليلٍ من الثوم يخزّن أيضاً في أوعية أو مطربان زجاجي كما يُقال عنه مملوء بالزيتً إلى جانب هذه الأطباق لابد من الشاي وكذلك البيض المقلي، دخلت زينب مسرعة باتجاه والدتها التي كانت تعدّ طبق محمد المفضل وهو البيض المقلي :

- ماما ماما رأيت محمد يصلّي فجر اليوم

- اهدئي يا ابنتي ما بك !

- رأيت محمد فجر هذا اليوم يبحث عنٍ سجادة الصلاة في الأسفل ثم ما إن وجدها حتى صعد بها إلى الأعلى مهرولاً وبدأ الصلاة.. كان يصلي رأيته بأمّ عيني.. صدقيني ماما

- الحمد لله،، لقد هداه الله واستجاب دعانا له..

- هس هس ماما ها قد جاء محمد

دخل محمد المطبخ بهدوء قد بان عليه التعب والإرهاق وعلى غير عادته لم يأبه لاعداد أمّه لطبقه المفضل ولرائحته التي تجتاح أنفه كل صباح :

- صباح الخير

- " يسعدلي صباحك يا ابني.. شبك ماما فيك شي يا قلبي ؟ "

- لا لا على الاطلاق أنا بخير ماما لكني مرهق قليلاً من العمل، سأذهب اليوم لأخذ اجازة لأيام قليلة أريد أن أستريح من أعباء العمل لبعض الوقت، ربما سأقدّم على اجازةٍ طويلة بدون راتب

- ولما يا بني ؟ أخبرني هل حدث لك شيء لا قدّر الله ؟!

- لا لا ماما إنّها اجازة للاستجمام مع الأصدقاء سنسافر لقضاء بعض الوقت

- وإلى أين ستسافرون ؟

- امممممم ربما سنذهب إلى مصر

- أظنّها رحلة مكلفة يا ولدي ولما هذه التكاليف ؟ لدينا هنا مناطق للاستجمام جميلة ومريحة جداً، وفر هذه التكاليف في السفر

- ولما التوفير ماما !

ابتسمت الأم ابتسامة عريضة وهادئة واقتربت من ولدها هامسة :

- أريد أن أخطب لك

صمت محمد والدمعة في عينه :

– لا تقلقِ ماما، لا تقلق حبيبتي

– حسناً يا بني، فليكن الله حافظاً لك.. هيّا إلى الفطور

في هذا اليوم ذهب محمد بعد فطوره فوراً إلى وظيفته كعادته لكن هذه المرة لا للعمل بل لطلب اجازة مفتوحة لمدة شهر كامل على الأقل و بدون راتب، كان من الصعب عليه أخذ الموافقة على الاجازة بهذه السهولة إلّا أن اصراره كان أقوى من مديره نفسه الذي وافق عليها وتمنى له التوفيق فيها. لقد كان محمداً محبوباً في عمله وبين فريق عمل البنك هناك.

بعد أن انتهى محمد من طلب الاجازة توجّه إلى مخبر التحليل حيث الطبيب عصام، طلب مقابلته ثم دخل إليه على الفور، سلّم عليه ثم جلس أمام مكتبه :

– دكتور كم بقي لدي من الوقت ؟

– ماذا تقول يا ولدي، يا بني حالتك مستقرة صدقني، احمد الله ولا تقلق أظنّك ستعيش أكثر منّي

ثم ابتسم الطبيب محاولاً مداعبة محمد الذي لم يكترث لتلك المداعبة وأكمل كلامه :

– كنت أفكّر أو أنّني لم أفكر، لا أدري ما الذي جعلني أرى نفسي أمام خيار وحيد وهو السفر إلى مكان بعيد عن هنا، أجلس به مع نفسي أو أنني أريد الهرب وحسب

- ولما جئت تخبرني يا محمد ؟

- أنت الوحيد الذي يعلم مصابي

- استعن بالله يا ولدي وأخبرتك مراراً لا تقلق، علامات المرض لم تظهر عليك وهذا شيء مطمئن، الفيروس مستقر وربما ستعيش طويلاً دون أن تكترث لوجوده داخلك.

- ربما.. وهل يمكنني السفر اذاً؟

- ولم لا يا بني ؟ على العكس، السفر سيذهب عنك هذا التعب من التفكير الغير مجدي..

توكّل على الله يا ولدي واستعن به لن يؤويك في هذه المرحلة سواه.. كلنا منه وعائدون إليه، استعن به وتوجّه إليه وحسب،، لن يردك يا بني، لن يردك

ابتسم محمد ابتسامة خفيفة ثم سلّم على الطبيب وخرج متوجهاً مباشرةً إلى مكتب قريب للسياحة والسفر وطلب تذكرة سفر لرحلة سياحية إلى مصر، قامت الموظفة بتسجيل معلوماته وقامت بأكثر من مكالمةً للاستفسار عن أقرب رحلة إلى مصر ثم حجزت لمحمد تذكرة بعد يومين فجراً.

استلم محمد التذكرة ثم خرج مستاءً..

سينتظر يومين أيضاً للرحيل..!

لا بأس وليكن ذلك..

في المنزل..

الهدوء كان يعمّ المنزل تقريباً، خاصةً أنّ الوالد في عمله وزينب في كليتها وأكرم الصغير في المدرسة، فلم يكن في المنزل سوى والدة محمد التي انشغلت في المطبخ بتحضير الطعام كعادتها في هذا الوقت.

عاد محمد مباشرةً إلى منزله بعد أن استلم تذكرة الرحلة، و ما إن دخل المنزل حتى انهالت عليه رسائل الواتس أب من أصدقائه الذين استغربوا غيابه خلال هذان اليومان.

صعد إلى غرفته بهدوء حتى أنّ أمه لم تنبه لدخوله، دخل الغرفة وأغلق الباب، خلع عنه سترته ثم حذاؤه وتمدد على سريره ممسكاً هاتفه الذي لم يهدأ عن الاشعارات، رسالةُ من عادل صاحبه يسأله عن سبب غيابه عن الشلة، وأخرى من أسامة صديقة الأقرب له بين أفراد الشلة كما يقولون لأنفسهم، وكثير من الرسائل والمكالمات الأخرى سواء من أصدقائه في العمل أو خارجه.. لم يكترث أو يهتم لأيّ منها سوى لواحدة فقط كانت من نور. نور..!

ومن نور ؟!

نور كانت زميلة محمد في العمل إلّا أنّها قدّمت استقالتها منذ أشهر ولم يعلم السبب.. كان محمد أبدى اعجابه بها، وما إن بدأ التقرّب منها والتعرّف

إليها حتى جاءت استقالتها الفجائية و أعاقت اتمام هذه العلاقة التي لم تبدأ أساساً.

هذه الرسالة كانت أول رسالة بينهما منذ أن قدمت استقالتها من العمل، أمّا محمد فقد حاول الاتصال بها عدة مرات وأرسل لها العديد من الرسائل سواء عبر الواتساب أو رسائل نصية أو عبر برامج أخرى إلّا أن نور لم تكن تجيب نهائياً رغم رسمية رسائل محمد وبراءتها من أي اشارات ود أو غيرها.

أسرع محمد بيده باتجاه رسالة نور عبر الواتساب :

- مرحباً محمد.. كيف حالك يا صديقي ؟

أعتذر لك جداً لم أستطع الاجابة على رسائلك ومكالماتك الماضية، أرجوك سامحني على ذلك..

أخبرني كيف حالك وما هي أخبار العمل والأصدقاء هناك ؟

كان محمد يريد الاجابة على الفور لشدة سعادته بتلك الرسالة، لكنّه تردد أخيراً عندما تذكّر ما وصل إليه حاله، تذكّر مرضه العضال الذي لا شفاء له. أغلق هاتفه مجدداً رامياً اياه على السرير بقربه.

بدأ بالتفكير بنور، بوجهها، بضحكتها، وتفاصيلها التي اعتاد عليها كل يوم من أيام عمله في السابق، كم كان يفتقدها في هذه اللحظة.

لم يجمع بين نور ومحمد أيّ قصة حب لم تكن إلّا نظرات اعجاب بريئة من محمد فقط، وربما نور لم تكن تنتبه إليها فعلاً، خاصةً أنّها كانت تتعامل معه كأيّ موظف زميل في العمل ولنقل صديق عملٍ مقرب لا أكثر ولا أقل.

نور لم تكن إلّا فتاة رقيقة ذات ابتسامة جذّابة وروح جميلة، لكنّها في الفترة الأخيرة أصبحت غريبة الأطوار لم تعد تكترث لأحد، تنطوي على نفسها غالباً، منسجمة بعملها وحسب، حتى ابتسامتها أصبحت باهتة.

في تلك الفترة شعر محمد بالقلق اتجاهها وحاول التقرّب منها لمساعدتها إن كان لديها أي مشكلة، إلّا أنها لم تلبث أن قدّمت استقالتها ولم تعد تجيب على مكالماته ورسائله هو أو أيّ كان، حتى اختفت تماماً إلى حين وصول هذه الرسالة لمحمد هذا اليوم.

أمسك محمد هاتفه مجدداً وفتح على رسالة نور وقرر الرد :

- أهلاً نور.. أنا بخير الحمد لله

لا بأس يا صديقتي المهم كان سبب الغياب خير، أرجوكِ أخبريني ؟

أنا حالياً بإجازةٍ طويلة، أحتاج فترة قليلة أو ربما طويلة لأخذ نقاهة أستريح بها من هموم هذه الحياة..

جاء رد نور مباشرةً وكأنّها كانت تنتظر رده :

- الحمد لله لا تقلق أنا بخير الآن والحمد لله، مررت بفترة صعبة قليلاً، لكنّي الآن في اجازة أيضاً أردت أن أستريح قليلاً مما مررت به وأنا الآن بخير والحمد لله.

لكن أخبرني ما حالك أنت ولما هذه الاجازة.. هل أنت على ما يرام ؟

- لا لا أنا بخير صدقيني.. شكراً لك على اهتمامك صديقتي

أتمنى أن تكوني بخير على الدوام، اعتن بنفسك

كان محمد سعيداً جداً بكلام نور، شعر أنّه شُحن بشحنةٍ ايجابية كبيرة ستجعله يقاوم ذلك المرض الذي تطفّل إليه فجأةً دون أي استئذان لسنةٍ إلى الأمام، كان سعيداً بتلك الكلمات البسيطة منها وكأنّها أهدته الحياة بأكملها ببعضٍ من الكلمات المعدودة..

أحياناً مجرد الحديث مهما كانت بساطته مع شخص تحبه يجعلك تنتقل من حالٍ إلى حال، من ضيقٍ إلى راحة، يجعلك تتنفس الصعداء وكأنّه غرفة انعاش، ليس مهماً طبيعة الحديث وماهيته المهم من يحدّثك حتى ولو بكلمات وأحرف مقروءة لا أكثر.

تمنى محمد في هذه اللحظة لو أنّه ليس بهذه الحال فلم يكن ليتردد بالرد على رسائلها بكلمة واحدة " أحبك ". تلك الكلمة لم يعد لمحمد الحق بقولها على الاطلاق لا لنور ولا لأي فتاةٍ أخرى في هذا العالم.

كان محمد تعيساً بقدر سعادته.

رمى هاتفه مجدداً بجانبه على السرير ولم يكن يتوقع رداً أخر من نور، فقد كان رده كفيلاً بإغلاق الحديث بينهما وهذا ما كان يريده الآن.. لا يريد إلا اغلاق الحديث الذي لابد من اغلاقه لأي سبب كان، وإلّا فإن تطوره لن يكون لصالح أي منهما مهما كان.

في هذا اليوم لم يصلّي محمد سوا صلاة الفجر رغم رفع الآذان على مسامعه أكثر من مرة، مرة عند أذان الظهر والآن عند آذان العصر، لم يكن معتاد على الصلاة وأيضاً عندما صلّى الفجر لم يفكّر بما فعل، صلّى وكأنّه مغيّب عن الحياة، هو فقط انتقل فجأة في لحظة ضعف إلى حضن كان الأقرب إليه وهو حضن الله ودفء كلامه، استسلم للأذان وانتقل إلى تسبيح الله ليرتاح،

كراحة الطفل في حضن والديه وقت التعب.

بعد يومين .. بدأت الرحلة..

مرّ اليومان بسرعة على عكس توقّع محمد الذي قضى هذان اليومان غالباً بالنوم ناسياً كل ما حوله من أصدقاء و أقرباء وحتى عائلته التي لم يهدأ أفرادها عن الالحاح لمعرفة سبب هدوئه وتغيبه عن كل من حوله والانعزال بالغرفة غالباً للنوم وعن سبب تلك الاجازة المفاجئة أيضاً.

يبدو أن محمد كان ذكياً في مراوغة أهله وإقناعهم بأن ما يمر به ليس إلّا بسبب الارهاق والتعب وأنّه يحتاج لإجازة طويلة نوعاً ما تريحه من أعباء العمل الجسدي والنفسي الذي مرّ به الفترة الماضية.

مرّ اليومان بهدوءٍ أيضاً دون اهتمام كبير من الأصدقاء الذين من المفترض أن يسألوا عن غيابٍ أحد أهم أفراد شلتهم باستثناء أسامة الذي ألّح على محمد كثيراً في مكالماته والسؤال عن سبب تغيبه عن الشلة وابتعاده عنه أيضاً، لكن محمد كان مصرّاً أيضاً على عدم الاحتكاك بكلّ أصدقائه حتى أسامة الأقرب منهم إليه، لم تكن غايته إلّا الهرب وحسب.

هرب محمد رامياً وراءه كل أولئك الأصدقاء حتى أسامة، وكأنهم لم يكونوا يوماً إلّا أصناماً بلا أرواح قد شاركته تلك اللحظات الماضية ذات يوم. ذهب وكأنه لم يكن يوماً منهم ولن يكون أبداً بعد اليوم، لم يكن يحمل أيّ من المشاعر اتجاههم كانوا كأصنامٍ وحسب حتى الوداع لم يراه مبررا

معهم. خرج منهم حتى دون أن يخبرهم بأي شيء ولم يودعهم، خرج وانتهى هنا كل شيء كان يربطه بهم.

في صباح اليوم التالي خرج محمداً بعد أن ودّع أهله وطلب الرضى من والديه منطلقاً إلى المطار لاحقاً موعد طيارته. لم يكن يخطط لأي شيء، لا يعرف ما الذي يمكن أن ينتظره هناك.

إلى أين ذاهب يا محمد ؟!

ما الذي ستقوم به هناك ؟

هل ستجري تحاليل أخرى ؟! أم ستلتحق بمركز علاجي مختص بمرض الايدز ؟!

كان يتساءل دون ورود أي اجاباتٍ في فكره لتساؤلاته تلك.

في المطار صعد محمد الطائرة أخيراً بعد مناداة المسافرين بالصعود إليها، جلس بمقعده المحدد وانتظر الاقلاع، لم يفكّر في هذه اللحظة بأي أي شيء سوى انتظار الاقلاع.

هناك في المقعد الأمامي جلس طفلُ صغيرٌ ووالدته كان في الثامنة من عمره تقريباً.

أقلعت الطائرة أخيراً وفي لحظات وجد محمد نفسه في السماء بين الغيوم التي بانت وكأن كل واحدة منها تعانق الطائرة ثم تمضي، بدأ محمد بمراقبة الطفل أمامه لا يمكن وصف جمال الأطفال، ينعكس الجمال غالباً من الداخل فتخرج البراءة والعفوية والصدق على شكل بريق لامع يملأ العينين، وعندما ينطق الفم الحب والحنان والعفوية لا يمكن إلّا أن يَنطقها

بشفتين جملتين لطفل جميلٍ صادقٍ، وهذا ما يمكن وصفه لدى الأطفال فلكلّ الأطفال الجمالَ ذاته.

لقد بدا عليه الهدوء والاطمئنان رغم صغره، لم يكن يأبه هذا الطفل لوجود محمد خلفه. التفت إلى والدته وبدأ التحدّث معها :

– ماما وأخيراً سأرى الله

ضحكت الأم معجبة بكلام طفلها البريء

– هل تريد أن ترى الله ؟

– نعم ماما أريد أن أراه في السماء.. ألم تخبريني مسبقاً أن الله موجود في السماء ويسمعنا دائماً ويراقبا ويحمينا من الأعلى ؟!

– نعم يا حبيبي هو فعلاً في السماء وفي الأرض أيضاً وفي كل مكان

– وكيف ذلك ؟

– الله هو من خلقنا وهو قادر على رؤيتنا أينما كنّا، هو أكبر من أيّ شيء موجود على هذه الأرض فهذه الأشياء هو من خلقها وصنعها وهو وحده القادر على متابعتها.

الله أكبر من أيّ شيء ولا يشبه أيّ شيء وليس كمثله شيء

– لكن ماما لماذا لا نراه الآن إن كان يتابعنا ويراقبنا من السماء ؟

– الله أعلى وأكبر بكثير من أن نراه. وليس كل شيء موجود يمكن لنا بالضرورة أن نراه فالنور لا نراه والهواء نستشعر وجوده ولا نراه. الله يا بني كبير أكبر مما خَلَقَ بكثير. هو محيط بنا وكأنّه يحضننا جميعاً ليس إلّا خوفاً علينا

- فكيف عرفنا بوجوده إذاً ماما ؟

- لكل شيء في هذه الحياة يا ولدي صانع ومسبب. هل تذكر عندما أخبرتني قصة أديسون الذي اخترع الكهرباء لنا ؟! لولا هذا المخترع المبدع لما عرفنا الكهرباء يوماً ولا أنيرت المنازل والشوارع ليلاً لكل شيء في هذه الحياة صانع أو مصدر له صانع.. من الذي أبدع بخلق الشمس التي تنير الكون بأكمله لا شارع وحسب أو غرفة واحدة فقط !

الذي أبدع بخلقي وخلقك هو من أبدع بخلق النور والشمس والسماء والجبال والبحار لكل هذه الأشياء صانع واحد أبدع في صنعته وخلقه إنّه الله، الله صاحب وخالق هذا الكون بأكمله لقد خلق وأحسن خلقه.

- إذاً لن نرى الله ؟ (قالها الطفل بحزن)

- لا تقلق يا حبيبي ستراه بعد عمرٍ طويل في حياتك الأخرى .. سنرى الله جميعنا

- حقاً ؟

وكيف عرفت ذلك ماما ؟

- لقد وعدنا الله ذلك بكتابه العزيز القرآن الكريم الذي أرسله لنا مع رسوله إلينا وهو النبي محمد عليه الصلاة والسلام

- أحبّ الله كثيراً وأتمنى رؤيته، ليتي أراه الآن فأنا أريد أن أشكره كثيراً أولاً لأنّه خلق هذا الكون الجميل وخلقني أنا على هذه الحال العبقرية أرى وأسمع وأفكر أحرك يداي وقدماي أيضاً، تخيلي ماما لو أنه تركني كدمية أختي لولو، لا أستطيع الحركة، لا أرى ولا أسمع أو أتكلّم حتى أنني أُرْكَلْ

كل يوم بقدم طفلٍ صغير فقط لأنّه يريد أن يلعب..

ضحكت الأم ضحكةً عالية بسبب كلام طفلها حتّى محمد الذي كان متابعاً لحديثهم ضحك بهدوء أيضاً.

- الحمد لله أنّي سأراه

هذا ما قاله الطفل لوالدته قبل أن يدير رأسه إلى النافذة متابعاً مراقبة السماء بلهفةٍ وحب.

***

بعد ساعتين

وصل محمد إلى مطار القاهرة كان متعباً مرهقاً، رغم ذلك كان متحمساً وناسياً كل مصابه وكأنّه فتح باباً لحياةٍ جديدة سيخوضها قريباً، حياةً لها معنى هذه المرة، هذا المعنى للحياة لم يأتِ إلّا بعد ادراك محدودية هذه الحياة وعدم أبديتها لا أكثر.

أخذ محمد سيارة أجرة وطلب منه ايصاله إلى فندق جيد بعيد عن الزحمة نوعاً ما وفي طريقه فتح سائق السيارة حديثاً مع محمد كما أيّ سائق تاكسي في مصر أو في أي بلد عربيٍّ أخر، فقد اعتدنا على طبيعة سائقي التاكسي الفضولية غالباً، وكأيِّ سائقٍ مصريٍّ طيب سأل العم أبو مدحت محمد وهو يقود سيارته باتجاه الفندق :

- هل أنت سوريّ يا أستاذ ؟

- نعم يا عم أنا من سوريا

– أهلاً أهلاً بأهل سوريا الأشقّاء الأحباب

– أهلا بك عم....

– أبو مدحت.. أنا أبو مدحت

– أهلاً بك عمي أبو مدحت

– قل لي يا بني هل أنت هنا للسياحة أم ماذا ؟

– لا.. أريد القليل من الهدوء والنقاهة فأنا متعبٌ قليلاً

– خيراً يا ولدي ؟ لا أرى أيّ علامات تعبٍ عليك حماك الله يا بني

" والله شاب ولا كلّ الشباب "

ضحك محمد من كلام الرجل الطيب ولا يدري أساساً ما الذي جعله يتكلّم عن حقيقة قدومه رغم أنّه كان يستطيع أن يجيب السائق أنّه سائح وكفى ليحسم هذا الحديث فليس مضطر للإجابة بأكثر من ذلك. ربما محمد كان يحتاج أن يفتح قلبه لإنسانٍ ما حتى وإن لم يكن يعرفه أبداً كأبي مدحت.

– تسلم يا عم.. الحمد لله ما زلنا بخير يا أبا مدحت

– خير يا بني ما هو مرضك ؟

– لا يا عمي مرضي قصته طويلة دعه حديث المرة القادمة

– وهل هناك مرة قادمة !

– نعم إن كنت لا تمانع عمي أبو مدحت أريد رقم هاتفك النقال حتى إن أردت الخروج لمكانٍ ما أو إن تهت في مكانٍ أو أمر ما، ألجأ إليك على الفور..

فيا حبّذا لو أنك تقود بي هذه الفترة التي سأمضيها هنا

– على الرحب والسعا بكل تأكيد يا بني

– هل ما يزال الفندق بعيداً يا عم ؟

– لا يا بني. سأوصلك الآن إلى هذا الفندق قم بحجز ليلةٍ واحدة إلى حين أن أبحث لك عن مكانٍ هادئ كما تريد وبعيد عن ازدحام القاهرة الذي لا أظن أنّك رأيته يوماً بكلٍ سورية

ضحك كل من محمد وأبو مدحت وما لبثا أن وصلا أمام بوابة فندقٍ كبير، توقف أبو مدحت بسيارته أمامها وساعد محمد بإخراج حقيبته التي أخذها منه موظف الفندق الواقف أمام البوابة مباشرةً ثم قدّم محمد كل الشكر للعم أبو مدحت وسجّل رقم هاتفه وحاسبه بالأجرة وانطلق مسرعاً وراء موظف الفندق لحجز ليلةٍ واحدة كما طلب منه أبو مدحت.

قام بذلك بالفعل واستلم مفتاح غرفته وصعد إليها مع موظف الفندق الذي أمسك حقيبته وما إن وصل الغرفة المطلوبة حتى أدخلها ووضعها على المنضدة، سأل محمد إن كان يريد شيئاً أخر، الذي بدوره شكره وأعطاه بعض من المال الذي قام بتصرفيه في المطار. خرج الموظف تاركاً محمد الذي أنهكه تعب السفر واستسلم للنوم فوراً.

مساء هذا اليوم وبعد نوم محمد لعدة ساعات بدأ هاتف الغرفة يرن طويلاً إلى أن استيقظ على صوته أخيراً :

– ألو

– السيد محمد عبد الحليم ؟

- نعم

- هنا في قاعة الاستقبال السيد أبو مدحت ينتظرك يقول أنّ هناك موعد بينكما ؟!

- نعم نعم حسناً سأنزل إليه حالاً

تعجّب محمد من كلام موظفة الاستقبال بالفندق فهو لم يكن على موعدٍ مع أبو مدحت. أسرع محمد بأخذ حمام سريع وتغيير ملابسه ونزل إلى لقائه، لم يكن يتخيل سرعة أبو مدحت.

كان أبو مدحت جالساً على احدى مقاعد الجلوس في غرفة الاستقبال ينتظره بلهفة وكأن وراءه خبرٌ مهم أو بشارةِ خيرٍ له. نزل محمد مستخدماً المصعد الكهربائي إلى الطابق السفلي لاستقبالَ أبوً مدحت وما إن خرج من باب المصعد حتى تعرّف إلى العم على الفور، كانت ملامحه الطيبة لا يمكن أن تُنسى على الاطلاق، توجّه محمد إليه على الفور ومدّ يده ليصافحه بقوة :

- أهلاً أهلاً بعمّي أبو مدحت.

- أهلاً وسهلاً بك يا بني

- ما وراءك ياعم ؟! أخبرني خيرٌ إن شاء الله ؟

- يا ولدي لقد توجهت اليوم بعد أن تركتك بالفندق إلى منزلي مباشرةً كانت الحاجة أم مدحت تنتظرني كعادتها على الغداء مع ولديّ الصغيرين مدحت وأمجد وكعادتي يا بني جلست أتحدّث على الطعام عن مجريات يومي وكنت أنت بطل حديثي معها هذا اليوم، عندما ذكرت لها أنك مريض وجئت للاستجمام والاستراحة هنا، ذكرت لي قصة قريبها اياد الذي لجأ إلى مركز

صحي يعتني بالحلة النفسية للمرضى، ليس مستشفى أبداً هو كالفندق أو النادي تماماً يعتني بالحالة النفسية للمرضى وغير المرضى أيضاً وقد حدثتني أن هذا المركز كان أحد الأشياء التي ساعدت اياد قريب زوجتي على الشفاء سريعاً من مرض خطير كاد أن يقضي على حياته. لقد عُني بالراحة الكبيرة هناك، تلك الراحة انعكست على صحته وجعلت جسمه يشفى بشكل أسرع . وبصراحة يا ولدي عندما أخبرتني زوجتي بذلك سعدت جداً لأجلك فهذا ما كنت تبحث عنه. وهاأنذا قد جلبت لك العنوان وتفاصيل عن المكان إن أردت !

- لقد أتعبت نفسك يا عمّي لأجلي !

كم أنا سعيدٌ بمعرفتك أيّها الطيب

- هل تريد أن تذهب الآن أم ماذا ؟

- لا عمّي دعنا نذهب غداً صباحاً ما رأيك ؟

- حسناً يا ولدي.. هل تريد شيئاً أخر ؟

- نعم.. أريد أن نأكل سويّاً.. ما رأيك ؟ هل تقبل عزومتي ؟

- بكل سرور يا باشا طبعاً

- اذاً فلننطلق إلى مطعمٍ على ذوقك تراه مناسباً لنا

- هيّا على بركة الله

انطلقا معاً بسيارة العم أبو مدحت إلى مطعم يهتم بالأكلات السورية كان قد جربه أبو مدحت مسبقاً واقترح على محمدٍ العشاء هناك كونه سوري

أيضاً. هكذا أنهى محمد يومه الأول بسماع أحاديث وروايات أبو مدحت التي لم تنتهِ إلّا للساعات الأخيرة من الليل.ثم عاد محمد إلى الفندق مجدداً أمّا أبو مدحت ذهب إلى منزله.

في تلك الليلة وقبل أن ينامِ اتصل محمد بأهله عبر شبكة الانترنت واطمئن على عائلته وكلّمهم فرداً فرداً ثمّ انطلق إلى النوم ناسياً كل شيء سوا موعده غداً مع أبو مدحت الطيب.

اليوم التالي..

كان محمد قد وصّى موظفة الاستقبال في الفندق ايقاظه عبر الهاتف كما المرة السابقة عند قدوم العم أبو مدحت وهذا ما فعلته فعلاً. جلس أبو مدحت كالمرة السابقة على الكرسي نفسه، حتّى نزل إليه محمد مسرعاً بعد أن جهّز نفسه وأعدّ حقيبته وسلّم مفتاح غرفته وأجرتها إلى موظف الفندق ثمّ ذهبا معاً إلى السيارة لينطلقا نحو منطقة تسمى الغردقة.

استغرقت رحلتهما بسيارة أبو مدحت أكثر من ساعة تقريباً وكالعادة ألهى محمد نفسه عن التفكير بأحاديث العم الطيب.

وصلا معاً إلى مركزBlue Tower لم يكن مركزاً بالضبط كان عبارة عن منتجع صحي فيه عدة مباني، كانوا أربع مباني تقريباً كل مبنى يشبه بنظامه المبنى أو الفندق الأخر، يحيط بتلك المباني حديقة كبيرة فيها الكثير من الأشجار الخضراء الضخمة بالإضافة إلى العديد من الأزهار بألوان مختلفة موزعة ضمن الحديقة بطريقة مبدعة وكأنها جزء من لوحة رسمت بيد فنان مبدع، لم تخلو الحديقة من مجالس هادئة و نسمات الهواء العليلة القادمة من أوراق أشجار السرو والنخيل وغيرها المعطرة برائحة الأزهار الناعمة، كانت مجالس استرخاء وهدوء لزوار هذا المكان وكان المرضى هم أولى بتلك المجالس وغيرها. خلف الحديقة كان مسبح خارجي حوله كراسي للتشمّس

والاسترخاء ومظلات شمسية وأيضاً إلى جانب المسبح قليلاً توجد بعض الألعاب الترفيهية ككرة الطاولة وطاولات البليياردو ولعبة رمي السهام وغيرها. و لم يخلو المنتجع بمبانيه الأربع من مراكز للياقة والتدليك والعيادات الصحية بأنواعها والنوادي الليلية والمكتبات والمطاعم الصحية و التراسات وغيرها، وكذلك لم يخلو المنتجع من مسجد صغير وكنيسةٍ أيضاً.

لم يمتّ المنتجع لأي المستشفيات بصلة، لم يكن إلّا منتجع استجمام وترفيه يُعنى بالمرضى دون غيرهم، يعتني بصحتهم النفسية بل براحتهم النفسية كأيّ انسانٍ عادي لا أكثر.

دخل محمد إلى موظف الاستقبال في المبنى الأول ليسأل عن أسعار الحجوزات مبدئياً وعن وجود مراكز معتمدة لتصريف المال، بعد أن تأكد من أجور الحجز وإمكانية تصريف المال الذي معه انطلق مباشرةً للتصريف من أقرب مركز ثم عاد لحجز غرفة كانت في المبنى الأول ذات اطلالة جميلة على حديقة المنتجع أولاً ثمّ إلى شاطئ البحر الأحمر أخيراً الذي لم يكن يتبع إلّا لهذا المنتجع الصحي وحسب.

انصرف العم أبو مدحت بعد أن اتفق مع محمد أن يطمأن عنه يومياً بالهاتف لربما احتاج لشيءٍ ما. لم يخبر محمد العم أبو مدحت عن تفاصيل مرضه حتى أن أبو مدحت لم يصر على معرفة التفاصيل، اعتقد أن محمد مريض سرطان أو ما شابه ولم يشأ أن يسأله شيئاً عن مرضه كان يكتفي بسرد قصصه وحكاياته اليومية له كما عادته مع زوجته أم مدحت. انصرف أبو مدحت تاركاً محمد وحيداً في غرفته الهادئة جداً بشرفتها العالية في الطابق الرابع من المبنى الأول.

خرج محمد إلى الشرفة فور وصوله الغرفة، وقف مستنداً على أحد أطرافها ناظراً هدوء الطبيعة التي تحيط به في الحديقة، متأملاً أمواج البحر المتواترة التي لم تكن ببعيدةٍ عنه أيضاً.

لم ير الكثير من الناس وهو واقفٌ يتأمل، ظلّ واقفاً يراقب من شرفته مرةً السماء ليتذكّر كلام الطفل بالطائرة ومرةً أمواج البحر ونسمات الهواء القادمة من أوراق الأشجار الكثيفة والضخمة، كانت جميعها كفيلة بتأكيد كلام الطفل عن عظمة خالق هذا الجمال وتلك الطبيعة.

نظر محمد إلى الأسفل قليلاً، وجد شاب بالعقد العشرين أو أكثر من عمره يتمشّى بين الأشجار واضعاً سماعةً لاسلكية بإحدى أذنيه وماسكاً هاتفه المحمول بيده، تسآل محمد مع نفسه

- ترى هل هذا الشاب مصاب بالايدز مثلاً !

لا من المستحيل أن يكون كذلك، لا لا أعتقد ربما كان مريض سرطان خاصةً أنّه يضع قبعة على رأسه، أعتقد أنه أنهى علاجه الكيميائي حديثاً وجاء هنا لأخذ بعض الاستراحة والترويح عن نفسه بعد رحلة علاجية ربما كانت طويلة مثلاً، لا أعلم ربما كذلك.

تنهد قليلاً ثمّ رفع يداه إلى الأعلى ورفع صوته قليلاً :

- وماذا الآن يا محمد ؟!

ذهب قليلاً بنظره إلى الشاب مرةً أخرى فرآه يتجه نحو مبنى صغير بدا وكأنّه مسجد.

دخل محمد إلى غرفته قام بإفراغ حقيبته من الملابس وترتيبها في خزانةٍ

صغيرة وُضِعَتْ قرب سرير يبدو مريحاً جداً بغطائه الأبيض مع وسادتين بلونٍ أبيضَ أيضاً كما وُضِع في الغرفة شاشة متوسطة الحجم أمام السرير بالإضافة إلى طاولةٍ كبيرة واثنتان صغيرتان مع كرسيين خشبيين بالإضافة إلى وجود حمامٍ نظيفٍ ضمن الغرفة مزوّد بكل ما يلزمه من معدّات.

الغرفة كانت مريحة للغاية بألوانها ذات الغالبية البيضاء وكذلك ألوان الطبيعة القادمة من النوافذ والشرفة، أيضاً الهدوء والسكون الذي يحيط بالمكان والذي لا يعكّره سوى صوت الطبيعة وحسب، أصوات طبيعية من حفيف الأشجار وهدير الأمواج ورائحة الأزهار وصوت نسمات الهواء التي تدخل الغرفة عبر تدافع ستائر النافذة والشرفة أيضاً.

بعد أن أنهى محمد ترتيب ملابسه دخل إلى الحمام وقام بأخذ حمام سريع وغيّر ملابسه ، ثمّ عزم النزول إلى الحديقة.أعدّ نفسه و حمل هاتفهً النقال ومحفظة صغيرة فيها بعض المال وخرج، لم يكن لدى محمد أيّ نيةٍ بفعل أيّ شيء سوى الخروج إلى الحديقة بل إلى الحديقة وما حولها لنقل للاستكشاف إن لم يكن للتأمل. عند وصوله موظف الاستقبال سأله عن فعاليات المنتجع وإن كان لابد من أي اجراءات ما للالتحاق بها أو حضورها، قدّم الموظف لمحمد برنامج المنتجع وفعالياته اليومية.

انطلق محمد خارجاً إلى الحديقة مشى قليلاً بين الأشجار والمقاعد المنتشرة هناك تأملّ جمال الأزهار والطبيعة الخلّابة ثم جلس على احدى المقاعد يفكّر:

- ثمّ بعد يا محمد ؟!

لا أريد أن أفكّر بأيّ شيء سوى بملأ وقتي بما هو مريح وحسب، أريد راحة داخلية لا أكثر ولا أريد أن أتذكّر شيئاً الآن.

لنتأملّ فعاليات المنتجع، لنرى هنا حفلات فنية راقية مع وجبة العشاء وهنا صالة للألعاب الرياضية وهنا للرسم وأخرى للمساج والسبا وهنا إن أردت السباحة وأخرى للقراءة.

حسناً لأنظم جدولاً بالفعاليات التي أريدها عبر نظام يومي، سأقسّم يومي بين ساعة جري صباحية بين أشجار الحديقة أو في ذلك المضمار حولها ثم لتكن ساعة للإفطار بعد حمام سريع، ثم أنطلق بعدها لصالة الرسم بما أنني كنت أهوى الرسم وأنا يافعاً وبوجود مدرب رسم هنا أظنّ انني سأقضي وقتاً ممتعاً يتجاوز الساعتين وربما أكثر سأعود لغرفتيّ محتاجاً قيلولةً صغيرة لطالما أحببتها في ذلك الوقت إلى أن يحين موعد الغداء أتوجه إلى أحد المطاعم، سأجعل غدائي كل يوم في مطعم مختلف عن اليوم السابق، بعد الغداء ممكن أن أتمشّى قليلاً بين أرجاء الحَديقة أو أذهب إلى شاطئ البحر للسباحة بعد استراحة صغيرة أو القيام بنشاطٍ ما من الموجودةِ هنا كالغطس ثم أعود إلى غرفتي لأخذ حمام سريع وقيلولةٍ صغيرة، لا مانع بعدها من أن أنطلق إلى صالةِ الرياضة إمّا لَلعب إحدى الألعاب آنذاك أو لمتابعة مباراة ما سواء في النادي ذاته أو عبر صالة العرض هناك بعد الانتهاء سأتوجه إلى أحد المطاعم لتناول وجبة العشاء وقضاء بعض الوقت الذي أراه سيكون مسلياً بوجود حفلةٍ مهما كان نوعها وأخيراً سأعود للغرفة، لكن سيكون هناك وقت طويل حتى أستطيع النوم، أظن ذلك.

ولم لا أجرب القراءة مثلاً ؟!

أنا لم أحبّ القراءة كثيراً إلّا أنني جربتها عدة مرّات ولم تكن سيئة سأجرب ذلك بعد مروري إلى المكتبة واختيار بعض الكتب روايات وقصص شيقة

أمضي بها وقت ما قبل النوم مع ترك بعض الوقت قبل النوم أيضاً للتواصل مع عائلتي وهكذا..

أووف يا محمد أظنّ أنني سأعيش كمتوحد في هذا المكان، لو أن لي صديق هنا، لكن لا بأس المهم أن أملئ وقتي كلّه دون ترك أي فرصة للتفكير بأيّ شيء لقد تعبت التفكير وعدمه ..

الوقت..؟!

ومنذ متى أنا أهتّم بالوقت ؟ّ!

لقد ملأت وقتي بالكثير بالأشياء منذ قليل ولا أظنني قمت بذلك من قبل، والسبب يعود إلى عدم اهتمامي بقيمة هذا الوقت في السابق، أغلب وقتي كان للنوم لا أكثر وأراني الآن أهرب من مسألة النوم خوفاً من عدم قدرتي على مقاومة التفكير في لحظات دخولي السبات اليومي كما كانت تدعوه أمي عندما كنت أخبرها أني ذاهبٌ للنوم وأرجو منها عدم ازعاجي.

أراني الآن أهتّم بتلك الساعات التي تمضي من عمري أكثر مما مضى، لقد أصبح لها قيمة.

بينما كان محمد يتمتم مع نفسه هكذا وإذ بيدٍ فوق كتفه وصوت ما فوق رأسه :

- هل أنتَ نازلٌ جديدٌ هنا ؟

- أه نعم نعم

نظر محمد إلى صاحب الصوت واليد على كتفه كان الشاب نفسه صاحب

القبعة الذي راقبه من الشرفة منذ قليل :

– أهلاً بك.. أنا سعد وأنا أيضاً مازلت جديداً هنا

– أهلا بك أنا محمد

– أرى نفسي غريباً بدون أيّ أصحابٍ أو أقارب

– معك حق

– هل أجلس بقربك ؟

– نعم بكلّ تأكيد تفضّل

– لقد هربت من رفاقي، أعلم أنهم يبالغون بالاهتمام بي وهذا ما لم أطيقه في الفترة الماضية، أصبحت بينهم كأنني منبوذ رغم أنهم يعاملوني عكس ذلك إلّا أن كثرة المبالغة بالاهتمام والمراعاة تولدّ لديك احساساً غريباً بأنك مختلف عن البقية، كالمنبوذ تماماً، ذلك المنبوذ الذي لا نريد أن نعترف له بمشاعرنا الحقيقية، ربما أرادوا اخفاء هذه المشاعر لا لشيء إلّا لأنّها مشاعر أصعب من أن تقال يا محمد.

هل تسمح بأن أقول محمد وحسب ؟

– بكلّ سرور طبعاً

– لقد هربت من أصحابي جميعهم بكل أنانية وتركت كل مشاعرهم سواء الحقيقية منها وغير ذلك وراء ظهري وأتيت هنا لأجلس مع نفسي، ربما أنتظر موعدي مع الله وآمل منه أن لا يكون الوقت الباقي مصحوباً بتعبٍ أو ألم أو أي دواء بعد اليوم.

- لا أرى بكلامك أي أملٍ بالحياة !

- لا تغيب الآمال بوجود الله ولكن لابد من مواجهة الواقع مع وجود الأمل، ووجود أحدهما لا يلغي الأخر... أسف يبدو أنّي أطلت الحديث أكثر من اللازم

- لا على العكس يا سعد لقد سررت بالحديث معك، كنت منذ ثوانٍ أحدّث نفسي وأخاف أن أتحوّل إلى متوحدٍ لا أكثر.

ضحكا الاثنين ثمّ نهضا معاً يمشيان باتجاه المبنى نفسه :

- أين غرفتك اذاً ؟

- في المبنى هنا رقمها ٣٣

- جميل جداً فأنا أيضاً في نفس المبنى في الغرفة رقم ٥٤

وإلى أين الآن ؟ إن لم يكن هناك تطفل !

- على العكس أنا سعيد بصحبتك.. بصراحة يا سعد لا أعلم ما الذي سأفعل الآن وبعده..

منذ قليل كنت أحاول تنظيم برنامج يومي لنفسي وما زلت في الساعات الأولى هنا فلم أعتد بعد على القيام بشيء سوى استكشاف الحديقة نوعاً ما والحديث معك.

- أنت سوري أليس كذلك ؟

- نعم وأنت مصري طبعاً !

- أجل أهلاً وسهلاً بك ومرحباً بكل السوريين اللطفاء

- لم أرى أطيب من الشعب المصري

- كثر الله خيرك يا سيدي.. دعنا الآن من المجاملات وأخبرني إلى أين ستذهب بعد صلاة المغرب ؟

صمت محمد قليلاً.... صلاة المغرب !

كانا الاثنان قد دخلا المبنى معاً باتجاه المصعد، دخلا المصعد ومحمد لم يجب سعد بعد.

- ها يا محمد لم تخبرني ؟

- ما رأيك أن نبقى على تواصل عبر الهاتف.. هات هاتفك لأسجل لك رقمي الواتساب ولنتواصل بعد انهاءك صلاة المغرب

- حسناً

كان محمد أنهى كتابة رقمه لسعد حين وصل إلى الطابق الرابع حيث غرفته.

في التاسعة مساءاً أنهى محمد مكالمته اليومية مع والديه وأخوته وأخبرهما عن سعادته بتلك الرحلة في يومها الأول، وما أنهى تلك المكالمة حتى وصلت إليه رسالة من سعد عبر الواتساب :

- محمد أين أنت ؟

كنت في المسجد وقد أنهيت صلاة المغرب وجلست قليلاً في المسجد لقراءة القرآن إلى حين صلّيت العشاء وأنا أنتظرك الآن في الأسفل عند المقعد نفسه في الحديقة.

تنهد محمد قليلاً ثم أرسل الرد لسعد :

– أنا قادمٌ يا سعد، كنت أتكلّم مع العائلة، سأنزل إليك حالاً.

أسرع محمد بتجهيز نفسه ونزل إلى سعد، كان سعد يجلس في المقعد ذاته الذي تقابلا عنده نهار هذا اليوم اتجه محمد نحوه ثم ألقى عليه التحية، تصافحا وكأنهما صديقان منذ زمن :

– ها يا محمد إلى أين الآن ؟

– أظنّ أنّك انت من عليه عمل المرشد السياحي لي أولاً لأنّك مصري وابن البلد وثانياً فأنت قد سبقتني إلى هنا ولديك معرفة بالأنشطة والأمكنة التي يمكن الذهاب إليها وحضورها أكثر منّي.

– حسناً يا صديقي دعنا الآن ننطلق إلى مطعمٍ قريبٍ من هنا، نتعشّى ونتكلّم قليلاً ثم نقرر لاحقاً أين سنذهب.

– اتفقنا.. أين المطعم ؟

– إنّه قريبٌ من هنا، دعنا ننطلق الآن فأنا جائعٌ جداً.

مشيا معاً باتجاه المطعم الذي كان قريباً منهم بالفعل، دخلا ثم اختارا طاولةً في الطابق الثاني للمطعم مطلّة على شاطئ البحر الأحمر من الجهة الأخرى، كانت اطلالة رائعة.

بدأ سعد الحديث كعادته بعد أن طلب كلّ منهما وجبة اختاراها من قائمة الطعام، اختار محمد سلطة سيزر مع كبة مقلية وطبق من الكوردن بلو أمّا سعد فطلب صحن من البابا غنوج و البطاطا المقلية وكريسبي دجاج :

– احكي لي عنك يا محمد، أنا تكلمت الكثير وأنت لم تحكي لي أيّ شيء

ضحك محمد محاولاً مراوغة سعد عن الاجابة ثمّ نظر إليه :

– ايبي يا صديقي لا شيء يذكر سوى بضع سنين قد بقيت في حياتي، لم أحاول حساب عمري يوماً، كنت أعيش عمري قاضياً لحظاته بكل أنواع البسط المتعارف عليه شعبياً سهر، بنات، تهور وعدم اعطاء قيمة لأيّ شيءٍ كان في هذا الكون، الحمد لله أنّي كنت قد حاولت الحفاظ على علاقتي مع أهلي الذين قدّروا على الدوام حياتي ومعتقداتي الخاصة التي أؤمن بها وأعيشها.

تنهدّ ثم أكمل :

أنا لم أخبرهم عن مرضي إلى الآن، كلّ ما قلته لهم أنّي مسافر للترويح عن نفسي قليلاً والتخلص من أعباء العمل فأنا أعمل موظف في المحاسبة في أحد بنوك دمشق.

جاء الطعام مما اضطر محمد أن يتوقف عن كلامه بل رآها فرصة للتهرب من ذلك الحديث الذي طالما هرب منه في الفترة الأخيرة.

– أرى أن رائحة الطعام شهية أكثر من اللازم يا سعد

– هيّا يا صديقي تفضل باسم الله

أخذ محمد وسعد يأكلان بشراهة، يبدو أن الطعام كان لذيذاً بشكل واضح أو أن كلاهما جائعان لدرجةٍ أن كل منهما نسي وجود الأخر أثناءً تناول العشاء، هكذا إلى انتهيا معاً وجاء النادل لأخذ الأطباق التي بدت فارغة تقريباً وتنظيف الطاولة، طلب كل منهما كأساً من الشاي كانا قد اعتاد

كليهما شربه بعد وجباتٍ كهذه، كذلك قدّم النادل ضيافة المطعم وهو طبقٌ من الحلويات المشكلّة.

- اذاً تعمل محاسب في أحد البنوك ؟

- نعم، وأنت ما هو عملك ؟

- أنا طبيب

ابتسم سعد ثم أكمل :

- أنا طبيب يا صديقي والطبيب أيضاً يأخذ دور المريض أحياناً، لقد أصبت بالسرطان عندما كنت أعالج مرضاي منه، ومن أولى مرضاي كانت أمي رحمها الله، لقد توفيت العام الماضي عندما علمت بمرضي رغم أنها صمدت لسنين عدة وكانت قوية بصمودها أمام هذا المرض مع كبر سنها وضعف جسدها أمام جسدي كشاب.

كانت على الدوام مستعدّة للذهاب إلى الموت بل إلى الحياة الأخرى كما كانت تقول، ذلك الاستعداد وتلك الحالة من الرضا جعلت جسدها قوياً أمام ذلك المرض اللعين الذي بدأ يتراجع عن أجزاءٍ عديدةٍ من جسدها رغم انتشاره الكبير الذي لم نعلم به بشكل سريع بادئ الأمر.

تخيّل يا محمد أن أصدقائي الأطباء قد جعلوا من أمي مثالاً أمام مرضاهم

(تلك الحاجة أم سعد رغم كبر سنّها فهي تواجه المرض بقوة، لدرجة أنها جعلت الخلايا السرطانية تتراجع عن بعض أجزاء من جسدها وهذا ليس إلّا خطوة لتراجعها جميعها. ليست إلّا حالتها النفسية وروحها الجميلة هي سبب هذه الحالة الفريدة في عالم الطب وتحديداً في موضوع السرطان

وخلاياه التي اذا ما انتشرت لا تتراجع بسهولة)

لكن أمّي عند علمها بإصابتي بالمرض نفسه رغم محاولتي اخفاء مرضي عنها، إلّا أنها عند علمها به ساءت حالتها للأسف، خاصةً عندما كانت تراني أتألّم من الأدوية التي تعلم تماماً مدى قوته.

صمت الطبيب طويلاً راحلاً بذاكرته نحو أمّه، تابع محمد الحديث محاولاً اعادة سعد إلى عالمه الحاضر :

- أخبرني الآن هل تزوجت أم أنك متزوج أم ماذا ؟

- لا أنا مازلت عازباً والحمد لله، لو أني متزوج لكنت سبّبت أحزاناً مضاعفة بل مصائب عدة لزوجة أرملة بعد سنوات وربما أطفال أيتام أيضاً، كنت أحببت فتاة كانت زميلتي في كلية الطب ولكن كان ذلك منذ زمنٍ بعيد لم تدخل إحداهن قلبي بعدها أبداً لذا كانت أمي قبل وفاتها وقبل معرفتنا بمرضي تنوي أن تخطب لي بل تزوّجني كانت تقول (أريد أن أفرح بك يا حبيبي وأرى وأحمل أطفالك قبل أن أموت)

- لم تخبرني شيئاً عن والدك ؟

- والدي توفي بحادث من زمن بعيد كان موظف بشركة الكهرباء واضطر يوماً إلى اصلاح عطلٍ ما أودى بحياته إلى الأبد كانت الكهرباء سبباً لموته وأنا لم أكن سوى في السّادسة من عمري لم أذكره كثيراً لكن أمي التي جعلتني كلّ حياتها بعد وفاته كانت تخبرني عنه كثيراً لدرجة أني أصبحت أعرفه أكثر من لو أنّه مازال معنا حيّا إلى الآن.

لا أدري ما أصابني لقد أخبرتك الكثير بل ربمّا أصبت رأسك بالألم من

كثرة كلامي.

- لا أبداً يا صديقي أنا سعيدٌ بكلامك جداً

- أحياناً بل دائماً ما أفكّر أن أبي أو أن دعاء أمي كان سبباً بكل ما حلّ بنا، أظنّ أنّ أمّي وأبي سعيا لجمع العائلة من جديد في الحياة الأخرى بعد وفاة أبي في تلك الحادثة، لطالما رأيت بوجه أمي شوقاً كبيراً لملاقاة أبي في الأخرة، كانت على الدوام تجهّز نفسها لملاقاته، وكأنّها على موعدٍ مع يوم زفافها، وأظنهما الاثنان الآن لن ينقصهما إلّا وجودي، لذا لابد لي من اللحاق بهما فلا تكترث لمرضي كثيراً يا صديقي، ليس إلّا سبباً للقاء الأحبة.

أنت لم تحدّثني عنك كثيراً وعن قصتك ؟

- لقد أخبرتك. وبما أخبرك أكثر من ذلك ؟

- لم تخبرني عن حالتك الصحية ومرضك، لا تنسى أنني طبيب

صمت محمد قليلاً لا يدري كيف له أن يخبر صديقه المحترم عن مرضه الذي لم يكن إلّا مخجلاً بنظر محمد فهو يعلم تماماً مصدره، نظر إلى سعد ثم أجاب :

- مرضي مخجل يا دكتور لا أحبّ الحديث عنه، أمّا عنّي فأخبرتك عن عملي وكيف كان حالي

- نعم لكن لم تكمل، وما هو مرضك المخجل هذا !

هل تقصد الايدز مثلاً ؟

صمت محمد أيضاً ولم يجب مبتعداً بنظره عن الطبيب

- الايدز إذاً، وما المخجل به يا محمد. ليس إلّا فيروس بإمكانه أن يصل جسدك بطرق عدة أهمها عن طريق الخطأ الطبي أيّ كان، أعلم قصة شاب أصيب بهذا الفيروس عن طريق طبيب الأسنان بسبب معداتٍ استخدمت لمصابٍ أخر.

كان الطبيب يحاول تخفيف حالة الاحراج التي بدت واضحة على محمد، أمّا محمد فلم يكن مستاءً من ذلك بل على العكس بدأ يرتاح لكلام الطبيب ليخرج من الاحراج الذي كان به.

- شكراً لك يا سعد

- على ماذا يا صديقي ؟

- لا أعلم لكنّ كلامك مريح لدرجة أنني شعرت وكأنه اجابة لكل تلك التساؤلات التي تراودني على الدوام وأهرب منها حتى قبل أن أعرفها او أ فكر بها.

- رغم أني لم أفهمك كثيراً، إلّا أنني أريد أن أكمل ما بدأت به لأخبرك أنّه يمكن لفيروس الايدز أن يزور جسدك لسنواتٍ طويلة دون أن تشعر به. فرصك بالحياة أكبر من مرضى السرطان لكن انتبه إلى صحتك على الدوام فمناعتك لن تبقى كسابق عهدها.

- لا أعلم بالضبط ماذا تعني بفرصي الأكبر في الحياة من مرضى السرطان!

لكن حتى وإن كان لي فرص كثيرة للحياة فلا سبيل للنجاة أساساً لعيش تلك الفرص التي تتكلم عنها، وأي حياة إن كان هذا المرض يحتّم عليك العيش وحيداً دون أي زوجة أو حلم بعائلة صغيرة، على العكس فإنّي أرى

أنّ لمريض السرطان فرص بالنجاة أكبر من مريض الايدز الذي لا يمكن أن يملك أي فرصة لا للحياة ولا للنجاة.

- ومع ذلك فأنت أفضل صدقني.

ضحك محمد ولم ينتظر طويلاً حتى شاركه سعد الضحك أيضاً ثم طلبا حساب المطعم الذي لم يرضى سعد إلّا أن يدفعه رغم اصرار محمد على دفعه لكنّ سعد اعتبر محمد ضيفاً عزيزاً لا يمكن إلّا اضافته ولو لليوم الأول على الأقل.

وهكذا أمضى محمد يومه الأول مع سعد الصديق الجديد الذي أصبح يعلم ما يخفيه محمد ويخجل أن يقوله لأي أحد بسهولة. تواعدا الاثنين لقضاء اليوم التالي معاً أيضاً وتوجه كل منهما إلى غرفته للنوم.

في اليوم التالي..

استيقظ محمد على رنين هاتفه إنّه سعد، بدا محمد متثاقلاً من كثرة النوم، إذاً فقد نام مرتاحاً الليلة الماضية، لم يستطع الرد على هاتفه رغم سماعه الرنين، أمسك الهاتف ثم نظر الاسم على الشاشة إنّه سعد، أعاده إلى مكانه وعاد للنوم، كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحاً، لم يعتد محمد الاستيقاظ في هذا الوقت حتى و إن كان غيّر عاداته خاصة تلك التي تخصّ النوم، فهو لم يعد ينام كثيراً كسابق عهده ومع ذلك لم يعتد النهوض بعد في مثل ذلك الوقت، هو كسولٌ كعادته.

بعد ساعة تقريباً عاد الهاتف للرنين عبر تطبيق الواتساب كان سعد أيضاً، بدأ محمد باستجماع نشاطه إلى أن أجاب على الهاتف :

– مازلت نائماً يا محمد.. !

هيّا انزل بسرعة أنتظرك عند المقعد ذاته.

لم يعطي سعد لمحمد أي فرصة للرد أو الامتناع عن النزول

حاول محمد النهوض من فراشه بتكاسل، مدّ قدماه حتى نهاية السرير ورفع يداه إلى أعلى رأسه ثم صعد بجسمه بكل قوته لينزل عن سريره متجهاً إلى الحمّام قام بغسل وجهه وتفريش أسنانه وتغيير ملابسه وأمسك هاتفه ومحفظته الصغيرة ثم نزل مستخدماً المصعد إلى الحديقة حيث كان سعد مازال ينتظره عند المقعد ذاته :

- صباح الخير

- أهلاً أهلاً صباح الأنوار سيد محمد، ما هذا التأخير ؟

- كنت نائم أعتذر جداً يا صديقي، كيف حالك اليوم ؟

- أنا بخير الحمد لله وأنت ؟

- الحمد لله بخير أيضاً

- هيّا لننطلق اذاً

- إلى اين ؟

- ستتمشى بالحديقة هنا أو نركض مهرولين قليلاً، ما رأيك ؟

- حسناً هيّا بنا

مشيا معاً مهرولين بحركات رياضية عبر المضمار المخصص للركض في الحديقة، أكملا حديثهما معاً وهما يركضان جنباً إلى جنب وبحركاتٍ متشابهة رافعين أرجلهم بالتناوب مرةً اليمين وأخرى اليسار :

- لو أننا اتفقنا بعد صلاة الفجر، كنّا صلّينا في المسجد وانطلقنا للجري عند ساعات الصباح الأولى يا لجمال هذا المنظر يا محمد.

- أنا لا أصلي

أجاب محمد بحزم وهو يهرول بحركات مشابهة لحركات سعد بجانبه

- توقعت ذلك، ولم لا يا محمد ؟!

- إنّها نور

- ماذا؟

- إنّها نور

- من نور وما علاقتها بموضوع صلاتك ؟

- انظر إنها هناك، نور زميلتي في العمل

- أين هي ؟

- هناك تلك الفتاة التي تلبس بيجامة بلونٍ أسود وحجاب أبيض

- ما بك توقّفت، هيّا لنكمل طريقنا نحوها نسلّم عليها

- لحظة يا سعد دعني أستوعب هل هي نور فعلاً ؟!

- لنقترب منها ونرى..

لكنني أرى لهفتك تلك لهفة عاشقٍ ومحب وليست نظرة زميل،، أخبرني هيا، هل تحبّها ؟

- نعم ؟!

لا لا إنّها مجرد زميلة صدقني

- لم أقتنع ولكن هيّا

- حسناً هيّا

انطلقا الاثنان نحو تلك الفتاة، كان محمد كلّما اقترب منها تأكدّ أنّها نور بالفعل وبدأت ضربات قلبه تتزايد

أمام أحدهم.. تقف لتتذكّر أنّه لا شيء أسرع من دقاتِ قلبك .

وقف محمد أمام نور التي استغربت وقوفه أمامها فهي لم تنتبه أنّه محمد نفسه زميلها بالعمل بل محمد نفسه التي طالما أعجبت بنظراته الخاصة لها فقد كانت تبادله الاعجاب أيضاً :

- مرحباً نور كيف حالك ؟

- أهلاً..

أه محمد، أنت محمد " شو هالصدفة الحلوة "

- نعم نعم محمد زميلك في العمل

- أهلاً بك، وما الذي جاء بك إلى هنا ؟

هل جئت مع أحدهم أم ماذا ؟

- جئت لأجلك (قالها هامساً)

- نعم ؟

- لا كنت أقول جئت مع نفسي فقط

- هل أنت مريض ؟

قال سعد مقاطعاً نور ومحمد ساخراً من أسئلتهم عن المرض :

- وهل من نازلٍ هنا إلّا مريض !

- نسيت أن أعرّفك بصديقي الطبيب سعد

- بل أخبرها أنّ المريض والطبيب سعد

ضحك جميعهم ثم مضت نور في طريقها مستأذنة محمد وصديقه وقبل

أن تمشي طلب منها محمد رقم هاتفها ثم تذكّر أنّها كلّمته قبل أيام من رحلته، استأذنا الاثنان وفي قلب كل منهما حكاية كبيرة لكنها حكاية مرصودة بألف لغزٌ ولغز.

أكمل محمد مسيره مع سعد الذي لم يتوقف عن سؤاله عن قصته مع نور ومع ذلك أبى محمد إلّا أن تبقى نور زميلة وحسب سواء بقلبه أو أمام صديقه الجديد سعد أو لنقل إنّها الحقيقة فعلاً هي لم تكن إلّا زميلة وحسب.

– أنا تعبت يا محمد، دعنا نذهب لتناول الفطور

– بالتأكيد لكن أين سنفطر يا سعد ؟

– ما رأيك بالمطعم الذي في الحديقة هنا

– حسناً لنذهب

كان المطعم يقدّم وجبات داخل المطعم أو خارجه في أرجاء الحديقة على الطاولات المنتشرة حوله ضمن أرجائها، جلس محمد مع سعد على احداها وطلب كل منهما فطائر الزعتر والجبنة بالنعناع مع الشاي.

وهما على مائدة الطعام اتفقا أن يذهبا إلى المكتبة بعد صلاة الظهر لاستعارة بعض الكتب من أجل قراءتها، كانت الفكرة من اقتراح سعد أمّا محمد فلم يمانع خاصةً أنّه فكّر بذلك أيضاً قبل أن يرى سعد ويتعرّف عليه.

تقصّد سعد عدم سؤال محمد عن الصلاة رغم وجود العديد من الفرص للتحدث بذلك إلّا أنّ سعد كان يمتنع عن سؤاله أو احراجه، ومع ذلك كان يتقصّد أيضاً ذكر الصلاة أمامه وموعدها وأهميتها بالنسبة له. لم يكن سعد يعلم أن مصيبة محمد ليست بعدم صلاته وحسب إنما مشكلته تكمن بعدم

قبوله أو اعترافه بوجود إلهٍ بالمجمل كي يصلّي له !

سعد لم ينتبه إلى أفكار محمد كملحدٍ متواضع على الاطلاق، ربما لم يعد محمد يتفاخر بأفكاره تلك كما سابق عهده مع عائلته وأصدقائه أو ربما لم يعد مؤمناً بها أو لنقل أنّه في الأصل لم يكن مؤمناً بها، كانت مجرد أفكار دارجة لابد له كمحمد السابق التائه الصائع أن يحمل مثلها ويتفاخر بها على أنها ميزة جديدة يتفرّد بها عمّن حوله آنذاك، ميّزة تجعله يبرّأ نفسه أمام نفسه ذاتها على الأقل، أمّا الآن فمحمد لم يعد صائع حتى أنّه تخلّص من ذلك التيه الذي كان يعيشه.

أنهى محمد حمّامه ثم غفى غير آبه بشيء من حوله هكذا إلى أن أصبحت الساعة الثانية والنصف استيقظ على رنين هاتفه، إنّها والدته تكلّم معها لأكثر من نصف ساعة ثم جاء هاتف سعد عند الثالثة تماماً :

– ها محمد أين أنت

– لقد غفوت طويلاً وأنت ؟

– أنا أيضاً يا صديقي أظننا تعبنا اليوم

– نعم، أين أنت الآن

– أنا ذاهبٌ إلى المسجد سأقرأ القرآن إلى حين أذان العصر بعد نصف ساعة تقريباً ثم سأمرّك عند المقعد كما كلّ مرة

– حسناً اتفقنا

– إلى اللقاء

الصلاة !

كيف يلتزمون بالصلاة بهذه الطريقة !

نهض محمد من فراشه حيث كان مستلق يكلّم والدته، جهز ملابسه وهيّأ نفسه للخروج كانت الساعة تخطّت الثالثة والنصف، جاء هاتف سعد فألغى محمد المكالمة ونزل مسرعاً إليه باستخدام المصعد حيث كان ينتظره كالعادة عند المقعد.

في المكتبة..

توجه محمد وسعد إلى المكتبة كما اتفقا صباحاً، كانت المكتبة بملحق صغير قرب المبنى الثاني الذي لا يبعد سوى بضع الخطوات عن الأول. دخَلا معاً المكتبة التي حوت على كتب متنوعة علمية اسلامية، تاريخية، روايات وشعر، وأدب عربي وغيرها من الكتب الكثيرة، المكتبة لم تكن ضخمة كثيراً لكنّها تحوي كتب متنوعة ولكتّابٍ عدة عرب وأجانب تُرجمت أعمالهم إلى العربية.

وقف محمد قرب طاولة وُضِعَت لموظف الاستقبال في المكتبة، كان الموظف يسجل اسم من يريد استعارة الكتاب مع رقم غرفته ويسلّمه ايصالاً موقعاً باسمه، الذي من المفترض أن يحتفظ به إلى حين اعادة الكتاب إلى مكانه في المكتبة.

وقف محمد في مكانه يناظر أثاث المكتبه من بعيد في حين أنّ سعد أخذ يتنقل على الفور بين رفوف المكتبة باحثاً عن كتب يحتاج قراءتها أو كتب جديدة يمكن أن تلفت انتباهه، كان يتنقل بين الرفوف يفتح كتاب يقلّب به ثم يعيده إلى مكانه ثمّ يأخذ أخر يقلّب صفحاته أيضاً آملاً أن يرى طلبه، لم يكن آبهاً بمحمد كأنّه نسي حضوره، انغمس مع كلّ تلك الكتب التي طالما أحبّ قراءتها على كافة أنواعها.

– محمد، تعال لقد نسيتك والله، هيّا اقترب لنرى الكتب ماذا تنتظر !

ألا تريد أن تستعير بعض الكتب أم ماذا ؟

- حسناً حسناً أنا قادم

اقترب محمد إلى الرفوف الأولى في المكتبة في حين كان سعد قد صار في الرفوف الأخيرة منها، بقي سعد يبحث بين الرفوف عن اسم كتاب يعجبه، لمح بطرف عينه كتاب بعنوان " رأيت الله "، كان الكتاب على الرفِّ الثالث تقريباً أمام محمد الذي يقف وكأنّه مشدوهاً به، لا يدري ما الذي يشدّه في هذا العنوان، لا يكاد يبعد نظره عنه ليبحث بين كتب أخرى إلّا ويعود إليه وكأنّه لا وجود لكتبٍ أخرى اطلاقاً.

رأيت الله، ذكّره هذا العنوان بكلام الطفل الذي جلس أمامه في الطائرة أثناء رحلته إلى هنا. الطفل تمنى رؤية الله. ترى هل في هذا الكتاب اجابة على أسئلة الطفل عن كيفية رؤية الله !

حدّث نفسه وهو ينظر متأملاً الكتاب وإذ بيد سعد تمسك الكتاب :

- هذا الكتاب من أروع كتب الدكتور مصطفى محمود.. لم تقرأه بعد ؟

- لا لا كلا لم أقرأه

- خذه إذاً لن تندم

أعطى سعد الكتاب لمحمد واستمر بمتابعة جولته في المكتبة غير مكترث بردة فعله وكأن شيءٍ لم يكن.

بقي محمد مشدوهاً شارد الذهن، أمسك الكتاب ثم استمر في جولة البحث عن كتب أخرى لاحقاً بسعد. وكأنّه أراد منه اقتراحات أخرى أيضاً، محمد أصبح محمداً أخر لا يستطيع تحديد ما يريده بالضبط، احتاج عوناً بجانبه كوجود سعد وآرائه الدائمة :

– هذه المجموعة يا محمد من أفضل المجموعات أيضاً التي لن تندم على قراءتها

– وما هي ؟

– إنّها مؤلفات الدكتور أحمد خيري العمري

– لا أعرفه

– يا رجل هل يوجد أحد لا يعرف الدكتور أحمد العمري ؟

– والله لا أعرفه

– انظر مؤلفاته هنا

جاءت أمامه عناوين عدة من بينها كانت شيفرة بلال اختارها وضمّها إلى الكتاب الأول رأيت الله

– أحسنت الاختيار يا صديقي

– ولما ؟

– عندما تقرأها ستعرف

– أعجبني عنوانها وكأنها رواية تحوي لغز أو ما شابه

– عندما تقرأها ستعرف كم أحسنت اختيارها

– حسناً سنرى.. وماذا اخترت أنت لم تخبرني

– لقد اخترت كتاباً طبياً لدكتور فرنسي كتب عن مرض السرطان كتب عدة ومن بينها هذا الذي بيدي لم أقرأه من قبل، بغض النظر عن مرضي إلّا

أنه من عادتي قراءة الكتب الطبية التي تعنيني كطبيب.

- جميل
- أنا جائعٌ يا سعد، كفانا هنا
- يا لك من كسول، هل اكتفيت بجولتك هذه أم أنك مللت ؟
- لا أعلم إلا أنني جائع جداً
- حسناً دعنا نخرج إلى المطعم الأقرب

وقع كليهما على وصل استلام الكتب بعد تسجيل عناوينها ثم خرجا إلى أقرب مطعم لتناول وجبة الغداء وبعد أن انتهيا كان آذان المغرب يرتفع من مئذنة المسجد القريب. استأذن سعد للصلاة أمّا محمد عاد لغرفته وبيده الكتب التي استلمها من المكتبة.

في الغرفة لم ينتظر محمد تغيير ملابسه ليرى محتوى الكتب خاصة كتاب رأيت الله، ترى هل سيحتوي اجابة عن أسئلة ذلك الطفل في الطائرة..!

ألقى بجسده على السرير وأمسك الكتاب وقرأ العنوان " رأيت الله "، أخذ يقلّب صفحاته حتى توقف عند إحداها :

هناك عقل خفي هو الذي اصطنع كل تلك الحيل الماكرة وزوّد بها مخلوقاته.

ولا يحلّ الإشكال أن نسمي هذه القوة الخفية.. الطبيعة.. فإنّا لا نفعل بذلك أكثر من أننا نهرب من لفظ إلى لفظ.. نهرب من لفظ (الله) إلى لفظ (الطبيعة).. دون أدنى تغيير في المعنى..

فلفظة الطبيعة في توظيفها الجديد تعني المعنى نفسه.. الذات العاقلة المدبرة الحكيمة المهيمنة الخالقة المعتنية بمخلوقاتها..

هي المكابرة والعناد والاستعلاء على أن نعترف بأن (الله خلق).. فنقول (الطبيعة خلقت).

جحود للآيات الواضحة برغم إحساسنا بصدقها.

(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)

وغرور عقلنا المحدود أمام الكون اللا محدود.

وما أبشع غرور ذلك الذي يمرض ويشيخ ويموت دون أن يستطيع كل علمه أن يفعل له شيئاً..

وما أحوجه إلى لحظة تواضع وخشوع واعتراف بالحق..

إنه غرور العقل الذي يطلب الدليل على كل شيء ولو كان واضحاً مثل نور النهار..

الله كما يقول الصوفي محمد بن عبد الجبار (يُستدل به ولا يُستدل عليه) فهو برهان كل شيء. لأنه الحق المطلق. ومن قصور النظر أن نطلب على الله برهاناً وأن نلتم من علم البطلان..

كما نستدل على النور من مجيء النهار مع أن النهار لم يطلع إلا بفعل النور.. فالنور هو الحق بذاته الذي يبرهن على نفسه بنفسه بمحض حضوره دون حاجة إلى وسائط.. هو الذي يخرج الأشياء إلى عالم الظهور والعيان.. فالأشياء تعتمد عليها في ظهوره فهو برهانها وهي لا تصلح أن تكون برهانه.

ولو سألنا قلوبنا عن الله لأغنتنا عن كل ذلك الجدل والتدليل..

فهو حاضر في القلب مشهود للقلب على الدوام.

هو في كل جميل.. في تألق الفجر في حمرة الغروب في تفتح الوردة، في وضاءة طفل. في صدح العصافير. في العيون الواسعة مثل كؤوس الحنان.

تراه في كل هذا وتقول... الله... تقولها ولو كنت كافراً.. ينطق لسانك بالرغم عنك أمام الجمال ليقول... الله.... كما تصرخ حينما تتلوى بالألم.. وتقول يارب.. يا لطيف..وإن لم تكن تؤمن بالرب أو تعتقد في لطف اللطيف.. ولكنه صوت قلبك الذي رأى طابع الإله وأثر يديه على مخلوقاته..

ومع ذلك لا يصح أن نحصره في مظهر أو مظاهر.. لأنه الظاهر وليس المظاهر..

وفرق بين الظاهر وبين المظاهر..

فالظاهر يظهر في المظاهر دون أن تحصره أو تحتويه أو تستنفده..

فهو يتجلى فيها بصفاته وأسمائه التي لا حصر لها..

أما المظاهر فهي وحدات محدودة هي شتيت من أجزاء.. براويز مختلفة وإطارات متباينة يتجلى من خلفها حكم الأسماء والصفات الإلهية..

ولهذا نقول في ديننا إن الله هو الظاهر والباطن.

الظاهر فعله والباطن ذاته.. ولا نقول عنه إنه المظاهر..

وتخطئ البوذية فتقول إن الله هو مجموع ما يبدو من مظاهر..

فتحصره في مجموع الصور المادية للكون وهذا مستحيل..

مستحيل أن يكون الله قابلاً للحصر في مجال الرؤية البصرية.

مستحيل أن يقبل العد والتجزئة. وإذا سمعت من يتكلم عن رؤية الله من الصوفية المسلمين.. فإنه لا يقصد رؤية العين.. وإنما رؤية العقل والبصيرة والاحساس.. الاحساس بالحضرة الإلهية بالمكابدة.. كما تكابد الشوق والحب دون أن تعرف له وصفاً ولا تعبيراً.. وهو مع ذلك يملؤك من الرأس إلى القدم..

رؤية الحكمة النهائية من حركة الحوادث..

قراءة المعنى الشفري للدقائق والتفاصيل التي تمر عليك في حياتك مما كنت تتصور أنها مصادفات عفوية ثم تكتشف أن كل تفصيل كان له دور وكل حادثة كان لها مغزى في تسطير الحكمة والغاية البديعة وراء كل فعل تفعله.

كل هذا هو رؤية الله في فعله

توقف هنا ثم أخذ نفساً طويلاً مع ابتسامة عريضة وكأنه كان عطش ومتعطش لقراءة ما قرأ وبعد كل ما قرأ شعر وكأنه شرب ولكنه إلى الآن لم يرتوي بعد ولن يرتوي بعد الآن.

ذلك الطفل الذي بالطائرة كان يسأل ما كان يجب أن أسأله لنفسي منذ زمن.

يا إلهي كم كنت تافهاً وغبياً وسخيفاً أيضاً.

رن هاتفه قاطعاً عليه شروده مع نفسه، كان اسم نور على الشاشة.. ازداد عرض ابتسامة محمد وانطلق للإجابة على المكالمة وكأنه انتظرها منذ مدة :

- ألو نور مرحباً

- كيف حالك محمد ؟

- الحمد لله، كيف حالك أنت ؟

- لا أعلم

- ما بك نور ؟

- لا أدري صدقني

- إذاً ؟

بدأ صوت نور يضعف ويضعف وكأنها بدأت البكاء :

- سآتي إليك حالاً

- سألاقيك في الحديقة في نفس المكان الذي تقابلنا به المرة الماضية

- حالاً.. إلى اللقاء

أسرع محمد في لبس حذائه فلم يزل في ملابسه ذاتها إلى الآن، لم يشأ أن يبدلها خاشياً التأخّر على نور خاصةً أنّه شعر بحزنها وبكائها.

انطلق مسرعاً حيث رآها للمرة الأولى في المنتجع. وصلا معاً تقريباً، سبقها محمد ببضع دقائق، رآها تتجه إليه فأخذ يقترب منها إلى أن أصبحا معاً :

- نور كيف حالك ؟

- الحمد لله أنا بخير

– اذاً ماذا حدث ؟ لما كنت تبكين ؟

– هل ننزل إلى الشاطئ ؟

– نعم طبعاً بكل سرور هيّا... لكن طمئنيني أولاً هل أنت بخير ؟

– بخير الحمد الله صدقني..

مشيا معاً حتى وصلا خارج الحديقة ثمّ إلى الشاطئ وقفا عند أحد السياج حول البحر، كانت تلك الزاوية من البحر تعلو الشاطئ قليلاً لذا قاموا بتسييجها بسياج حديدي.

وقف محمد قرب نور أمام شاطئ البحر، كانت الساعة تشير إلى الثامنة تقريباً، الشمس قد غابت تماماً ورغم كل الأنوار المنتشرة في المنطقة إلّا أن الشاطئ لم يكن واضحاً تماماً، حتى كليهما لم يكونا واضحين بالنسبة لبعضهما، لم يكونا بكل ذلك الوضوح لكن كان لكلٍّ منهما القدرة على الاحساس بالأخر ولمح لمعة عينه العاشقة والإحساس بلهفة الحبيب المشتاق رغم أن ما جمع بينهما لم يكن إلا بعض نظرات الاعجاب القديمة، لكن الآن وفي هذه اللحظة تحديداً رأى كل واحد منهما في الأخر حبيباً ومصدر أمان لا يمكن أن يعوّض، ربما حالة المرض المشترك الذي جمعهما كان ميّزة اشتركا بها هما الاثنين، تلك الميزة كانت قادرة على جعلهما عاشقان أيضاً و دون أسباب. لا يحتاج الحب لأسباب أو حجج، إنّه يأتي دون مبررات، يُخلَق فجأة في قلب المُحب وكأنّه وسمة خُلِقتْ معه وبقيت جزءاً من تفاصيله في كلّ حياته .

الحب لا يمكن تعريفه أو تفسيره على الاطلاق، لكلّ منّا الحق في تعريفه تعريفاً خاصاً به، أو لنقل لكل منا حالته الخاصة بالحب التي يستحيل أن

تشبه حالة الأخر أبداً.

الحب وسمة حقيقية بجسد وتفاصيل حياة كل منّا، وسمة لا تُخلق معنا عند الولادة تقريباً، بل نُرزق بها مع الأيام وما أطيب وأحلى من الرزق إلّا الحلال، وأجمل ما في الحب حلاله ، لا يمكن على الاطلاق أن يكون لإنسان وسمة جسدية تشبه وسمة انسان أخر، وكذلك الحب هو وسمة بحياة كلّ منّا، هو علامة فارقة تميز كلّ منا عن الأخر.

وهو بذاته الحب الذي وقع بين محمد ونور، إنّه وسمة في نفس وحياة كلّ منهما.

وقف الاثنان صامتين بدايةً، التفتت نور إلى محمد ناظرةً إليه رغم الظلام الذي يعمّ المكان :

- أتعلم يا محمد أنا لست ضعيفة رغم كلّ مرضي صدقني، لكنك أحياناً ترى نفسك وحيداً أكثر من اللازم، وحيداً لدرجة التعب

لقد أصبت بالسرطان ولم أخبر والداي عن مرضي خوفاً على صحتهما، لقد كبرا بعض الشيء، أخبرت شقيقي الوحيد، أخي في عالم أخر عنّي منذ زمن، إنّه رجل أعمال وبيده ثروة كبيرة تلك الثروة كانت لأبي، أمّا أخي عندما استلمها قام بزيادتها وتطويرها باجتهاده وتعبه، أخي طارق لا يطمح لشيء أخر سوى زيادتها، كنا على الدوام شقيقان فعلاً لكننا لسنا قريبين بالمطلق رغم أنّه طيّبٌ معي وكريمٌ أيضاً ولا يردّ لي طلب على الاطلاق لكنه مع ذلك كان بعيداً عنّي على الدوام، قد أخبرته عن مرضي منذ البداية، لا أنكر أنه عمل كل ما يستطيع فعله لأجلي على الدوام، من علاج بأفضل المستشفيات وممرضات ورعاية كبيرة لكنّه مازال بعيداً أيضاً، هو الآن متزوج، لم يتزوج

إلّا من مدة، جاء بي إلى هنا من فترة كي أستريح قليلاً بعد انتهاء جلساتي مع العلاج، أخبرني أنّي سأكون بحالٍ جيدة هنا وذلك بعد اقتراح أحد الأطباء عليه ذلك، لم يفعل هذا وحسبٌ بل إنه جعل من طبيب كبير هنا طبيبي الخاص للحصول على أفضل الرعاية الصحية في حال تعرضّي لأي تعبٍ لا قدّر الله، لقد أراده أن يتابع حالتي، بالتأكيد أنا ممتنة له على ذلك.

أمّا والداي فلم يشعرا بأي شيء سوى أنني تركت العمل الذي كنت أصريت عليه في السابق بالرغم من عدم حاجتي له اطلاقاً، أنا فقط أردت أن أعمل عملاً باختصاصي، أنت تعلم أني خريجة كلية الاقتصاد، ستسألني لما لم أعمل مع أخي لكني لم ألقى ترحيب منه خاصةً أنّه عارض عملي بالمجمل في البداية.. المهم الآن أنا أشعر بالتعب لا التعب الجسدي بل تعب يملأني ولا أستطيع مقاومته أحياناً، أخي لم ولن يقصّر معي على الاطلاق لكنّه غير آبه بي أنا كنور، لا يعلم كم أحتاجه من الداخل، يعتقد أنّ كل احتياجاتي مادية وحسب، لا أنكر أنّي أحتاجه مادياً نعم وهو لا ولم يقصّر معي يوماً، لكن احتياجي له ليس مادياً وحسب..

هل تفهمني يا محمد ؟

– نعم أفهمك

– على الدوام كنت قريبة من الله وهذا ما جعلني وسيجعلني قوية دوماً، الله الذي أستشعر قربه في كل لحظة ضعف وحاجة، لم يتركني يوماً، هو من جعلني راضية بقضائه، راضية بأن عمري محدود بمدى نشاط تلك الخلايا المميتة داخلي، وأعلم كم هو جميل أن تشتاق لله وترى نفسك قريباً على موعد معه ومع ذلك يا محمد أحياناً كثيرة أحتاج من يقف جانبي يسندني على الدوام

يدعمني ببضع كلماتٍ تقويني وتقوّي هشاشتي في الداخل.

– أتعلمين يا نور أنا لم أكن أؤمن بالله

– والآن ؟

– لا أعلم

– لكنك قلت لم أكن إذاً أنت الآن تؤمن.. والله لا يحاسبك على ما كان، انسى الماضي وابقى بالآن

– كنت لاهياً هنا وهناك الملاهي والمراقص والحانات غير آبه بوجود أي رقيبٍ أو إله كنت فقط أخوض كل تجارب الحياة القذرة التي تجعل منك قذراً وتجعل من حياتك لا معنى لها إلّا بتلك القذارة التي تملؤك وتملؤها.

لم أفكر يوماً بموضوع الله، كل ما كنت أعرفه عن الله هو أنه محال أن يُوجد، طالما أريد أن ألهو بلا ضوابط ورقيب فلابد أن لا يكون لله وجود في عالمي، كنت ملحد وإن سألتني عن الالحاد والملحدين شيئاً فأنا لا أعلم عنهم إلا أنهم يعيشون بلا ضوابط تحكمهم ضمن حياةٍ محددة هم حددوها لأنفسهم، حياة يمكن لك أن تخرج عنها دون أن تسمّى كافراً.

لا وجود للكفار بين الملحدين كما يوجد في أي ديانة على هذه الأرض، الالحاد صفة جيدة ومريحة لمن أراد أن يلهو ناسياً كل ضوابط العالم مهما كانت، الالحاد ليس فكراً يتبناه من يبحث عن إله، لا تماماً، الالحاد لم يكن بالنسبة لي إلّا ثغرةً بل فخاً للهروب من ضوابط العيش كإنسان يحترم نفسه ويعزّها، لقد هربت بالإلحاد من ديني الذي كنت أراه مجرد قيود تمنعني عما أحب، تبعدني عن ملذات الحياة والعيش بمتعها، لم أكن يوماً باحثاً عن إله،

على العكس الله موجود لكني طالما هربت منه.

لن أخفيك أني تمنيت الصلاة أيام كثيرة حتى قبل ان أمرض لكن الكِبر الذي بداخلي كان يمنعني وربما ما يزال.

كيف لي أن أصلي لمن لا وجود له في حياتي وأنا ملحد كما هو مفترض !

لو أنني على حالي السابقة مسلمٌ يصلّي فما كان يمكن أن يُبرر لي تلك الحال، سأصبح منبوذاً لا محالة، أمّا عندما تكون ملحداً فيمكن لك أن تكون على أيّ حال تريده وأن تفعل ما تشاء دون قلق، فكل الأفعال مبررة لك بحجة أنك لًا تؤمن بالله، لن يستطيع أحد أن يحاسبك وربما ستجد أن بعض الناس سيهابك ويهاب حتى نقاشك، سيقف أمامك ليهرب وحسب، ولك أن تفعل ما شئت، فكلّه مبرر لك، حتى أنت ستصبح مبرأً أمام نفسك، تبرر لها وتحلل أي شيء على هذه الارض مهما كان طالما أنّك غير مرتبط بدين بحجّة أنّك ملحد.

- مهما كنت عليه في السابق يا محمد إيّاك أن تعود إليه، اهتم الآن بما أنت عليه في هذه اللحظة وانسى كلّ ما مضى.. إن توجهت إلى الله لن يحاسبك عما مضى وسيبدأ معك من جديد، الله أكبر بكثير مما نفكر، وحضنه أوسع بكثير من حضن أحن الناس عليك، حتى ولو كانوا والديك.

ابدأ من جديد مع نفسك يا محمد وتوجه إلى الله واهتم بعلاقتك معه وحسب، لا أعتقد أنه هناك أجمل من حديثك مع الله عند ضيقك في هذه الدنيا أو حتى بغض النظر عن ضيقك، الله موجود في كل الأوقات وحديثك معه ليس إلا من أكبر النعم التي أوجدها الله لنا..

أحياناً تكلّم الله وترى قلبك ينتفض شوقاً له، تتمنى أحياناً لو أنه يرد عليك، مع أنّه حتماً يرد حتى وإن لم تسمعه، وما إن يرد حتى تشعر براحة تنهال على كل جسدك، ردّه لا يكون مسموعاً بقدر ما يكون محسوساً بكل جوارحك.

الله أكبر حتى من تلك المشاعر الجميلة التي تنتابك بحضوره في قلبك.

– جئت لأقف قربك أراكي تواسيني على حالي

ابتسمت نور بعد أن رأت ابتسامة محمد التي لم تأتي إلا كعلامة رضا واقتناع بما قالته وهذا ما نسميه انتصار بالفعل، الانتصار هو أن تحتاج أحدهم ليقويك فيجعل منك قوياً لدرجة أنك تلتفت إليه لمواساته وتقويته، هذا ما فعل محمد بنور وهذا ما فعلته نور به أيضاً

نظر محمد إلى نور وعيناه أصبحتا تلمعان بشدة :

– أنا أحبك منذ أن رأيتك أوّل مرة في البنك يا نور

أبعدت نظرها عن محمد واستسلمت برأسها ونظرها إلى الأسفل محاولة اخفاء فرحها وابتسامتها التي لا مجال لإخفائها إلا رنين هاتف محمد الذي لم يأتي بوقته بحسب محمد، أما نور فتراه قد أتى في وقته المحدد :

– من هذا ؟

– إنه سعد، تراه ينتظرني كنا قد تواعدنا بعد صلاة العشاء وأظن أن العشاء قد أذن أليس كذلك.

– نعم لم نشعر بالوقت،، إذاً دعنا نذهب إليه وأنا عليَّ أن أعود لغرفتي لم

أعتد أن أبقى لهذا الوقت

– ولما ؟

– لا أدري تعودت النوم باكراً والاستيقاظ مبكراً هنا

– حسناً أنا سأذهب إلى سعدٍ الآن لقد أتعبني بمكالماته ولم أرد عليه إلى الآن

– لما لا ترد

– لم أنتبه في البداية.. سأذهب إليه حالاً

– حسناً

– هيّا أوصلك بطريقي

مشيا الاثنين باتجاه سعد وفي الطريق وقفت نور عند مدخل المبنى الثاني، ودّعت محمد ودخلت المبنى إلى غرفتها، كانت السعادة تنطلق من عيناها حتى عندما مرّت بموظفي الاستقبال هناك سلّمت عليهم وكأنّ سلامها هو الأول بينهم، حتى أن الموظفين لاحظوا ذلك.

دخلت إلى غرفتها مباشرةً إلى الحمّام قامت بحمّام كان طويل بكبر سعادتها هذا اليوم ، غيّرت ملابسها ودخلت تحت غطاء سريرها قلّبت هاتفها واختارت رقم والدتها ثم أجرت مكالمتها اليومية :

– ألو ماما

– كيف حالك بنيتي ؟!

– لم تكلميني اليوم في الوقت المعتاد قلقت عليك

– ماما حبيبتي كنت أتمشى على الشاطئ خارجاً وأخذني الوقت ولم أنتبه

– ومع من أخذك الوقت عني يا صغيرتي

– لا لا مطلقاً ليس مع أحدٍ سوا نفسي

– ولم لا يكون مع أحد يا حبيبتي، آه منك " فصعونتي " الصغيرة اشتقت إليك أكثر من اللازم لو أنني ذهبت أنا وأبيك معك لكان أفضل ولكنك وأخوك لم توافقانا على ذلك

– لا بأس ماما لا تحزني سنذهب أيضاً رحلةً أخرى معاً، أوراقك وأبي لم تكن مكتملة أما أنا وأخي بالتأكيد لن نمانع

– لو أردتما لكان أخاك أسرع بإجراء أوراق السفر، معارفه كثيرة، لكنّي أخشى أن يكون وراء سفرك هذا سرٌ ما، منذ أن تركتي وظيفتك وأنا أرى أنك لست على طبيعتك لقد حاربتنا من أجل وظيفتك هذه التي لست بحاجتها ومع ذلك تركتها فجأة حتى دون أي أسبابٍ واضحة لي ولأبيك، أراكما أنت وأخيك تخفيان عنّي شيئاً ما لا أعرفه

– ماما ماما حبيبتي في كلّ مكالمة تسمعيني الكلام ذاته، ألم أخبرك أنّي بعد تجربتي في العمل أرهقت كثيراً واكتشفت أني لست أهلاً للعمل على الاطلاق، ماما لقد ربيتماني أنت وأبي على الدلال أصبحت مدللتكما أنتما الاثنان واكتشفت أني لا أطيق ساعات العمل الطويلة ولا حتى الارهاق لذا قدّمت استقالتي ووجدت نفسي بحاجة ماسة لاستراحة طويلة جداً ولا أستطيع تأجيلها أبداً أبداً وإلّا كنت اختنقت ماما صدقيني.

– حبيبتي أنا اليوم سعيدة لأني سمعت ضحكتك التي لم أسمعها منذ مدة

يا صغيرتي المدللة

- بحبك ماما

- وأنا يا روح ماما

- دعيني أنام إذاً أكاد أموت من النعاس

- تصبحين على خير حبيبتي

- وأنت بخير ماما

في هذا الوقت كان محمد وسعد قد تعشيا في أحد المطاعم ثم خرجا الاثنين لحضور حفلة قد أقيمت على شاطئ قريب من المنتجع كانت حفلة هادئة خالية من الصخب، موسيقا هادئة بدون مطرب، موسقيين يعزفون بعض السمفونيات الغربية والمقطوعات العربية لعبد الوهاب ومقطوعة عمر الخيام، كانت المقطوعات الموسيقية لعبد الوهاب كفيلة بإدخال الراحة إلى قلب محمد وسعد وكل الحاضرين.

محمد كان هذه الليلة يستمع إلى سعد وينظر إليه لكنّه لا يرى إلا وجه نور وابتسامتها وصوتها الحنون جداً ومازال يهزّ برأسه لسعد هكذا إلى أن انتهت الحفلة وخرجا معاً كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل. في الطريق سأل سعد عن سبب مزاج محمد هذا اليوم، محمد لم يعترف لسعد بأنه قابل نور هذا اليوم وأخبرها بحبه لها منذ أن رآها أوّل مرّة، هكذا وبشكل مفاجئ ودون أيّ تخطيط لم ير نفسه إلا أمام قلبه، لو أنه فكّر لما كان اعترفً لها على الاطلاق لكنّهما الآن يعلما أنهما في الحلة نفسها، هما الاثنان مريضان لكن شتّان بين المرضين :

- أهٍ لو أني كنت مريضاً بالسرطان مثلك يا سعد

- وماذا سيكون إن كنت مريضاً بالسرطان ؟

ما الاختلاف أخبرني؟

هل هو ألم العلاج الكيميائي مثلاً !

- لو أني مريض بالسرطان لكنت تزوجت نور

- نعم ؟

- نعم أريد أن أتزوجها وأرسم الابتسامة على وجهها كما رسمتها اليوم

- لم أفهم

- لقد قابلت نور هذا اليوم ولم أر نفسي إلا معترفاً ضعيفاً بحبي لها

- لم تخبرني !

كنّا سوياً لساعات ولم تخبرني. وأنا أقول ما سرُّ هذا الانفراج بوجهك

لكن على فكرة نوع المرض لا يمنع الزواج

- ماذا يعني كلامك ؟ هل أستطيع الزواج !

- يا صديقي مريضي الايدز أصبحوا يتزوجون فتيات أصحاء ولكن ضمن ضوابطٍ وقائية يضعها طبيبك الخاص وباستخدام عقاقير وعوامل وقائية للزواج

وأيضاً أظن أن نور لو تحبك فعلاً لن تمانع حتى بالإصابة بفيروس الايدز مادامت مصابة أساساً بالسرطان يا صديقي

– لا تقل ذلك أرجوك فأنا لا أطيق أن أسمع عن مرضها.. عافاها الله يا رب، لا أريد أن أؤذيها أبداً

– صدقني يا صاحبي عندما تحبّ الفتاة لا تمانع حتى بالموت لأجل من تحب، الحب بالنسبة للفتاة هو قضيتها الأولى أمّا الشاب فيرى الحب كقضية من قضاياه الكثيرة الذي يموت ويحيا لأجلها جميعها أمّا الفتاة لا تملك إن احبّت أحدهم إلّا قضية واحدة هي الموت لأجل ذلك الحب الذي جمعها به.

– أظنك تبالغ

– لا يا صديقي يختلف الفتيات عن الرجال بتفكيرهم بشكلٍ كبير

– تصبح على خير الآن ها قد وصلنا أخيراً لقاءنا غداً بعون الله

– إلى اللقاء

في هذه الليلة فكّر محمد كثيراً بكلام نور، بالكلمات التي قرأها في الكتاب، بنظرات نور وحبه لها الذي أثقل قلبه إلى أن بدأ ينفجر أخيراً كان يفكّر بكلام سعد أيضاً وبحديثه عن الزواج. كانت ليلة طويلة بالنسبة لمحمد، ليلة مليئة بالتفكير الطويلِ وساعات طويلة من القراءة أيضاً، لقد أتمّ قراءة الكتاب " رأيت الله " تماماً، إلى أن ارتفع أذان الفجر أخيراً لم يغفل محمد عن سماعه كما كلّ مرة بل أصغى بكل جوارحه للأذان هذه المرة.

انتفض فجأةً ونهض عن سريره إلى الحمّام، توضأ ثم انطلق إلى المسجد، التحق بالمصلين كان الإمام قد أقام الصلاة وتحضّر المصلّون كلّ منهم يقف إلى جانب الأخر لم يكونوا بأعداد كثيرة لذا لاحظ سعد قدوم محمد تقريباً، فرح لوجوده على الرغم من عدم انتباه محمد له، أنهى الامام الصلاة وجلس

كافة المصلين تقريباً بعد الدعاء والتسبيح لقراءة القرآن كان سعد قد اقترب من محمد سلّم عليه :

- أهلاً أهلاً أراك معنا اليوم !

- وكلّ يومٍ بإذن الله يا صديقي

- هل هذا صحيح ؟

- نعم بإذن الله

- وكيف ذلك ؟

- لا تسألني كيف يا سعد، أرى أنّي أحتاج أن أتقرب من الله ولنقل أتعرّف عليه ولا تسألني لماذا الآن فأنا لا أدري، أنا أحتاج ذلك وحسب

- تعال معي يا رجل لنقرأ القرآن

- قرآن !

- ما بك وكأنك صدّقت حكاية اسلامك الجديد، أنت مسلمٌ أساساً ولا أظنّ أنّ من صلّى منذ قليل ليس على دراية بما هو القرآن !

- لا لا لم أقصد أنا أحفظ آيات عدةٍ أيضاً، لكن لم أرى القرآن أو ألمسه منذ زمن

- هيّا فلتلمسه الآن إذاً، تعال إلى هنا حيث الرف، من على هذا الرف اختر القرآن الذي تريد

ضحك محمد من أسلوب سعد، كان يعامله كأنه طفل صغير يحتاج من يرشده إلى ما يجب فعله. أمسك بأحد المصاحف كان متوسط الحجم وجلس

حيث جلس سعد يقرأ القرآن فاتحاً مصحفه الذي يصحبه معه على الدوام ليقرأ به ورده اليومي. فتح المصحف فكانت سورة طه.

ترى هل أراد الله من سورة طه أن تكون مفتاحاً لذلك الباب بينه وبين الله !

جاءت سورة طه كمفتاحاً لقلب عمر بن الخطاب يوماً ما، وربما سيكون لها أثراً في قلب محمد أيضاً لا يقلّ عن ذلك الأثر الذي وصمته في قلب سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الجميل في تلك السورة هو خطابها لك أيّ كنت ستشعر أنها لك أنت فقط، أظنّ أن سر هذه السورة يكمن في أولى حرفيها (طه) طه تمثل نداء قارئها سواء أنت أو غيرك، هو نداء لمن يقرأ هذه السورة ثم يأتي بعد النداء ما يجعلك تطمئن لقراءة المزيد، إن ما تقرأ أو لنقل ما ستقرئه لاحقاً بعد البداية لن يكون لشقائك أبداً على العكس لذا فطمئن وأكمل القراءة وكن على يقين أن هذا الذي ستقرئه سيريحك ثم يأتي الأهم وهو الخالق الذي أنزل عليك تلك الآيات والكثير من قصة موسى وكل الدفء والحنان الرحماني الذي يتخلل حروفها.

قرأ محمد جزءاً يسيراً من سورة طه جعلته مبتهجاً وكأنها المرة الأولى التي يكون على هذه الحال، كان الله يخاطبه بكل كلمة جاءت في السورة سمع محمد صوت الله فاطمئن له.

– ها محمد لم تنتهِ بعد ؟

– نعم انتهيت

– لا لا خذ راحتك يا صديقي أنا فقط انتهيت و سأعود لغرفتي أو ربما سأتمشى قليلاً قبل صعودي إلى الغرفة

– لا قد انتهيت خذني معك أنا أيضاً أودّ أن أتمشّى في الحديقة أيضاً مع حبيبي سعد

ضحكا معاً ومضيا في طريقهما إلى الحديقة تمشيا سوياً لأكثر من ساعة لم يتكلما كثيراً على غير عادتهما أو لنقل على غير عادة سعد الذي طالما أنهك أذنا محمد من كثرة كلامه وأحاديثه التي لا تنتهي :

– ها سعد ما بك صامتاً اليوم على غير عادتك ؟!

– لا شيء يا صديقي أحياناً فقط لا بد من أخذ استراحة عن الكلام وغير الكلام أيضاً

– أنت تأخذ استراحة ؟ وعن الكلام ؟

أخبرني ما بك أيها الصديق

– لا أدري يا محمد هل أنا مشتاق أم أنني مللت أم إنه الاكتئاب مجدداً و لربما نوبات مرض جديدة في الطريق.. لا أعلم يا محمد !

– أخبرني بما تشعر بالضبط ؟

– وهل أصبحت أنت الطبيب الآن ؟

– لا بد من تبادل الأدوار يوماً، لطالما كنت طبيبي وتحمّلت أحاديثي وكآبتي المملة على الدوام

أخبرني ما بك هيّا

- اعتدت الوحدة هنا يا صديقي بل أنا من اخترتها فأتيت إلى هنا، جئت أنت لتكسرها، كنت محتاج إليك أكثر من حاجتك لي كنت أحتاج سماعك أيضاً. أحياناً سماعنا لمشاكل الأخرين يخفف عنّا ذلك الشعور الثقيل الذي يتعبنا بالسؤال الأهم لماذا أنا !

فيأتي من يقول لك الاجابة، لي ولك أيضاً، لماذا أنا !

عندما تتشارك مع الناس بالمصاب يصبح مصابك أصغر فأصغر إلى أن يعود إليك مجدداً بلحظة ضعفٍ جديدة وكأنك وحيد في هذا العالم

- أتعلم يا سعد عندما أتيت إلى هنا لم أضع بالحسبان أي خطة أو أي هدف أو سبب أو حتى نتيجة للقدوم إلى هنا.

أنا فقط كنت أتبع صوت داخلي فأتى بي إلى هنا

أحياناً نحتاج الوحدة فالوحدة أكبر صديق للنجاح يا صديقي.

على الدوام عشت حياتي لاهياً هنا وهناك لا أعلم معنى وحدة ولا حتى عرفتها يوماً، كنت وحيداً نعم لكنّي طالما كنت هارباً من وحدتي تلك في صخب هذه الحياة.

لقد تعلّمت منك أن الحياة لا تتوقف عند نهاية عمرك، الحلم الأبقى هو حلم الأبدية الذي لا تعلم به معنى النهاية، تلك هي الحياة الأخرى التي لم أؤمن بها يوماً، أصبحت الآن وفي هذه اللحظة على يقين بها بل أصبحت أحلم بها، بكيفيتها، أصبحت أخطط لها فهي ليست إلّا حياةً تبتدئ بنهاية ولا تعرف النهاية.

جميل أن نفكّر بالحياة الأخرى يا سعد. كم كنت غبياً عندما جعلت من

عقلي مستودعاً مهجوراً لا شيء يستوجب فتحه أو اعلان انطلاقه في هذه الدنيا، الحياة يلزمها الكثير من التفكير، والتفكير سيوصلك إلى الله على الدوام

نحن لسنا فارغين من الأحلام وماذا يعني إن كنّا مرضى وأصبحت أعمارنا محدودة !

أصبحت أعمار مرتبطة بحالة تلك الفيروسات التي احتلت أجسادنا وعزمت على حرماننا من الحياة.

أصبحنا كمرضى محكومين بالوقت، هذا الوقت هو عمري وعمرك وعمر نور وعمر كل مريض هنا ومع ذلك نحن لا نختلف عن غيرنا ممن يعيش بجسدٍ له وحسب، له فقط دون أي احتلال مما يسمى الفيروسات.

نحن كمرضى أًصبحنا بمواجهة حقيقية مع الحياة بكل محدوديتها، أصبحنا نضع أحلاماً لا تموت حتى بموت أجسدانا.

أذكر تماماً عندما أخبرتني أنه كتب على عائلتك لقاءها في الجنة، لذا توالت المصائب عليكم مرةً في حادث والدك ثم بمرض والدتك وأخيراً بمرضك.

هنا فقط أحسست بمعنى أن يكون لنا مستقبل أخر لا يسعنا التفكير به على الدوام، ذلك المستقبل يلزمه الكثير من القوة والشجاعة للتخطيط له.

نحن كمرضى ضعفاء الأجساد نعم لكننا أشجع من أي صحيح جسدٍ على هذه الأرض طالما أننا نفكّر بذلك المستقبل الأبدي الأخر دون أيٍ هروب منه كما حال صحيح الجسد الهارب من الخوض به على الدوام.

– كلامك جميل ويحمل الكثير من الفلسفة، أصبحت فيلسوفاً أكثر منّي

أيها الشقي

ضحك سعد كثيراً رغم حالة اليأس التي كانت واضحة على وجهه منذ قليل، لم ينتهيا بعد من حديثهما حتى جاءت نور كعادتها في هذه الساعات الأولى من الصباح تعتلي أرض الحديقة وتتمشي بفنائها إلى أن تتعب.

– ها قد جاءت نورك أيها الصديق، أنا أستأذنك الآن إلى غرفتي واذهب إليها وعش لحظاتك الجميلة معها ولا تتردد بأيّ منها

– دعك من هذا الكلام يا سعد

– إلى اللقاء أيها العاشق الخجول

انصرف سعد تاركاً محمد بمواجهة نور القادمة باتجاهه وكأنها نور الكون بأكمله، كانت بالنسبة له الضوء الذي لا يمكن اطفاؤه، النور يكمن في قلوبنا، إن لم تكن هي نورك فلن تكون بقلبك يوماً هذا ما كان يشعر به محمد بقرب نور، نور التي أحب وسيحب ولن يحب غيرها على الاطلاق، هكذا كان شعوره في هذه اللحظة .

في سوريا

جلس أسامة هذه الليلة في منزله وحيداً بعيداً عن أصدقائه وأصحابه في الشلّة كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف تقريباً.

بعد سفر محمد بعدة أيام أصبح أسامة يتعمّد الابتعاد عن الشلّة كما المعتاد وبقي يجلس وحيداً لفترات طويلة.

رغم أنّ أسامة لم يكن يعلم بمرض محمد إلّا أنّه كان يفتقد صديقه الأقرب له في الشلّة ويتعجّب غيابه وعدم ردّه في الغالب على مكالماتها ورسائله، حتى عبر تطبيق الواتساب لم يكن محمد يجيبه بسهولة وإن أجابه يجيب بكلماتٍ وأجوبةٍ مختصرة وسريعة إن دلّت على شيء فهي تدلّ على عدم رغبته بالحديث.

جلس على طرف السرير ممسكاً هاتفه متصفحاً احدى مواقع تواصل الاجتماعي شارداً بصديقه المتعمّد الغياب والابتعاد عنهم :

- ترى ما الذي يغيّب محمد عنّا هذه الفترة ؟

لم نعد نراه وأصبح قليل التحدّث معي عبر الهاتف وغيره.

عليّ أن أطمأن عنه في العمل أو المنزل

أظنني قد احتفظت برقم منزله في احدى الأوراق هنا على المكتب.

نهض مسرعاً نحو المكتب أمامه وبدأ يبحث بين الأوراق المتناثرة على

سطحه، يبدو أنّ أسامة شخصٌ فوضوي لدرجة عدم قدرته على ترتيب أوراقه الخاصة.

وأخيراً عثر على دفتر صغير سجّل عليه أرقام هواتف كثيرة ومن بينها كان رقم منزل محمد، إنَّه رقم محمد عبد الحليم فعلاً، عاد أسامة مجدداً ليجلس على طرف سريره مستلماً الهاتف اللاسلكي هناك وبدأ بطلب الرقم :

- ألو

- مرحباً، هنا منزل السيد محمد عبد الحليم ؟

- نعم هنا

- هل لي أن أكلّمه ؟

- للأسف محمد ليس هنا

- لم يأتي من عمله بعد ؟

- إنّه في اجازة

- أنا صديقه أسامة ومنذ مدة لم أتواصل معه ولم يأتينا أيضاً مع الأصدقاء منذ أيام

بدأت أقلق عليه صراحةً خاصةً أنّه لا يرد على رسائلي عبر هاتفه تقريباً لذا فكّرت بالاتصال إلى هنا

- نعم إنّه في مصر في اجازة فعلاً وقد أخبرنا أنّه في رحلة للنقاهة مع الأصدقاء

- مصر مع الأصدقاء ؟؟؟

حسناً

– لا أعلم يا أخي لكنك أخفتني..

هل محمد ليس في مصر مع الأصدقاء كما أخبرنا ؟

– لا أدري بالضبط ولكن ما أعرفه ومتأكد منه أنّ محمد لا أصدقاء له سوانا وأنّه في الفترة الأخيرة أصبح بعيداً عنّا وأصبحنا لا نعلم شيئاً عنه حتى التواصل معه أصبح صعباً.

أصبحت حالته غريبة بالفعل

– لقد أخفتني صدقاً

– عفواً هل أنت زينب شقيقته ؟

– نعم

– أنا أعرفك كنّا تعرّفنا على بعضنا في حفل تخرّج محمد منذ عدة سنوات أتذكرين ؟

– ربما لكنّي أعرف أنك أسامة الصديق المقرّب لمحمد

– نعم وهل ما زلتي في كليتك ؟

– نعم في الكلية

– موفقة بعون الله وأتمنى أن لا أكون قد أزعجتك يا زينب، لكن هل يمكن أن أطمأن على محمد من خلالك خاصةً إن علمت عنه أيّ شيءٍ جديد !

- حسناً بكل تأكيد بإذن الله

أغلق أسامة الهاتف وترك في رأس زينب الكثير من الحيرة والقلق الذي لم تلبث أن تهرب منه في المنزل من خلال والديها وخاصةً أمّها إلى أن أعادها أسامة إليه بكثير من الخوف الحقيقي الذي بات ينتابها الآن بنسبة أكبر مما سبق.

مصر.. بعد أسبوعين..

مرّ أسبوعان الآن، تقرّب محمد ونور من بعضهما في هذان الأسبوعين، نسي كل منهما مرض الأخر عاشا الحب فقط دون غيره، كلّ منهما كان يحتاج الأخر، يحتاجه هو دون غيره.

أحياناً يكون الحب حاجة أيضاً، لكن لا ضير في ذلك فمحبة الأم تأتي من حاجة طفلها إليها في البداية. هكذا الحب وأي شيء على هذه الأرض بني على أساس تبادل الحاجات طبعاً.

حاجة الحب تكون لواحدٍ فقط دون غيره، واحد فقط تشعره باحتياجك وتشعر باحتياجه، هو فقط دوٍن غيره، الحب هو أن تحتاجه هو لا غيره وأن تشتاقه هو أيضاً دون غيره.

الحب عاطفة لا يمكن الاستخفاف بها كما الحال الغالب هذه الأيام.. الحب فرعاً من حبك لله..

وأمّا تلك العلاقات السريعة التي تُبْنى تحت مسمى الحب ليست إلّا علاقات تلوث تلك العاطفة العظيمة.

نحن فقط من يلوث ذلك الشعور النبيل، مرةً بعبارات هابطة نسمعها في كلمات أغنية ما أحياناً، وعبارات أخرى فارغة أيضاً نراها مكتوبة في مواقع التواصلٍ للتعبير عن حالة كاتًبها، قاصداً بها اثباته للناس أنّه أقوى وأكبر من التأثر لفقدان حبيبه يوماً، تلك العبارات لا تعبّر عن قوة بل على

العكس تغيّر نظرتك للحب وتلوثه، فالحب لا يليق بمن يلوثه ويرخصه بتلك العبارات الغبية.

تلك العبارات المكتوبة للاستهزاء واللامبالاة بالاستغناء عن الأحبة بكثيرٍ من السعادة والسرور والضحكات العريضة ليست إلا ملوثات الحب.

الحب ليس رخيصاً لهذه الدرجة، إنّه شعور عظيم وجب تقديسه وإلا فإنه رخيص لدرجة أنك تستطيع اهدائه لأي شخص كان وبأي وقت كان..

الحب يمكن أن يأتي بأي وقت كان هذا صحيح لكنه ليس فوضوياً لدرجة أن يأتيك بأوقاتٍ عدة وبمرات متتالية وبفتراتٍ قياسية ولأشخاص عديدة دون أي انتقائية..

الحب يأتي بالوقت الذي يريده هو.

يأتي ليكون لأحدهم فقط دون أي كان من البشر، واحد دون غيره.

علينا أن نرتقي إلى تلك العاطفة العظيمة التي وجب تقديسها.

الحب لا يكتمل إن لم يحمل معنى الأبدية إلى جانب الانتقائية. الأبدية ليست الحياة الدنيا وحسب، الأبدية هي أن تحمل كل مشاعرك الجميلة تلك وتنقلها معك إلى الأبد الذي لن ينتهي يوماً، تنقله إلى ما بعد القيامة حيث لا نهاية أبداً.

الحب هو إيمانك باليوم الأخر، أن تؤمن بأن تبقى مع من تحب لوقتٍ أطول مما هو محسوب بعدد الأيام والسنين، وأن الحب لا ينهيه الموت بل أنّ الموت هو البداية، بداية الحب الأبدي الذي لا يمكن لشيء أن يقف بوجهه أو يمنعه.

الأشياء الجميلة لا تموت والحب لا يحمل إلا الجمال بكل تفاصيله على الاطلاق فكيف للحب أن يموت ؟!

الحب ينتقل من عالم إلى عالمٍ أخر أمّا الموت لا يقتل تلك العاطفة العظيمة التي تحيينا بدل أن تميتناً وتقوّينا في أقسى لحظات ضعفنا، تنقلنا إلى الله ولا تنتهي عند الله بل تبدأ به.

الحب يحتاج شجاعة كشجاعة نور ومحمد، في الأسبوعين علمت نور بتفاصيل مرض محمد لم تعلّق كثيراً بل كانت تستمع له بكل جوارحها وكلّما عرفت عنه أكثر كلّما فتحت قلبها أكثر وأكثر هكذا إلى أن فتحته بالكلية وأصبح محمد هو من يستوطنه وحسب.

في هذان الأسبوعان كان محمد ونور في حالة عشق متوازنة كلّ منهم يُدفق عواطفه للأخر بكل صدق وبدون أيّ تكلّف، كانا يًحتاجان بعضهما بالتأكيد وفي كل يوم أصبحت حاجتهما لبعضهما أكبر هكذا إلى أن جاء اليوم الذي قررت به نور العزم على الذهاب إلى محمد وإخباره بأنه لابد من زواجهما، لم يكن محمد بجرأة نور كان تاركاً أمامها كل الخيارات إلّا الابتعاد عنه، لم يكن يريد ايذاءها بأي شكلٍ من الأشكال وهي لم تكن ترى أن علاقتهما ستحمل الأذى بقدر ما ستحملّه من الحب والراحة والحنان.

ذهبت نور في ذلك اليوم إلى المبنى الأول حيث غرفة محمد جلست تنتظره في غرفة الاستقبال بعد أن استخدمت هاتفها المحمول وطلبته :

– ألو

– محمد أنا في غرفة الاستقبال في الأسفل أنتظرك أرجوك انزل لي بسرعة

لا تتأخر لديّ شيء أقوله لك

– حبيبتي هل أنت هنا في المبنى ؟! المبنى الأول هنا حقاً ؟

– محمد أعتقد أنك لا تزال نائماً، حبيبي رجاءاً استيقظ هيّا وأنزل

– حسناً أنا قادم حالاً لن أتأخر

رمى محمد هاتفه على السرير وأخذ بضع دقائق حتى أفاق من نومه ثم نهض متكاسلاً غسل وجهه ولبس سريعاً ونزل إلى نور، كانت ما زالت تنتظره على إحدى مقاعد الانتظار :

– نور حبيبتي أخبريني هل هناك طارئٌ ما أم ماذا ؟

– نعم يوجد، تعال نخرج إلى الحديقة أو الشاطئ حيث التقينا و اعترفت بحبك لي للمرة الأولى.. لم يستوعب محمد ماذا تريد نور بالضبط، أمسكت هي يده ثم انطلقت خارج المبنى تمشيا معاً عبر الحديقة والصمت والتعجب يسيطر على حالتهما، وصلا حيث الشاطئ وقفا في المكان نفسه الذي اعتادا عليه ثم بدأت نور بالكلام كانت السعادة بادية على وجهها بشكل غريب :

– أنا قررت أن أطلب يدك هذه المرة

– مجنونة

– وأين موضع الجنون في هذا ؟

– لا أعلم ولكنك مجنونة

– ولا تعلم إن كنت تحب هذه المجنونة ؟

– ما أعلمه جداً أني أحبك أكثر من أي شيء على هذه الأرض ومستعد

أن أفعل كل شيء يجعلك سعيدة

– محمد هل تذكر عندما تحدثنا عن تلك الحياة التي تنتظرنا ما بعد الموت !

هل يمكن لك تحيا بدوني في الحياة الأخرى ؟

أنا أريدك الآن ولو كانت للحظة لأضمن أن نكون معاً بعد الموت أيضاً.

– سنكون يا حبيبتي لا تقلقِ

– أريدك أن تتزوجني محمد

– نور أنت تعلمين ظروفنا و..

– محمد أرجوك لقد تكلّمنا كثيراً في الموضوع نفسه لمراتٍ عديدة وقد مللت تكرار الحديث نفسه في كلّ مرة.

عندما تحبّ الفتاة تصبح أحلامها محدودة بمن تحب، زواجها منه، وجودها معه تحت سقف واحد ولو كوخ صغير يجمعها به هي وهو فقط لا لشيء إلّا لتأسيس عائلة دافئة بدفء الحب الذي جمعها بحبيبها.

أنا أحلم أرجوك إن كنت تحبني اجعل أحلامي تتحقق

– لكن...

– محمد هل تتزوجني أم أبتعد الآن وليذهب كلّ منّا في طريقه ؟!

لن تجمعنا طريق واحدة إلا بالزواج يا محمد، الحب وحده لا يكفي للاستمرار حتى وإن كنا مرضى فهذا لا يعني أن نتنازل عن اكمال أحلامنا المنقوصة. الحب ينقصه الكثير ليكتمل والزواج لابد أن يكمّله.

ها أجبني هل توافق الزواج بي بغض النظر عن كلّ شيء ؟

وإلّا دعني أمضي ولو حتى كلّفني ذلك الكثير من التعب، لقد تعودّت التعب لا يهم، لقد تعبت التفكير بكل ما يجمعني بك، وماذا بعد يا محمد !

ماذا ننتظر لتكتمل تلك المشاعر التي تتأجج داخل قلوبنا ! تلك المشاعر يلزمها ارتباط تحت مسمى زواج أليس كذلك ؟

دعنا من حالك وحالتي نحن في النهاية من سيقرر تلك القضية قضيتي أنا وأنت فقط، أمّا أنا فها أنا ذا أخبرك قراري وأنتظر ردك.

لا تكتفي بالصمت أرجوك. هذه المرة لن أقبل المراوغة كما كل مرة، أستسلم لقناعاتك خوفاً من أي قرار لي بالانسحاب دونك، أنا أخاف نفسي قبل أن أخافك لذا تراني أستسلَم لآرائك حفاظاً عليك وخوفاً من خسارتك. هذه المرة استجمعت كلّ قواي واستسلمت لأفكاري التي لا تكف عنّي وقررت أن لا أتراجع عنها مهما كلفني ذلك ..

هل ستوافق يا محمد ؟

نظر محمد إلى عيناها اللامعتان جداً لشدة صدقهما ولكثرة الدموع التي بدأت تتجمع فيهما لتسيل جارفةً معها كلّ مشاعر الحزن التي ستكون لو أن محمد لم يريحها بإجابته التي تريدها هي لا غيرها.

لم يرى عرضها إلّا قراراً لابد أن يستسلم له بكامل كامل رغبته طالما أنّه يحبها.

- إنّه قرار يا حبيبتي فلما تسأليني.. أنت قرري وأنا عليّ التنفيذ وحسب

رغم ذلك فإن دموع نور سالت أيضاً مبللة وجهها وكذلك قميص محمد الذي لم يتردد في ضمّها وهي تبكي فرحاً عاش بداخلها طويلاً منتظراً فرصة الخروج لسبب مثل هذا.

لململت نور نفسها ومسحت عيناها ومحمد أيضاً وقف ينظر بعينيها محاولاً مسح دموعها بطرف ابهامه مرةً وبكف يده مرةً أخرى. أدار نظره عن نور باحثاً عن هاتفه المحمول في جيبه. أخذ الهاتف وطلب سعد على الفور :

- مرحباً سعد

- أهلاً حبيبي محمد

- كيف حالك اليوم

- لا لا اطمئن أنا في ألف خير، لا يموت شيطان مثلي

- أه منك لا تكفّ عن مزاحك حتى في أصعب حالاتك

- الحمد الله أيّها الصديق إنها نعمة لا تحسدني عليها أرجوك

- حسناً الآن أين أنت ؟

- أنا هنا في المنتجع

- يا رجل متى عدت ؟

منذ أن دخلت المستشفى الأسبوع الماضي يا صديقي وأنا يتيم بدونك أيها الصديق

- يا لك من كاذب ، وهل بوجود نور تذكرني أيها المخادع ؟

- كفاك مزاحاً أنا الآن أكلمك لموضوع جادٍ جداً

- وما هو؟

- أخبرني أولاً كيف أتيت !

عندما ذهبت لزيارتك منذ يومين أخبرتني أنّك يجب أن تبقى لأخذ جرعةٍ اضافية ولن تأتي إلّا بعد أسبوع أو ربما اكثر

- يا صديقي لقد تحسّنت والحمد لله ولم أعد بحاجة جرعاتٍ اضافية. أخبرني الآن ماذا تريد ؟

لا تنسى أننا نتكلّم عبر الهاتف

- نعم نعم لقد قررنا الزواج أنا ونور

- ماذا ؟

- نعم قررنا الزواج

- أين انت الآن أخبرني لآتي إليك

- لا أنا سآتي إليك.. بل سنأتي إليك أنا ونور انتظرنا في المطعم قرب المبنى الأول الأقرب إليك

- حسناً إلى اللقاء

في المطعم..

– مرحباً مرحباً بالعريس

– أهلاً أهلاً بصديق العريس.. كيف حالك ؟ وحمداً لله على سلامتك

– الحمد لله أنا بألف خير من الله.. أين نور ؟

– لقد ذهبت ترتاح في غرفتها، لم تنم منذ البارحة تريد أن تنام قليلاً

– وكيف حالتها ؟

– الحمد لله أراها بتحسن على الدوام وهذا ما يجعلني سعيد لأجلها ولا أريد لها أي تراجع في حالتها الصحية أريدها سعيدةً وحسب بغض النظر عن كل شيء كان وممكن أن يكون، سعادتها،ابتسامتها لا أبيعها بكنوز الأرض كلّها وقد تكفّلت أمام الله بصنعها لها

– اذاً قررتما الزواج ؟

– نعم، هل ترى أن قرارنا غير ممكن صحياً يا سعد، خاصةً أنك تعلم حالتي ؟

– لا لا طبيعي ويمكن أن تتزوجا ولكن ليكن هناك طبيب مشرف على حالتك يا محمد والأفضل أن تعود إليه منذ الآن أنت ونور معك أيضاً لإتباع ارشاداته والالتزام بالأدوية التي يجب أن يوصفها لك

– تصوّر لقد سألتني نور عن امكانية انجاب أطفال !

قالت أن حلمها يكتمل بعائلة أساسها أنا وهي وطفل واحدٌ فقط، هل تعلم أنها جعلت منك وعائلتك مثلاً حيّا لذلك.. !

- لا أعلم بالضبط عن كيفية الأمر ولكن أعتقد أنّ الامكانية موجودة ولكنّي لن أجزم فأنا لا أعرف حالتك بالضبط عليك متابعة حالتك عند طبيب مختص بذلك، لديّ صديق طبيب أظنّك يمكن لك أن تراجعه وتتابع حالتك لديه.

- أتمنى ذلك

- سأعطيك رقمه حالاً

- لا لا يا سعد كلّمه أولاً ثمّ خذ لنا موعداً نذهب إليه معاً أنا وأنت ونور، ما رأيك ؟

- ليكن، سأكلّمه حالاً.

هذا رقمه.. لحظة إنّه يرن.

- ها ؟ لا يجيب ؟

ربما تأخر الوقت الآن يا سعد كلّمه غداً

- حسناً سأكلمه غداً لا تقلق، وماذا عن عقد القران ؟

- لا أعلم كنت سأسألك عن ذلك حالاً وأخذنا الكلام ثم نسيت

أنت تعلم أنّي غريبٌ هنا ولا أدري ما الترتيبات المطلوبة لأكتب كتابي على الأقل، كل ما أعرف أنك ستكون الشاهد الأول

- الشاهد اذاً، تريدني شاهد أيها الخائن ؟

– كفاك يا سعد والله أتشرف أن تكون شاهداً على زواجي وكم تمنيت لو أنك تفعلها قبلي وتطلب شهادتي على زواجك

– ومن أين لي بنور كنورك ؟

مبارك أيها الصديق.. غداً صباحاً سأقوم باتصالاتي ونرتب لفرحك

– لا أي فرح هو عقد قرانٍ وحسب

– بل فرح وبدلة جميلة لك ولنور وفرقة أيضاً،، يا صاحبي عش الفرحة ودعنا نعيشها معك ربما ستكون فرحتي الأخيرة هي فرحتي بك

– أرجوك سعد لا تؤلم قلبي بمثل هذا الكلام

– أمازحك يا غبي كما العادة

– غبي !

– عن إذنك أيها الطبيب المحترم سأذهب للنوم

– نم نم أيها العريس وراءك يوم طويل غداً وهنيئاً لك

اقترب سعد من محمد بعد أن نهضا الاثنين عن كرسيهما وقبّله بكل حب وكأنه شقيق له وليس صديق وحسب، أصبحت علاقة سعدٍ بمحمد أكبر من أي علاقة صداقة رغم كلّ قصرها.

***

غرفة نور..

في تلك الليلة لم تنم نور، تمددت على سريرها حالماً بكل جميلٍ يمكن أن

ينتظرها مع محمد أمسكت هاتفها وطلبت طارق أخاها، هل ستخبره بقرار زواجها من محمد !

لم تكن راغبة بأخذ رأيه بل أرادت أن تخبره قرارها دون رجعة، كانت تعلم تماماً أن طارق لن يقف بوجه قرارها طالما هي راغبة به وطالما أنّه لن يمس أيّ من ثروته بل ثروتهما الذي لا يبالي برعايتها وكأنها له فقط دون تقصيره مع نور طبعاً. طلبته على الهاتف النقّال كانت الساعة أصبحت قرابة الثانية عشر ليلاً لم تكن لتنام دون أن تخبره :

– ألو نور

– كيف حالك يا أخي ؟

– أهلاً حبيبتي.. كيف حالك أنت اليوم ؟

– الحمد لله أنا بخير بخير جداً..

– أخبريني ما بك ؟

يبدو أنك تودين الكلام بأمرٍ ما أم ماذا ؟

– نعم

– ماذا اذاً ؟ هل تريدين مال ؟

كم تريدين لأرسلها لك غداً !

– لا لا أريد مال لدي الكثير الحمد لله، لقد أرسلت لي منذ أيام ما يكفيني لشهور

– اذاً ماذا تريدين ؟

- أخي أنا قررت أن أتزوج

- نعم ؟

- نعم قررت الزواج بشاب قد تعرّفت عليه هنا، لا بل إنني أعرفه منذ عملي في سوريا بالمصرف، هو سوري ولكنه جاء هنا للنقاهة مثلي

- ومرضك ؟

- هو مريض مثلي أيضاً وكلانا لا نمانع بالارتباط

- ولكن يا أختي ألم تفكرين بمصير تلك العائلة التي تفكرين تأسيسها !

- هل الزواج محرّم على المرضى أم ماذا ؟

- لم أقصد يا نور، لنكن أكثر واقعية، لنفترض أنك أنجبت أولاداً، ماذا سيكون مصيرهم

- لم أعرفك إلا قاسي القلب ولن أفاجئ بمثل كلامك هذا

- عندما نكون واقعيين نصبح قاسيي القلوب.. ألست محقاً ؟

- ولما لا تقول أنني ربما بزواجي أتعدّى مرحلة الخطر وأنجو من الموت مثلاً !

أليس من الممكن أن أشفى ؟!

أنت تعلم أن حالتي لم تكن خطرة فقد اكتشفت المرض بسرعة، كانت كتلة صغيرة عند المعدة وتم استئصالها بنجاح وأخذت علاجي الكيميائي وأتممته وربما يكون الشفاء قريباً بإذن الله خاصةً أن تحليل الدم الأخير كان مريحاً وخالياً من أي خلايا فيروسية جديدة..ألم تكن أنت من أخبرتني ذلك

عندما جئت بي إلى هنا يا طارق ؟!

لقد أخبرتني أنني سأكون بخير بعد مدة قصيرة أم أنك نسيت ؟

– لا لا لم أنس يا نور يكفي، يكفي أنا متعبٌ ماذا تريدين مني الآن ؟ أو دعينا نتكلّم بوقتٍ أخر !

– لا أريد شيء اطمئن أنا فقط أريد أن أخبرك أنني سأتزوج بل سيكون عقد قراني غداً فإن أحببت القدوم أهلاً وسهلاً

– حسناً افعلي ما شئتي لا أدري لما تسأليني إن كنت قد قررتِ فعلاً ولا أدري لما تخبريني أيضاً ووالداك مازالا على قيد الحياة

– أنا مخطئة باتصالي بك،، أشكرك إلى اللقاء

– نور.. ألف مبروك أنا لا أمانع بأي شيء قد يسعدك يا أختي ولكنّي أخاف عليك فقط

– خائف علي أم أنك خائف من أطفال ربما سيأتون ليقاسموك الميراث الذي تنتظر أن تجعله لنفسك فقط بعد وفاتي الذي أظنك تتمناه يا أخي وشقيقي الوحيد

– أنت تعلمين أني لم أقصر معك يوماً كنت على الدوام أدعمك بالمال بأكثر مما تحتاجيه أليس كذلك ؟

كان عليك أن تشكريني على رعايتي لتلك الثروة التي لم تكن إلا ربعها قبل أن يسلمني اياها أبي وأنت أكثر من يعرف ذلك..

– كفى طارق أرجوك

– حبيبتي أنت أختي وشقيقتي ولابد أن أفرح بك بعد خبرٍ كهذا.. ألف مبروك أيتها الصغيرة

هيا ابتسمي كعادتك وكفاك بكاءً، لا أحتمل ذلك صدقيني..

ها لم تخبريني ما الهدية التي تريدينها ؟!

– لا أريد سوى مباركتك يا أخي

– ألف مبروك يا صغيرتي

– الله يبارك فيك أخي العزيز.. أريد أن أكلم أمي وأبي الآن.. إلى اللقاء

– سلمي لي عليهم إلى اللقاء

كان لنور قلباً أبيضاً لا يمكن أن يحمل أي من المشاعر السيئة خاصة إن كانت اتجاه شقيقها الوحيد طارق، عندما أغلقت الهاتف أحسّت بالذنب وكأنّها هي من أخطأت بحق أخيها لا العكس أحسّت أنّها قست عليه رغم أنه هو من قسى. هم دائماً المحبين هكذا على الدوام لا يرون المواقف إلّا بقلب محب لا يرضى على من يحب إلّا الحب، يقابلون الاساءات بالحب وينتظِّرون التقدير، فقط التقدير هذا كل ما ينتظرونه ممن يحبون.

وهكذا نور رأت أنها شريرة حقاً بعد أن تسببت بإغضاب أخيها الذي قد أبدى بعض الحنان قبل أن ينهي مكالمته معها، هذا ما كان كفيلاً بإدانة نفسها أمام نفسها. فما أن انهت مكالمتها مع طارق حتى أرسلت له رسالة عبر الواتساب :

" طروق حبيبي إنت بتعرف شو بحبك وأنا ما بدي شي غير إنك تكون

جنبي وتسندني طول حياتي اللي يمكن ما تكون طويلة صح بس ما بتسوى شي بدونك

بحبك كتير يا روح قلبي الله لا يحرمني منك..

تصبح على خير تقبر قلبي "

هكذا هدأ ضمير نور وقلبها وأصبحت قادرة على التكلّم مع والديها. انتقلت عبر تطبيق الواتساب إلى رقم والدتها وطلبتها عبر مكالمة صوتية ، ردّت والدتها على الفور بدأت نور بالحديث مع أمها ومنذ كلمات الترحيب الأولى أخذت بالبكاء :

– حبيبتي ما بك ؟ ألست سعيدة حيث أنت ؟

ذهبتِ للترفيه عن نفسك أراكِ متعبة وتتعبيها أيضاً. أخبريني ما الذي يشغلك يا بنيتي ؟!

– لا ماما حبيبتي أنا أبكي فقط لأنّي اشتقت لك أولاً ثمّ أبكي لأنه لديّ خبرٌ أظنّه سيسعدك ويبكيك في الآن نفسه

– وأنا اشتقت لك كثيراً، البيت فارغٌ من الحب والحنان بدونك يا صغيرة

– ما بك ماما !

أنت وطارق مازلتما إلى الآن تنعتوني بالصغيرة

– وستبقين صغيرة ومدللة أيضاً، ألا ترين أنك مازلت أنت أيضاً تفرحين بها، فها أنا ذا أسمع ضحكتك عندما قلت لك صغيرة رغم بكاؤك منذ قليل

– صدقتي ماما

– أخبريني صديقتي الجميلة ما كنت ستخبريني به ؟!

– ماما أنا سأتزوج

– ماذا ؟

– نعم لقد وجدت الشاب الذي سيكون زوجي

– هل جننت نور.. !

كيف ستتزوجين وأنت بعيدة عن والديك وإيّاك أن تقولي أنّه ليس سوريّاً

– لا ماما إنه سوري هل تذكرين محمد الذي أخبرتك عنه عندما كنت أعمل في المصرف !

وقد تحدثت لك عن نظرات اعجابه بي ولكني في هذه الفترة تركت العمل ألا تذكرين ؟!

– أه نعم تذكرت. ولكن يا بنتي ما الذي جمعك به هناك ؟!

ولما تتزوجينه هناك ونحن أهلك هنا ؟

من المعيب يا صغيرتي أن تتزوج الفتاة بدون أهلها وبهذه الطريقة

– ماما حبيبتي أصبحت شبكة الانترنت تقرّب كل بعيد.. هل تذكرين ابنة عمتي ناديا عندما تزوجت من شاب لم تقابله يوماً حتى وقد جازفت وذهبت إليه وقام بخطبتها من أهلها عبر الانترنت.. المهم ماما هو أنا وذلك الشاب ومدى التفاهم والانسجام بيننا والباقي يبقى شكليات وتقاليد لن تغيّر أي شيء بعلاقتنا..

– تقاليد وشكليات !

إنها أصول يا بنتي.

نور أنت لست مضطرة كابنة عمتك التي كانت مضطرة لفعل ذلك خاصةً أن الشاب لا يستطيع المجيء لطلب يدها. أما أنت فالشاب سوري ويستطيع القدوم إلى سوريا وتعرفينه من قبل فلما تتزوجينه بهذه الطريقة !

هذا عدا عن أنني أريد أن أفرح بك..أريد رؤيتك بالفستان الأبيض الذي سأختاره لك أنا، أنت وحيدتي يا نور ومن حقي أن أفرح بك على طريقتي

– لا أريد أن أعمل فرح أو حفلة سنتزوج فقط بين أصدقاءنا وأنا راضية بذلك طالما محمد معي فلا أريد تلك المظاهر أنت تعلمين أنها لا تعنيني

– نور إن كان هذا الشاب غير قادر على القيام باللازم فلا تقلقي أباك وأخيك سيتكفلان بكلّ شيء هذا مالك وحقك يا عزيزتي

– ماما أنا لا تعنيني تلك المظاهر أرجوك لا أريد

– حبيبتي أنت ما زلت صغيرة ولا تعلمين مدى خطورة أن تتصرف الفتاة بتلك الطريقة وتهمّش أهلها في مسألة زواجها وتتنازل عن أبسط حقوقها كفتاة من فرح وذهب وغيره، أعلم أن تلك الأشياء لا تعنيك ولكنها تؤثر على قيمتك أمام ذلكَ الشاب الذي سيصبح زوجك في المستقبل، تؤثر على قيمتك أمام أهله وأهلك، أمام مجتمعه ومجتمعنا.. هل فهمت ؟

– أنا أبداً لم ولن أهمشكم على الإطلاق وإلا لما كنت كلمتك الآن أنا فقط أريد أن أصنع ذلك المشروع الناجح الذي طالما أخبرتك عن حلمي به، وهو الزواج بعيداً عن كلّ ما يرتبط به من معاني تافهة ومظاهر بالية نجعلها أساساً له، طالما أن تلك المظاهر التافهة هي أساس الزواج فلابد أن يكون فاشلاً

بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

– وهل كل فتاة فرحت وتزوجت ولبست ذهباً وتظاهرت بتلك المظاهر الجميلة تكون قد أسست مشروعاً فاشلاً وزواجها يكون فاشلاً ؟ ما هذا الهراء ؟ هل ضحك عليك هذا الشاب ؟

– ماما أنا نور التي طالما كنت تقولين لي أنني أنضج من سني وأني أفكر بطريقةٍ مميزة وبعقل ناضج..أليس كذلك ؟

– نعم ولا زلت على رأيي لكن قلبك يا صغيرتي كقلب طفلٍ صغير، أنا أخاف عليك من قلبك يا نور

– أمي أنا كأي فتاة تحلم بالفستان الأبيض والفرح الكبير والمجوهرات وغيرها ولكن تلك المظاهر لا تمثل لي إلا مكملات الفرح الذي يمكن أن أتخلى عنها ويستحيل أن أجعل منها أساساً لزواجي بأي أحد كان، صدقيني ماما لو أن ظروفي سمحت لي لكنت فعلت كل ذلك ولكن الآن لا ضرورة لذلك

– وما هذه الظروف التي تجعل من أهلك لا ضرورة لهم أيضاً ؟

– ومن قال هذا ماما ؟

بالعكس أنتم الأساس صدقيني ولكن ثقي بي ودعيني أفعل ما هو مناسب

ثقي بي ماما

– وماذا عن الشاب ؟ عائلته أخلاقه طباعه ؟

– لقد سبق وأخبرتك عنه ماما ألا تذكرين إنّه محمد عبد الحليم وقد أخبرتني أنّه قريب لزوجة خالي سمية من جهة والدته وأنّك سبق وقابلت والدته لدى زوجة خالي وأنّها على قدر عالٍ من الاحترام والأخلاق وروحها جميلة جداً، ألا تذكرين ما قلته لي حينهًا ؟

– على الأقل تأتي عائلته لطلب يدك منّا هنا أنا وأباكِ

– ماما أرجوك ثقي بي هذه المرة

– حسناً وماذا سأخبر والدك ؟

– أخبريه ما قلته لك وأظنه يسمع، لا أعتقد أنك ستتحدثين إلي دون سماعه

– أه منك يا صغيرة هذا صحيح هو بجانبي ويهز رأسه ويلفّ سيجارته دون أن يعلق

– اذاً فقد وافق

– وهل يردّ لك طلباً

– حفظكما الله لي كم أحبكما أنتما روحي

– أخبريني عن التفاصيل الآن

– اتفقت مع محمد الذي حدثتك عنه مسبقاً على الزواج وسنعقد قراننا غداً بدون أي مراسم سوى كتب كتاب وشهودٍ وحسب وبالتأكيد ستكونا معنا على الهاتف عبر الواتساب

– سأراك عبر الفيديو ؟

- نعم بالتأكيد لا تقلقِ
- اذاً وليكن كتب كتاب وحفلة العرس في سوريا
- ماما ماذا كنا نتكلم !
- حسناً وماذا بعد؟
- بعد أسبوع على الأكثر سيكون الزفاف
- هكذا دون أي شيء
- لا تقلقِ سألبس فستاناً أبيض، الفستان لم ولن أتخلّى عنه
- لا وتتخلين عن الفستان أيضاً !

قالت الأم ساخرة ثم ضحكت نور

- سلمي لي على بابا لن أريد أن أكلمه الآن سأكلمه غداً صباحاً
- حسناً
- تصبحون على خير
- وأنت من أهل الخير انتبهي إلى نفسك يا حبيبتي

لو شاءت نور ورغبت كان من السهولة أن تطلب من والديها السفر إليها وحضور عقد القران والزواج أو لكانت طلبت من محمد قطع اجازته ورحلته والرجوع معها إلى سوريا لعمل مراسم الخطبة والزواج بالشكل التقليدي كما هو معتاد طلبها بين أهله وأهلها، لكن يبدو أن نور كانت راغبة بالعزلة عن عائلتها وعائلة محمد أيضاً، خاصة أنه لا أحد يعلم بمرضها

سوى أخاها وحسب، هي لم تكن قادرة على أي مظهر اجتماعي وهي بتلك الحالة لذا قررت أن تنفذ ما أرادته دون أي مضيعةٍ للوقت ودون أي مظهر لا تطيقه حالياً، كانت تعلم أن حضور والديها سيكون مؤثراً جداً بالنسبة لها وصعباً عليها لذا كان لابد لمحمد الانصياع لما أرادته نور فهو أيضاً حالته النفسية تشبه حالته مع أهله ومجتمعه كلياً.

في اليوم التالي..

عمّ الهدوء هذا اليوم في المنتجع أكثر من أيّ يوم أخر وكأن كل زاوية من زواياه قد علمت بقيمة مثل هكذا زواج كان أساسَه الحب، الحب الذي لن يكتمل إلّا بالأبدية التي لا تنتهي عند حد معين ولا زمن معين ولا أشخاصٍ معينين، هو فقط لا يحتمل أي من معانٍ أًخرى سوى الحًب.

جهز سعد كل مستلزمات اليوم لكتب الكتاب الشرعي بوجود الشيخ وكذلك الشاهدين، هو إلى جانب العم مدحت بحسب رغبة محمد الذي لم يتردد بطلبه واستدعاءه ليكون الشاهد الثاني على زواجه، رغم تعجّب العم مدحت من زواج محمد وهو يعلم وضعه كمريض مع ذلك كان فرحاً جداً عند تلقيه مكالمة محمد وسماعه للخبر، وأن يكون شاهداً هذا ما جعله سعيداً فوق العادة هكذا هو العم مدحت بقلبه الطيب.

سعد قرر أن يجهّز كل ما يلزم لكتب الكتاب من العصائر المتعارف عليها هناك والحلويات التي اتفق مع أحد مطاعم المنتجع على تقديمها لكل من يكون حاضراً آنذاك في صالة المطعم نفسه.

اتصل في ذلك اليوم مع نور وطلب إليها تجهيز نفسها ولبس فستان يليق بكتب كتابها، كانت نور سعيدة لفرح سعد الصديق الفعلي لمحمد الذي طلب منه سعد أيضاً تجهيز نفسه بما يليق بنور في هذه الليلة.

وصل العم مدحت مع الشيخ عند الساعة الثامنة تقريباً، توجه معه إلى

المطعم المكان المقرر اقامة عقد القران به، كان محمد وسعد في الانتظار أمّا نور فقد كانت برفقة سمر وتغريد الفتاتان اللتان تقيمان في المنتجع و المبنى نفسه حيث نور، كانت غرفهما قريبة من بعضها، لم تكن على علاقة قوية معهن إلّا أنها لم تستاء يوماً من تواجدهما معها لأي سبب كان ما عدا كل ما هو شخصي، لم تكن تتعامل معهما إلّا بكل حب ولطفٍ، كانتا الاثنتين مصريتين وأيضاً مريضتا سرطان ولم تكن حالتهما بذلك السوء.

في ذلك اليوم علمتا هما الاثنتين بعقد قران نور عن طريق سعد فهو أيضاً يعرف الفتاتان معرفة سطحية، أراد سعد لو أنّه يستطيع اخبار كل نزلاء المنتجع بعقد القران ولكنّه اكتفى ببعض أفراد المبنيين اللذين يقطن بهما نور ومحمد و الأقرب نوعاً ما لغرفهما والذي لابد لسعد أن يعرف كل هؤلاء فرداً فرداً.

التزمت كل من سمر وتغريد بالوقوف مع نور في ذلك اليوم خاصةً أنها بعيدة عن أهلها ولن ننسى أيضاً أنهنّ أصحاب قضيةٍ واحدة وهنّ فقط من يعي معنى الزواج في مثل تلك المرحلة، نور انسانة قوية وشجاعة هكذا كنا يرينها وكل الفتيات اللواتي كنّ قد نزلن في المنتجع وعلمن بقصتها أيضاً.

رافقت سمر وتغريد نور إلى غرفتها واختارا لها فستاناً من خزانتها التي كانت تعج بالفساتين ذات الطابع الأنثوي أيضاً، كان فستاناً بسيطاً ذو لونٍ أزرق غامق من القماشِ الناعم طويل قد أظهر طولها ذو أكمام واسعة ومنفوخةً نوعاً ما ومزمومةُ عند الرسغ لبست حجاباً من اللون الأبيض اللؤلؤي ولم تنسى بعض الاكسسوارات الناعمة كما كانت تحب، كانت سمر تهوى أساليب الزينة والمكياج قامت بتزيين نور والاهتمام بمظهرها،

رشت نور من عطرها وخرجت معهما إلى المطعم حيث كان محمد ينتظرها مع الضيوف والشيخ لكتب كتابهما، نظر إليها محمد وهي تدخل المطعم وتقترب منه وكأنها ملكة بنظره، هي أيضاً لم تحيد بنظرها عنه ولا للحظة واحدة، أصبح من الآن هو حياتها وأبديتها التي طالما حلمت بها في عافيتها وبعد مرضها. جلست نور حيث الكرسي الفارغ قرب محمد وبدأ الشيخ بعقد قرانهما وما انتهى حتى بدأ التصفيق والتصفير من كل الموجودين وكأنه أول وأخر عقد قران سيتم على هذه الأرض. كان الجميع سعيداً بمثل ذلك العقد الذي لا يحمل أَيٍ معنى من معاني السوء، كان صادقاً لأبعد درجات الصدق بعيداً عن الغش والمصالح كل البعد.

انتهى هذا اليوم بتوزيع الحلويات على الحاضرين جميعهم وتقديم التهاني والمباركات لمحمد ونور وحتى سعد وكأنه الفرد الوحيد في العائلة الجديدة، لم تكتمل هذه الفرحة إلّا بمباركة والداي نور لكل من العروسين وهكذا اطمئنت نور أكثر من أي يوم مضى في حياتها قبل المرض وبعده.

محمد لم يخبر أهله وعائلته فضّل تأجيل الخبر إلى حين عودته حيث أنّه قرر اخبارهم بمرضه أيضاً، حتى ولو اضطر أمامهم لجعل مرضه يحمل اسماً أخر كالسرطان.

عند الانتهاء ذهبت نور بصحبة تغريد وسمر، كل واحدة إلى غرفتها، أمّا محمد وسعد ذهبا في طريقهما إلى المبنى الأخر حيث غرفهما أيضاً، في الطريق أخبر سعد محمد أنّه كلّم صديقه الطبيب بشأن الاشراف على حالته المرضية وزواجه وقد حدد لهما أي هو ونور موعداً في الغد عند الساعة الثانية ظهراً حيث يكون أنهى دوامه في المستشفى وتفرغ لهما فقط.

في اليوم التالي..

كانت عيادة الطبيب قريبة نوعاً ما من المنتجع ذهب محمد برفقة سعد بسيارته إلى الطبيب وصلا في الموعد المتفق عليه.

الساعة تشير إلى الثانية ظهراً، دخلت نور برفقة محمد وسعد إلى العيادة، سلّم سعد على صديقه الطبيب وأوصاه بمحمد وخطيبته نور ثم انصرف بعد أن اتفق معهما على العودة لأخذهما بعد ساعةٍ أو أكثر قليلاً.

تحدّث الطبيب مع محمد وسأله العديد من الأسئلة لمعرفة حالته ثم شرح لنور طبيعة المرض والفيروس الذي يحمله محمد و أوصى الاثنان وأرشدهما بالعديد من الوصايا والإرشادات وأعطى كلّ منها كتيّب صغير يشرح التفاصيل والإرشادات التي يحتاجاها هما الاثنين ولكن طلب من محمد اجراء تحاليل جديدة أيضاً وطلب من نور متابعة طبيبها على الدوام ومراقبة حالتها أيضاً بعد شرحها له تفاصيل زواجها من محمد.

كانت الساعة أصبحت الثالثة والربع حين وصل سعد ودع الجميع الطبيب وأخذوا موعداً جديداً بعد يومين إلى حين عمل التحاليل المطلوبة في مخبرٍ قد أوصى به الطبيب.

طلب محمد من سعد التوجه على الفور لأخذ عينة الدم وإجراء التحاليل المطلوبة، وبالفعل ذهب سعد حيث مخبر التحليل وصعد مع محمد إلى المخبر في الطابق الرابع بينما بقيت نور تنتظر الاثنين في السيارة. لم يغيبا طويلاً أنهى

محمد تحليله الذي لن تظهر نتيجته إلّا في مساء الغد أو بعده، عادا الاثنين إلى السيارة حيث ما زالت نور تنتظر قدومهما، انطلق سعد بهما على الفور بسيارته إلى المنتجع.

سوريا..

في منزل محمد كان الوضع مستقراً تماماً، لم يكن لأي من أفراد العائلة سبباً للقلق على محمد في بداية الأمر، لكل منهم كان رأيه الخاص بسفره ولكن لا يمكن لأحدهم أن يفهم السبب الحقيقي للسفر، أو أن يقدّر حالة محمد التي هو عليها الآن أو يمكن له أن يتوقع مثلاً أنّ محمد سيتزوج وسيكون عرسه خلال أيامٍ قليلة.

جلست زينب مع والدتها في الصالة حين دخل الأب يسأل ما اذا زينب كلّمت أخاها هذا اليوم، كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف :

- هل كلّمت محمد يا زينب اليوم؟

- لم اكلّمه اليوم ولا حتى البارحة يا أبي

- ولما ؟

- كلّمته البارحة لم يجبني واليوم لم يخطر ببالي أن أكلمه اعتقدت أنّه سيكلمني بعد أن يرى مكالمتي البارحة

- حسناً هيّا اطلبيه لي

- ما بك بابا هل هناك طارئٌ ما لا قدّر الله ؟

- لا يا بنتي ولكن وضع أخاك يقلقني هذه الأيام

كانت الأم تسمع كلام زوجها وقلقه على ولده الكبير بهدوء لكنّها لم

تعلّق، فقلق أبو محمد لم يأتي إلا من قلقها هي. نظرت زينب إلى والدتها نظرة عتب لأنها تعلم أن قلق أبيها لم يأتي إلا من وراء قلقها الذي طالما تجادلت به معها وأخبرتها أن قلقها لا مبرر له، خاصةً أنها قبل أيام من سفر أخيها رأته يصلي الفجر، أما الأم فإن ما يقلقها حقاً هي مسألة الصلاة الفجائية تلك وأيضاً حاله الهادئة التي لم تعتد عليها سوى في الأيام الأخيرة قبل سفره، وكذلك إجازته الغير مبررة خاصةً أنها بلا راتب، والسفر الفجائي أيضاً، كل ذلك كان لابدّ أن يستدعي القلق من قبل الأم مراراً، أمّا الأب لم يكن يرى في البداية وجود ما يُقلق بشأن محمد طالما أنه بخير، فهو كما يقول ليس ولداً صغيراً لنخاف عليه هذا ما كان يقوله مراراً لزوجته لا شيء إلّا ليريح بالها ومع ذلك كان لابد لقلق أم محمد أن ينتصر لا بل ينتقل إليه أيضاً.

قالت زينب :

- سأطلبه لك حالاً

حاولت زينب طلب محمد أكثر من مرة لكن دون اجابة، لم تشأ زينب أن تزيد من قلق والدها فأخبرته أن شبكة الانترنت ضعيفة لديها ولدى محمد أيضاً لذا فإن الاتصال لا يمكن أن يتم حالياً.

حاولت زينب في تلك اللحظات السيطرة على قلق والديها ومع ذلك دخل القلق إلى قلبها حينئذ، فمحمد لم يجبها منذ يومان.

بعد عدة دقائق تقريباً أرسل محمد رسالة لزينب عبر الواتساب بأنّه بخير لكنّه مشغول قليلاً وسيكلمها بعد عودته من الخارج إن شاء الله، عندها اطمئنت زينب بالفعل وذهبت إلى غرفتها للدراسة.

لم يمضي إلا بضع دقائق حتى بدأ هاتف زينب يرن، كان أسامة كما ظهر على شاشة هاتفها، أسرعت زينب بالرد عندما رأت الاسم وكأنها كانت متلهفة :

- أهلاً أسامة

- أهلاً زينب

- هل هناك طارئٌ ما ! أم هناك أي خبر عن محمد ؟

- الأخبار لديك !

- منذ قليل أرسل لي رسالة عبر الواتساب رغم أنّي أحاول مكالمته منذ يومان تقريباً

- ها وما أخبرك ؟

- قال لي أنّه بخير و سيكلمني بعد قليل

- المهم أنه بخير

- منذ أن كلمته في المرة الأخيرة كان بأحسن حال

- ونحن ؟

- نحن ماذا ؟

- كنت أخبرتك يا زينب أنّي قد ازداد اعجابي بك بعد أن تقابلنا في المرة الأخيرة

- ولكن يا أسامة أنت لم تقابلني سوى مرتان، في المرة الأولى عندما

أخبرتني باتصالك الثاني وسؤالك عن أخي أن لديك شيء مهم تريد اطلاعي عليه بشأن محمد بعد أن كنت أدخلت القلق إلى قلبي بشأنه، وعندما قابلتك في المرة الأولى كان لقاءً سريعاً لم أفهم منه سوى أن محمد سافر وحيداً دون أيّ أحد من أصدقائه رغم أنّه أخبرنا عكس ذلك، أما المرة الثانية فكانت أيضاً لسببٍ مشابه يخصّ أخي ولن أخفيك أن نظراتك حينها كانت تفضحك في كلّ مرّةٍ تنظر إليّ ولكن هل أنت متأكد أنّي الفتاة التي اخترتها لتكون شريكة لك فعلاً ؟

– عندما يقرر الشاب الارتباط فتأكدي أن من اختارها هي ذاتها التي ستكون شريكته للأبد ولن يتراجع عن قراره مهما حدث. ستتصل أمي هذه الليلة بوالدتك لأخذ موعدٍ قريبٍ منها من أجل حضور عائلتي لطلب يدك وخطبتك بشكلٍ رسمي

– لكن ألا يجب أن نخبر محمد

– دعيها مفاجأة له المهم أن يكون بخير

– لكن أسامة هل لي أن أسألك عن شيءٍ لطالما فكّرت به منذ أن حدثتني عن رغبتك في خطبتي ؟!

– وما هو ؟ أو لنقل دعيني أخبرك به فأنا غالباً أعرفه..

أنا أعلم يا زينب أنك فتاة ملتزمة ومتدينة وقريبة من الله وأعلم تماماً عن فكر محمد بهذا الخصوص، أمّا أنا فكنت على الدوام أعاكس محمد والشلّة بموضوع الدين، إني أؤمن بالله وديني الاسلام رغم عدم التزامي الكبير به، وبالرغم من خوضي الكثير مع الشلّة، لكن بخصوص الدين لم أتأثر بآرائهم

اطلاقاً، حتى وإن سايرتهم لمرات عدة إلّا أنّي كنت أجادلهم لمرات كثيرة أيضاً وأحاول تصحيح أفكارهم بهذا الخصوص وبإمكانك سؤال محمد عن ذلك.

زينب لن أخفيك أنّي أعيش كأيّ عازب بعيد عن الالتزام والاستقرار في حياته ولكن أعي تماماً معنى أن يقرر الشّاب تأّسيس عائلة، خاصةً عندما تختار شريكة مثلك، بالتأكيد يا زينب ستتغير حياتي كلياً بمجرد الارتباط بك. ومحمد يعلم تماماً رأيي في هذا الموضوع.

حاول أسامة جاهداً أمام زينب أن يكون ذلك الشاب المسئول على غير عادته، كانت زينب بالنسبة له فرصة لا يريد أن يخسرها على الاطلاق، كانت فعلاً اختيار يصعب تواجده في أيّ وقت تريده، كان لابد له أن يعود لنفسه ويحاول أخذ قرار يمكن أن يغير حياته كليّاً كما كان يريد ذلك مراراً ولا يستطيع.

في تلك الليلة تحدّثت أم أسامة مع والدة زينب وأخذت موعداً لطلب يد زينب، أمّا محمد فلم ترد منه أيّ مكالمة في هذا اليوم أيضاً حتّى زينب نسيت أمره هذه الليلة وهي تفكّر بكلام أسامة ومدى جدّية الارتباط به رغم أنّها هي أيضاً تبادل أسامة بعض الارتياح ونظرات الاعجاب بعد تلك المرات التي قابلته بها وتحدثا معاً .

لكن كيف سيكون موقف محمد من مثل هذا الخبر ؟!

كيف يمكن للفيروس أن ينتقل لمحمد دون أسامة ؟

خاصةً أن أسامة صديقه الأقرب وصديق مغامراته جميعها على الاطلاق، صديق لهوه وسهراته المشبوهة على الدوام.

في مساء الغد..

كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف مساءً، بدا على محمد بعض الخوف أو لنقل القلق فلا شيء يستدعي الخوف خاصةً أنه يعرف نتيجة التحليل ويعلم تماماً أن تلك الصدمة التي صُدِم بها منذ مدة عندما سمع نبأ اصابته بالإيدز من الطبيب لن تتكرر أبداً، لكن ما الذي حدث لمحمد حتى أصبح قلقاً هكذا عندما اقترب موعد استلام نتيجة تحاليله !

ربما يأتي القلق أحياناً لأسبابٍ معاكسة لأسباب القلق الأساسية، ربما قلقه كان من وجود فكرة احتمالٍ اختفاء الفيروس من جسده بعد اليوم، وحتى لو أن هذه الفكرة مستحيلة إلّا أن احتمالها وارد ولو بنسبة بسيطة لا يمكن احتسابها، لكن في عالم الاحتمالات لا يمكن انكارها وعند محمد وجود مثل هذه الاحتمال حالياًغير واردٍ بالنسبة له.

أصبح محمد الآن متصالحٌ مع نفسه وقد فاز بها أيضاً، لقد علم معنى وجود إله في هذه الدنيا التي لابد أن تخضع لقوانينه تلك القوانين التي تجعل منه بشراً قادراً على تحديد ما يريد منها ومن نفسه أيضاً، مستعداً لتلك اللحظة حين يفارق الدنيا إلى عالمٍ أخر.

فكرة واحتمال الرجوع بمحمد في الزمن إلى الوراء فكرة لا يمكن له أن يتخيلها حتى وإن كان ذلك سيكسبه عافيته من جديد. منذ مرضه لم يفكّر أبداً بفكرة لو أن الزمن يعود به إلى الى الوراء ويعود معافاً من جديد، كانت

لحظات العودة بالنسبة له ليست إلا لحظات ندم وكره لذلك الشخص الغير مبالي في مسألة الزمن حقاً، غير مبالي بتلك النفس التي وضعها الله بجسد كلّ منّا، فكرة العودة إلى ذلك الشخص أو حتى الرجوع بالذاكرة إلى ذلك الشخص الذي كان عليه مسبقاً لم تعد واردة بالنسبة لمحمد الجديد خاصةً بعد وجود نور معه أيضاً هذه الفترة، نور المريضة مثله تماماً.

أمسك هاتفه واتصل بسعد كي يأتي لاصطحابه للمخبر واستلام النتيجة، لم يتأخر سعد فقد كانا اتفقا على الموعد منذ الصباح. ركب محمد بالقرب من سعد بسيارته ثم انطلقا معاً نحو المخبر.

في المخبر طلب محمد نتيجة تحليله كانت الساعة قد تخطت السابعة وبضع دقائق. هذه المرة لم يترك سعد صديقه يصعد إلى المخبر بمفرده، خاصةً أنّ القلق بدا واضحاً عليه، القلق الذي لم يكن مبرر بالنسبة لسعد. نادت الممرضة محمد كما المرّة الماضية تماماً، لقد تذكّر محمد تلك اللحظة بكل التفاصيل التي تليها :

– السيد محمد عبد الحليم

كررت الممرضة اسم محمد وهو شارد الذهن :

– السيد محمد عبد الحليم

نظر سعد إلى محمد متعجباً من حالته ثم نهض عن كرسي الانتظار في المخبر واستلم النتيجة وأعطاها لمحمد :

– ما بك شارد الذهن يا سيد محمد عبد الحليم ؟

قالها سعد باستهزاء

- هاتيه هاتيه سيد سعد

- ما بك يا محمد ؟

- صدقني يا سعد لا شيء لكنّي أشعر بقلق ربما بسبب النتائج

- وما هو السبب ؟ إن كنت قمت بهذه التحاليل للمرة الثانية وليست الأولى !

- لا أدري والله ربما تذكّرت تلك اللحظات الصعبة التي عشتها فترة استلامي لنتائج التحاليل في المرة الأولى

- هات أعطيني التحاليل لنرى النتائج

- وهل تعرف قراءتها ؟

- هل نسيت أنّي طبيب ؟

- آه نعم أعتذر لا أدري كأنّي مشوشٌ هذا اليوم

- هاته لنرى ما هي تلك التحاليل التي طلبه الطبيب بالضبط

بدأ سعد بقراءة النتائج وهو في سيارته بجانب محمد مستعداً للانطلاق في طريق العودة، لم يتكلّم بأيّ كلمة بقي هكذا واضعاً كل تركيزه في نتائج التحليل وبعد عدة دقائق نظر سعد إلى محمد نظرةٌ شريرة وأخذ يضحك مستلماً القيادة :

- ما بك تضحك هكذا ؟

لا تصمت وتنظر إليّ..

هيّا أخبرني ماذا قرأت وجعلك تضحك وتنظر إليّ بغرابة واستهزاء ؟

– محمد أنت لا تحمل أي فيروس أو مرض وتحاليلك جميعها ممتازة ما شاء الله

– ماذا تقول ؟

– صدقني يا محمد

– ربما النتائج ليست لي مثلاً !

– لا أعتقد وعليه اسمك !

ولا أعتقد أيضاً أن مثل هذا المخبر سيخطأ بهذه الطريقة أو بخطأٍ كهذا !

– أنت تمزح أليس كذلك ؟

بدت على وجه محمد علامات الفرح والسعادة التي تشبه فرحة ذلك التائه بصحراء باحثاً عن ماء وإذ بدلو كبير من الماء أمامه حتى دون أي مقدمات وأسباب لوجوده أمامه وسط هذه الصحراء الكبيرة.

– لكن كيف ذلك يا سعد ؟!

أمتأكدٌ من ذلك ؟

– دعنا نذهب إلى طبيبك ولتتأكد منه بنفسك أيضاً

– لا خذني إلى مخبرٍ أخر ودعنا نعيد التحاليل

– لا أدري

– نعم أرجوك خذني إلى مخبرٍ موثوق بحسب خبرتك

– حسناً سآخذك إلى مخبرٍ قريب من هنا وهو مخبر جيدٌ أيضاً، لكن أنا مقتنع بتلك النتيجة التي أماميً، محمد أنت لم تقم بأيّ تحليل أخر سوى الذي قمت به في البنك في المرة الأولى كما أخبرتني، واحتمال الخطأ في المرة الأولى أكبر بكثير من هذه المرة أليس كذلك ؟

– ربما

– ناهيك عن أن هذا المخبر له اسمه العريق ويصعب الخطأ بتحاليل دقيقة كهذه وأرى أن تلك النتائج التي أمامي مقنعة لإنسان مثلك.. أرىً أنها ًالتحاليل الأدق والأصح

– خذني إلى المخبر الأخر

– نحن في الطريق في الطريق..

محمد ماذا لو أنك فعلاً معافى من هذا المرض بل أنت معافى بالكلية من أي مرض ؟

– لا أعلم يا سعد لا أستطيع التفكير بأي شيء

– ونور؟

– إلّا نور.. نور لن أفقدها مجدداً مهما كلّف الأمر أرجوك يا سعد لا تخبر نور أي شيء ربما لو علمت لتراجعت عن الزواج

– لن أخبرها بشيء اطمئن، هيّا انزل ها قد وصلنا

نزلا الاثنين من السيارة صاعدين إلى مخبر التحليل في الدور الثاني قامت إحدى الممرضات هناك بأخذ عينة تحليل من محمد لإجراء التحاليل المطلوبة

كما كتبها الطبيب لمحمد.

النتائج ستظهر غداً مساءً كما أخبرت الممرضة محمد قبل أن ينصرف. عاد كل من محمد وسعد بالسيارة لكن بقيا صامتين طوال طريقهم إلى المنتجع حيث كانت نور بانتظار عودتهما أمّا موعد الطبيب المعالج قد قام سعد بتأجيله إلى الغد بطلبٍ من محمد.

في تلك الليلة لم ينم محمد تقريباً ولم يستطع التكلّم مع نور أيضاً رغم أنّها كلّمته هذه الليلة كعادتها أرادت أن يتمشيا قليلاً عند الشاطئ أو في الحديقة لكن محمد لم يجيبها إلّا برسالة عبر الواتساب أنّه متعبٌ قليلاً ويريد أن ينام، حتى نور لم تنم بعد رسالته، لم يتصرّف معها بهذه الطريقة منذ أن عرفته كان وضعه مقلقاً بالنسبة لها وهي نور تلك الفتاة الحساسة الرقيقة جداً.

"ربما قد أصابه شيء ما لا قدر الله "

كانت تكلّم نفسها خائفة من تدهور صحة محمد مثلاً أو تراجعه عن خطوة الزواج حتى، لم تعرف نور كيف تفسّر تصرّف محمد معها هذه الليلة وهو الذي لم ينم مرةً منذ أن تقابلا معاً في المنتجع دون أن يطمئن عليها ويطمئنها عنه أيضاً ويعطيها مساحة كبيرة من الوقت لتسرد له أخبارها وحكاياتها التي لا يستطيع النوم دون سماعها منها، لم يكن محمد ينام دون سماع تصبح على خير يا كلّ حياتي من لسان حبيبته الغالية نور. هذه الليلة لم تنم نور إلّا بعد العديد من المكالمات المتتالية له إلّا أنّه لم يستطع الاجابة.

لم تختلف حالة محمد هذه المرة عن حالته في المرة الأولى عند سماعه خبر اصابته بالمرض، حالة القلق والخوف نفسها وعدم القدرة على التفكير أما الأسباب لم تكن واضحة بالنسبة له هذه المرة .

عند ساعة الفجر وبعد رفع الآذان في المسجد توجه محمد للصلاة هناك وبعد الصلاة تقابل مع سعد كالعادة بعد قراءة ورد القرآن اليومي لكل منهما:

– ها يا محمد أخبرني كيف كان شعورك هذه الليلة، ربما نمت مرتاحاً دون التفكير بهموم المرض وأوجاعه التي من شأنها أن تصيبك في لحظة ما أليس كذلك ؟

ضحك محمد ساخراً من كلام سعد :

– على العكس يا صديقي أنا لم أعرف النوم إلّا بعد معرفتي بمرضي عند تحليلي المفاجئ في البنك للمرة الأولى

– هل تريد اقناعي أنك سعيدٌ بمرضك مثلاً !

أو أنك لا تود أن تكون معافىً كأي انسان طبيعي على هذه الأرض ؟

– بالتأكيد لا.. من منا لا يريد الشفاء والمعافاة..!

الصحة نعمة من الله يا سعد

كم تمنيت المعافاة لي ولك ولنور ولكل مريضٍ على هذه الأرض

– اذاً ماذا تقصد ب على العكس هذه ؟

– لأنّها الحقيقة يا صديقي أنا فعلاً لم أعرف النوم إلّا بعد مرضي لقد نمت ليلتها براحة وسكينة رغم كل قلقي آنذاك إلّا أنني حينها ولأول مرة شعرت بمعنى العمر والحياة والنفس والروح والأهل والرفاق والأهم معنى الإله والحياة الأخرى.

لحظة واحدة تجرّدت فيها عن كلّ ما حولي من مفاتن الحياة وغيرها

بالأخص غروري بشبابي و زهوتي في دنياي وعمري إلّا نفسي لأعي من خلالها أنّه لا يمكن للوجود أن يوجد بدون الله. في هذه اللحظة وجدت معنى لحياتي، معنى لوجود الله وقوانينه وحكمه وتشريعه فيها.

لقد غُرر بي كثيراً يا صاحبي عندما أخبروني أن مسألة وجود الله والإيمان به تحتاج الكثير من التعب، وهي على عكس ذلك، الله منا وفينا ووجوده لابد أن نؤمن به بلحظة تفكّر صادقة واحدة مع النفس، لحظةٌ واحدة تنقلك إلى الله والعالم الأخر، وبعدها تكون مسألة معرفتك بالله التي تأتي تباعاً في كل يوم وبكلّ خطوة من خطوات عمرك، تكتشف بها وتتعرف خلالها على الله صفاته وحكمته عن قرب وتحبّه أكثر وأكثر.

لحظة معرفتي بوجود الله نمت مطمئناً رغم كل قلقي وخوفي مما عرفته عن مرضي ليلتها

- حسناً فهمتك يا محمد لكن مع ذلك لم تجبني.. ما دخل راحتك ونومك بالمرض ومعافاتك منه ؟

- أنا لم أقصد ذلك، أنا فقط أخبرك أن المرض ليس سبباً في عدم الراحة، لقد كنت معافاً منذ زمن ومع ذلك لم أنم ليلة مرتاحاً كتلك الليلة التي حدّثتك عنها.

مرضي كان سبباً بإيماني بالله ومعنى وجوده في حياتي أما عن معافاتي فأتمناها لي ولنور ولك ولكل مريض بالتأكيد وأطلبها من الله على الدوام لكن قلقي هذه المرة يا سعد حتى أنا لا أعلم سببه بالضبط لكن أظنّه بسبب نور.

أنا خائف يا صديقي لو علمت نور بقصة مرضي وتحليلي الثاني ربما تراجعت عن قرار الزواج أو لنقل إن لم تتراجع ربما ستصبح أكثر حساسية معي مما يؤدي إلى تراجع صحتها لا قدّر الله أنت تعلم كم هي حساسة.

وربما قلقي يأتي خوفاً من فكرة عودتي إلى محمد القديم، أنا بشر في النهاية يا سعد ولا أعلم ما الذي يمكن أن يحصل لو أن صحتي عادت لي !

– أمّا عن صحتك فأنا متأكد أن من يدخل الايمان بالله إلى قلبه بصدق كصدقك مع نفسك يستحيل أن يخرج يا عزيزي ومن أجل نور لا تفكّر كثيراً ولا داعي للقلق أصلاً، الموضوع بسيط يا محمد فقط لا تخبرها بشيء، ابقى كما أنت مريض بالايدز حتى وإن كنت لست مريضاً، ابقى بنظرها مريض مثلها ودعها تعيش الباقي من عمرها وهي سعيدة بوجودك معها وحالك كحالها وليبقى المرض بل مرضكما سرّاً نوعاً ما أمام عائلتكما أنتما الاثنين أعتقد أن عائلة نور لا تعرف بمرض ابنتهم وعائلتك أيضاً لا يعلمون شيئاً وهذا جيد لكما أنتما الاثنين، شقيق نور لم يهتم كثيراً بتفاصيل زواج شقيقته وأنت تعلم ذلك وما يعرفه هو أنك مريض كأخته لا أكثر فلا شيء يستدعي القلق يا صديقي.

– يا رب أتمنى ذلك وما أتمناه أكثر من ذلك هو الشفاء القريب لنور

– والله إنك تبالغ بالقلق الذي يجب أن يكون فرحاً يا محمد

– ربما

– اذهب الآن وكلّم نور فقد أرسلت لي البارحة أكثر من رسالة تسألني عنك كانت قلقة بشأنك لعلك لم تكلمها البارحة حتى باتت قلقة هكذا

- نعم صحيح لكني لم أستطع شعرت وكأني مجرم أمامها

- وهل الاجرام هو معافاتك من المرض ؟

- ربما تمنيت الشفاء لها أكثر مني.. أوّد أن أعطيها روحي

- يا صديقي منذ قليل أخبرتني عن ايمانك بالله والمؤمن بالله يعلم أن الأعمار بيده، ربما ستموت قبلها ولو كنت معافىً من المرض أليس كذلك !

- ربما

- ربما ربما آهٍ منك ومن صداقة شخصٍ مثلك

ضحكا معاً ومشيا إلى أن وصل كل منهما غرفته. كلام سعد مع محمد أراحه كثيراً وكان سبباً لاستسلامه للنوم مباشرةً براحةٍ وسلام فجر ذلك اليوم.

يوم الغد..

أفاقت نور على صوت رنين هاتفها الذي لم تفلته على الاطلاق منذ ليلة البارحة، لم تنم إلّا بعد تعب طويلٍ من التفكير، ظهر رقم محمد (my soul) على هاتفها. نهضت من فراًشها مسًرعة وكأنّها قد استلمت خبر شفاءها من المرض مثلاً :

– محمد أين أنت ؟

– حبيبتي أنا أسف صدقيني لم أكن أقصد ولكن كنت متعباً قليلاً

– لا تتأسف يا عزيزي المهم أنك بخير ؟!

– لا لا أنا بخير بخير والحمد لله لا تقلقِ أبداً فصحتي تمام التمام لكنّي كنت بحال كآبة أعتقد ذلك

– كئيب وأنا معك !

إن كنت كئيباً بوجودي معك فهذا يعني أنّك لست سعيداً معي أليس كذلك ؟

أنا السبب في كآبتك ؟ ربما تسببت بضيقك لأمرٍ ما دون أن أقصد !

ضحك محمد من أسلوبها الطفولي بوصفها لنفسها أنها المتسببة بحالته.

" آه كم أنت طفلة مجنونة لو أنك تعلمين أنك سبب سعادتي، سبب كل شيء جميل في حياتي لما كنت قلت ما قلته، وكيف يأتي سوءٌ منك وأنت نور ! "

أسرّ ذلك في نفسه ثم قال لنور التي مازالت تنتظر اجابته بخوف وكأنها أذنبت بحقه وتنتظر البراءة :

– يا حبيبتي بالعكس أنت سرّ سعادتي

– اذاً لست أنا السبب !

– بالتأكيد لا

– وما هو سبب ضيقك البارحة ؟

– صدقيني لا يوجد أيّ سبب محدد فقط شعرت ببعض الضيق ونمت طويلاً

– الحمد لله

– حبيبتي حماك الله لي

– اشتقت إليك وكأنك غبت عني دهراً

– لهذه الدرجة ؟

– نعم نعم وأكثر

– وأنا أيضاً أكثر وأكثر

– هل استلمت التحاليل البارحة ؟

– لا لا لم أستلم ألم أخبرك ؟

– لا

– لقد أجلّ الطبيب الموعد إلى الغد لذا فقلت لا داعي للذهاب لأخذ

التحاليل

– ولكن ألم تذهب مع سعد البارحة لاستلام نتائج التحاليل ؟ لقد أخبرتني ذلك قبل أن تذهب

– نعم ذهبنا على أساس التوجّه إلى المخبر واستلام النتائج لكن في الطريق اتصل الطبيب واعتذر عن الموعد وكعادته سعد لم يتردد في أخذي إلى مطعم قريب لتجربة الأكل المصري

– سامحك الله يا محمد لما لم تخبرني ؟

– سامحيني يا صغيرتي لا أدري لما نسيت إخبارك بذلك

– سامحتك هذه المرة لكن أرجوك لا تكرر ذلك، كنت سأجن البارحة

– أنا أسف

– لا تعتذر يكفيني أنك بخير

وهل أعجبك الأكل المصري ؟

– أهٍ يا نور اظنّ كآبتي مما أكلت البارحة وعلى ذوق السيد سعد

ضحكت نور من طريقة محمد بوصف حالته بعد الأكل بطريقة مضحكة لقد تقصّد اضحاكها بذلك لتخفيف التوتر الذي كاد أن يبدو عليه بسبب كذبه ومحاولة تغطية ما حدث بالضبط بينه وبين سعد البارحة :

– لما لم يعجبك يا محمد ؟

الطعام المصري لذيذ وأنا أحببته جداً

- اذاً لم تتذوقي الفسيخ !

- وما هو الفسيخ ؟

- إنه سمك نيئ يا عزيزتي

- ماذا ؟

- تخيلي !

- آه يحق لك أن تكتئب اذاً.. وكيف أكلتها أصلاً ؟

- لا أعلم إنّه سعد الشرير بطبعه هو من أجبرني

ضحكا نور ومحمد كثيراً حتى أنهيا مكالمتها واتفقا على اللقاء في الغداء والأكل معاً أكلاً سورياً بحسب رغبة محمد. كانت تمثلية مضحكة منه مراعاة لمشاعر نور ولإخفاء ما يمكن اخفاؤه بالكذب الذي لم يحترفه يوماً.

هرب من الحقيقة باختلاق تمثيلية لم يؤلفها إلا عند مكالمته مع نور، لكن ماذا لو أنّ نور سألت سعد عن ذلك الفسيخ الذي أطعمه لمحمد ليلة البارحة!

سوريا..

وكما كان الاتفاق جاءت عائلة أسامة لمنزل زينب لطلب يدها من والديها رسمياً، جاءت الموافقة المبدئية من الوالدين بعد أن تقابلا مع الشاب الذي يعرفونه منذ زمن كونه صديق محمد الأقرب وتربط العائلتان صداقة قديمة كونهما ينحدران من حيّ واحد، كل ما يمكن أن تعرفه عائلة محمد عن أسامة أنّه شابٌ طيب ذو خلق وأدب كما كانوا يرونه على الدوام وهكذا ما كان يبدو عليه محمد أيضاً بالنسبة لكلّ من حوله، أسامة درس مع محمد في الكليّة نفسها ولم يكن هناك أيّ داعٍ للبحث عن عمل طالما أن والده كان مالكاً لشركةٍ تجارية صغيرة قام أسامةً باستلام ادارتها بعد تخرجه وهكذا فإن أسامة لا ينقصه إلّا الزواج الآن وهو مؤهلٌ لذلك من كل النواحي.

بعد أن غادرت عائلة أسامة منزل محمد، أبدت زينب ووالديها ارتياحهم للطلب وبدت الموافقة على وجوههم، جلست أم محمد مع زوجها في غرفة الجلوس يتحدثان في الموضوع بينما زينب انشغلت بنفسها والترتيب :

– ها يا أم محمد ما رأيك ؟

– والله أنا سعيدة بأسامة وأهله ما شاء الله مضى وقتاً طويلاً لم أره لا هو ولا عائلته بعد أن غادروا الحي، لقد أصبح أكثر هيبة ووسامة حتى. والديه طيبان جداً عائلة محترمة والله، يكفي أننا نعرفهم منذ زمن.

– الحمد لله لكن يا أم محمد أنت تعرفي أن ولدك الأكبر وهو صديقه

الأقرب ملحد لا يؤمن بالله وهذا أمرٌ مقلق

– لا لقد استفسرت عن الموضوع وما عرفته انّه غير ملحد

– علينا معرفة ذلك من محمد، محمد بغض النظر عن أي شيء يعرف شقيقته تماماً ويحبها كثيراً ولن يرضى لها بزواج غير مناسب بالنسبة لشخصيتها هي كزينب حتى وإن كان من صديقه الأقرب

– محمد! آهٍ من محمد.. يجدر به ان يردّ على مكالماتنا أولاً حتى يأتي الباقي

– أين زينب ؟ دعيها تطلبه الآن لنكلمه

مصر..

في هذه الأثناء كان محمد برفقة نور أمام الشاطئ كعادتهما، اتفق كلّ منهما على تحديد يوم الزفاف. اتفقوا على الغد، لن يكون زفاف كبير اتفقوا على احتفال عشاء في المطعم كما في المرة السابقة عند عقد القران تقريباً وبرفقة الأشخاص نفسهم، أما ما لم تتخلى عنه نور على رأي والدتها هو الفستان الأبيض الذي تعهد أخاها طارق بتأمينه كهدية لشقيقته الصغيرة في يوم زفافها كما وعدها في المرة الأخيرة عندما تحدثا معاً وتشاجرا في البداية ووعدها أخيراً بهدية زفاف تستحقها.

كان طارق قد أرسل لها مجلداً بأحدث موديلات فساتين الأعراس ولم يكن عليها إلا اختيار ما يعجبها من بينهم، أخذت نور وقتها باختيار الفستان فلطالما أحبّت تلك الفساتين وتمنت ارتداء أحدها كأيّ فتاة، كان لابد من بعد الاختيار أخذ رأي محمد الذي لم يأبه إلّا لإعجابها بذلك الفستان و تلك الفرحة التي تخرج من عينيها.

أوصل محمد نور إلى غرفتها وذهب إلى غرفته لطلب أخته زينب مباشرةً بعد أن رأى منها عدة مكالمات، كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر والنصف ليلاً :

- أهلاً محمد وأخيراً ؟

- حبيبتي زينب اشتقت إليك

- وأنا أيضاً اشتقت كثيراً، أين أنت مختفٍ كل هذا الوقت ؟

ماذا تفعل أخبرني ؟

- لا شيء يا عزيزتي وربما كل شيء

- ماذا تقصد ؟

- ستفاجئين عندما ترينني يا زينب

- لم أفهم، أنت تقلقني عليك.. أصبحتُ كوالديك وضعك يقلقني فعلاً، " وأنت تضحك ولا على بالك "

- زينب ما قصة قلق والديك ؟

- لا أعلم ولكنهم قلقين بسببك وأظنّك يجب أن تكلمهم الآن.. لحظة دعني أخبرهم أنك على الخط

- لا زينب سأكلمهم في الغد. ممكن ؟

- لا الآن عليك أن تطمئنهم عنك يا محمد حرامٌ عليك

- حسناً لكن أريد أن أخبرك شيئاً في البداية

- ماذا ؟

- غداً هو يوم زفافي

- نعم ؟!

- أجل سأتزوج غداً

- محمد ليس الآن وقت مزاح

– حبيبتي أنا لا أمزح أنا فعلاً سأتزوج في الغد، لم أكن أنوي اخبار أيّ أحدٍ منكم لكن أشعر أني بحاجة اخبار أحدٍ ما من بينكم بهذا الخبر

– ولما تريد أن تخبر أحدنا قبل يومٍ فقط !

– ربما لأني سعيد وأردت مشاركة السعادة بينكم لكن لا أودّ اخبار والديك الآن فلم يبقى أمامي سواك

– هكذا اذاً؟

أخبرني ما قصة هذه الزواج لا أدري لما أشعر بمكيدةٍ ما

– صدقيني يا زينب سأتزوج غداً من فتاةٍ رائعة اسمها نور

– نور نفسها موظفة البنك ؟!

– وهل أخبرتك عنها مسبقاً ؟

– نعم مرةً واحدة فقط وعند عودتي بالسؤال عنها أجبتني أنها تركت العمل وأنك لم تعد تراها

– لقد نسيت تماماً.. هي ذاتها نور بالفعل

– ولما تتزوجان في الخارج يا محمد ؟

هل أنتم هاربين من أحدٍ كأهل العروس مثلاً؟

– كيف خطر لك هذا ؟

– لأنه لا مبرر لسفرك الفجائي وقلقك الفترة الماضية وحتى الزواج في الخارج

- أضحكتني يا زينب وقد أعجبني تفسيرك الغني فعلاً

- وهل هو التفسير الصحيح أم أنني فشلت في التخمين والتفسير ؟

- للأسف فشلتي أيتها الصغيرة

- وما الحقيقة ؟

- الحقيقة أن يوم غد هو يوم زفافي وحسب

- أخبرني يا محمد

- صدقيني يا زينب لا أعتقد أني أستطيع اخبارك بشيءٍ أكثر من هذا، هكذا الله شاء

- أهلك لن يمانعوا زواجك على العكس أنت تعلم أن أمك كانت تخطط لذلك، فلما تتصرف بتلك الطريقة وتتزوج من غير علمهم ؟!

- أنا أريد أن أخبرهم ولكن سأدخل في نقاشات أكبر من تلك التي أناقشها معك.

أما معك فأنا قادرٌ على قول ما يريحني ويناسبني ولكن مع والداك سيصعب الأمر يا زينب لذلك قدّري ذلك يا عزيزتي

- أنا سأقدّر بالتأكيد ولكن أمك وأباك سيصعب عليهما ذلك بل ربما سيتحول الأمر لكارثة، لا أدري ما الذي يمكن أن يحدث لو علما يا محمد

- لا أعلم يا زينب لكن هذا ما شاء الله أولاً ثم ما استطعت إليه ثانياً

- الله.. ومنذ متى تؤمن بما شاء الله يا أخي ؟

- منذ ذلك اليوم الذي رأيتني به أصلي فجراً، أتذكرين ؟

- كنت تعلم اذاً أنّي رأيتك

- وهل تشكّ بخباثة أخاك ؟ (قالها مداعباً زينباً ومحاولاً اخراجها من حالة الاعتراض على ما سيقدم عليه بزواجه)

عزيزتي زينب لا تقلقي سيكون القادم أفضل بعون الله وسأشرح لكم كل ما جرى عند عودتي لا تقلقي أما والداك فهما طيبان وسيتقبلان ما سأقوم به غداً عند عودتي

- ستتزوجان بدون حفلة عرسٍ أيضاً ؟

- نعم يا صغيرة لكنٍ ستكون هناك حفلة عشاء بين أصدقاءنا هناك وستلبس نور فستاناً جميلاً على حسب رأيها

- اذاً هناك حفلة

- لا لا صدقيني هو فقط اجتماع للأصدقاء لإشهار زواجنا هناك

- وماذا سأقول لوالداك ؟

- أخبريهم ما شئتِ إلا عن زواجي

- حسناً لكن عليك أن تكلمهم في موضوعٍ ضروري الآن

- خيراً إن شاء الله ؟

- لا أعلم عليك أن تكلمهم

- كأنه أمرٌ يخصّك أم ماذا ؟

– بصراحة نعم، إنّه أسامة لقد طلبني اليوم من والديك ولن أخفيك يا أخي فأنا لا أخفي عنك شيئاً، تقابلت مع أسامة لأكثر من مرة وأنت تحديداً كنت سبباً لهذا اللقاء بيننا، لقد كان قلقاً عليك كما نحن خاصةً أنّك سافرت دون وداعه هو والأصدقاء وأنت لم تكن تجيبه وقد..

– من تقصدين بأسامة ؟؟؟

– ما بك محمد قاطعتني عن الكلام بتلك الطريق،، أسامة صديقك، أصبحت لا تعرفه الآن ؟

– زينب، أسامة زيدان صديقي قد خطبك حقاً؟

– نعم و...

– منذ متى ؟

– ما بك تقاطعني مراراً وبهذا التوتر !

– منذ متى؟

– اليوم هذه الليلة قد جاء مع أهله لخطبتي وأهلك لم يعطوهم أي رد حتى يخبروك ويأخذوا رأيك بذلك ولكن لن أخفيك يا أخي أنّي مرتاحة جداً للموضوع وأسامة شاب م....

– اسكتي زينب الآن سأكلمك لاحقاً

– لكن ماذا عن والداك ينتظران مكالمتك بالموضوع نفسه وأخذ رأيك به

– انسي الموضوع يا زينب وسأكلمكم لاحقاً

– ووالداك ماذا سأقول لهم

- أخبريهم أن ينتظروني غداً سأكلمهم بالموضوع

- حسناً، كنت سأقول لك مبروك على الزواج لكنك لم تعلّق على موضوع خطبتي ولم تبارك لي أيضاً

- زينب أرجوك أنا متعب وأسامة ليس أهلاً للزواج الآن

- ماذا تقصد ؟ لقد أخبرني أنّه....

- زينب أنا متعب الآن أتريدبن منّي أيّ شيء !

غداً أكلمكم.. إلى اللقاء

- حسناً إلى اللقاء

أغلق مكالمته مع زينب و ذهب على الفور بإصبعه على شاشة الهاتف حيث اسم أسامة ظهر على شاشته من بين قائمة الأسماء لديه، طلبه فوراً وما أن رن قليلاً حتى أجاب أسامة بسرعة فلطالما انتظر مكالمته في الآونة الأخيرة بل تمناها.

- محمد أخيراً، اشتقت إليك كثيراً يا صديقي

- أسامة ابتعد عن زينب، زينب لا تناسبك، أرجوك إلّا زينب أرجوك

- ما بك محمد، هل تراني سيء لهذه الدرجة يا صديقي !

زينب فتاة استثنائية يصعب الفوز بزوجةٍ مثلها، صدقني يا محمد انه بمجرد ارتباطي بزينب سأبتعد كلياً عن أيّ شيءٍ سيسيء لها ولي ولمشروع الأسرة الذي سيكون بيننا.

هل تذكر يا محمد عندما تكلّمنا عن الزواج منذ مدة حيث كنّا نتناول

الغداء في مطعم الشرق، ألا تذكر استهزاءك بي عندما حدّثتك أنّي أفكّر بالزواج والاستقرار وتأسيس عائلة وأطفال والابتعاد عن كلّ ما نفعل من محرّمات والالتزام ب...

- أسامة أنا أعتذر لك سامحني أرجوك

- ما بك ؟

- هل تعلم يا أسامة لما سافرت بشكلٍ مفاجئ هكذا ؟

- لا أعلم

- أنا مصابٌ بالايدز

- نعم ؟

- نعم الايدز يا أسامة، وربما أنت أيضاً وبشير والآخرين، أنت تعلم تماماً ما الذي كنّا نفعله

- الايدز ؟؟ ولما لم تخبرني يا محمد ؟! كيف لك أن تسافر وتتركني دون أن تخبرني بذلك المصاب ؟!

- أعلم أنني كنت أناني لكني كنت مغيّباً عن كل ما حولي أيضاً في تلك اللحظة

- وتركتني دون أن تخبرني ولا تخبر أحداً بأمر مرضك !

ألم تفكّر ما الذي سيحدث لو أن أحد فينا على الأقل فكّر بالزواج كما حدث لي الآن ومع من !

مع شقيقتك يا محمد

- ربما كان انذاراً من الله

- الله !

- نعم الله، أنا الآن أختلف عن السابق وأنت أيضاً بإمكانك ذلك

- نعم أصبحت مختلف فعلاً، أصبحت مريضاً بالايدز

- اهدأ أسامة أرجوك ربما لست مصاباً مثلي عليك اجراء تحليل

- أنت مصاب وأنا لا يا محمد ؟

من الصعب حدوث ذلك

- ربما لن تكون مصاباً لا أدري، لكن مع ذلك أرجوك ابتعد عن زينب

- أنت أرجوك أغلق هاتفك واتركني

- وزينب ؟؟

- اطمأن لست بتلك النذالة حتّى أكون سبباً في ضرر فتاة كزينب، لكن أرجو منك عدم اخبارها بحقيقة المرض، لن تتحمل صدمةً كهذه لا عنك ولا عنّي

سأنسحب من الموضوع وكأنّه لم يكن، اطمأن أيها الصديق العزيز حتى وإن لم أكن مصاباً سأبتعد عنها لا لشيء إلّا لأنني تذكرت أنّي كنت صديقاً لشخص مثلك لا يمكن أن تتذكر من خلاله سوى القذارة التي بداخلك، تلك القَذارة التي حملتها وعشتها مع يوماً يستحيل أن تناسب فتاة رائعة كزينب، سأنسحب من الموضوع لا تقلق إلى اللقاء أيها الصديق العزيز.

قالها أسامة باستهزاء وأغلق الهاتف والدموع تملئ عينيه ، والدهشة

والاستغراب يملأ عقله، الايدز اذا ما دخل جسد محمد لابد له أن يدخل جسده وهو طالما كان شريكه في كل تفاصيل حياته.

محمد كان يدرك ذلك فعلاً ورغم أن نتائج تحليله الجديدة كانت مختلفة عن الأولى إلّا أن فكرة وجود فيروس كالإيدز في جسده أو جسد أسامة كانت لابد أن تراوده هذه الأيام، ومن الصعب عليه تقبّل فكرة زواج شابٍ كأسامة بأخته زينب بعد كل ما جرى له إلى الآن.

لم يستوعب أن تعود ذاكرته حيث أسامة لا بل تتجدد إن حدث وارتبط بشقيقته بعد أن تقصّد الهرب عنه وعن الشلة وعن كل ما كان يعيشه معهم فيما مضى.

كان من الصعب على محمد أن يتخيّل مجرد تخيل وجود أسامة في حياته من جديد بل أن يكون مرتبطاً باسم رقيقٍ كاسم زينب.

جلس محمد في غرفته وحيداً قلقاً بشأن أسامة وأخته، أخذ يتذكر أيامه مع أسامة والشلة بكل تفاصيلها، كاد أن ينسى أنّه غداً سيزف على نور ويكون يوم زفافه لولا رنين هاتفه اليومي من نور هذه الليلة كما كلّ ليلة.

سوريا

لم يستطع أسامة النوم هذه الليلة دون أن ينهي موضوعه مع زينب وهو بكامل انفعاله وقلقه بسبب ما قاله محمد، لم يكن من السهل على أسامة استيعاب كل ما سمعه من صديقه الأقرب هذا اليوم، المرض، انفعال محمد الشديد منه، تحطّم حلمه بالزواج من زينب وحتى حلمه ببدايةٍ جديدة تليق به أيضاً قد حطّمه محمد هذه الليلة.

أكثر ما كان يتعب أسامة في هذه اللحظات كان تفكيره بزينب لذا أمسك هاتفه مجدداً بعد أن رماه على المكتب فور انتهاء حديثه مع محمد وجلس على الكرسي المقابل له ثم طلب زينب وبدا صوته مرتجفاً، كانت الساعة قد تخطّت الثانية بعد منتصف الليل :

- ألو

- زينب كيف حال ؟

- خير يارب ! ماذا حدث يا أسامة ما بك ؟

- لا لا تقلقِ

زينب أنا أسف لكن يجب أن تنسي الأمر

- أيّ أمر

- أمرنا

- أمرنا ؟! تقصد موضوع الخطبة ؟

- نعم

- هل تكلمت مع محمد ؟

- لما تسألين

- لا أعلم لكني كلّمت محمد منذ قليل وعندما أخبرته بموضوع خطبتك لي أصبح غريباً وبدا على صوته التوتر ثم أغلق مكالمته معي بسرعة، توقعت أنّه سيكلمك، لكن لا أعلم ما سبب توتره هذا، ماذا حدث يا أسامة ؟! تكلمت مع أخي أليس كذلك ؟ ماذا حدث وما الذي يجري بينكم ؟

- لا شيء اطمئني، زينب أرجوك سامحيني وحسب أنا أعتذر لك يبدو أنّي لست جاهزاً للزواج الآن

- ولما تتصل في هذه الساعة لتخبرني باكتشافك لعدم جاهزيتك للزواج ! ألهذه الدرجة تفاجئت باكتشافك هذا؟

- من حقك الاستهزاء يا زينب لكن تذكّري أنّي لم أقصد إلّا الخير وما جرى لم يكن بيدي، كان خارج ارادتي و ارادة أيٍّ كان، صدقيني أرجوكِ

- وماذا تريد الآن ؟

- لا شيء أنا فقط أعتذر وأتمنى أن تسامحيني

- من يجب أن تعتذر لهم هم والداي، أنا لست مهتمة في هذا الموضوع من البداية

- زينب أنت تعلمين أنك تسطعين انقاذي من هذا الموقف

- تريدني أن أرفض الارتباط بك أمامهم !

- .....

- لا تصمت، لا يمكن لك ان تخجل من شيء ليس بيدك، ألم تخبرني ذلك منذ قليل؟

- لا أريد شيئاً، من حقك أن تكلميني بهذه الطريقة، لكن يكفي أرجوك

- .....

- جاء دورك بالصمت الآن، أم أنك تبكين أم ماذا ؟

- لا شيء.. أريد أن أنام

- حسناً

- بالنسبة لموضوعنا اطمئن أنا لا أفكر بالزواج الآن وسأخبر والداي بذلك. وأرجو منك عدم الاتصال مرةً أخرى..مع السلامة

أغلقت زينب هاتفها ومازال أسامة ماسكاً هاتفه النقال منتظراً ربما معاودة الاتصال أو استكمال المكالمة لكن بطريقةٍ أخرى لكن هذا لن يحدث على الاطلاق.

ترك هاتفه وأخذ يفكّر الآن كيف له أن يتأكد وجود فيروس الايدز في جسده، ربما وجد أنّه عليه الذهاب إلى مخبر لا أحد يعرفه به ولا ضير من استخدام اسم غير اسمه مثلاً عند اجراءه الّتحليل لديهم، كان أسامة يفكّر بأفراد الشلة أيضاً، عليه أن يخبرهم في الغد عن حقيقة مرض محمد وعن ضرورة اجراء كلٍّ منهم التحليل للكشف عن فيروس الايدز في أجسامهم،

غداً سيكون طويلاً يا أسامة مع كل تلك الأفكار التي تملأ رأسك.

أمّا زينب فقد نامت والدموع تملأ عينها رغم أنّها لم تود التفكير الطويل في الموضوع فلم تجد ما ينبغي التفكير به بعد ما سمعته من أسامة، توكلّت على الله وحمدته رغم دموعه لكنّها لم تجد بشيءٍ يأتي من الله سوى الخير والخير فقط.

مصر..يوم الزفاف..

صباح هذا اليوم لم يتأخر محمد عن الاتصال بعائلته منذ الساعات الأولى، كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف عندما طلب شقيقته زينب عبر الهاتف، رن هاتفها طويلاً ثم أجابت بتثاقل كأنها في لحظات استيقاظها الأولى :

– صباح الخير

– أهلا، وما بك أنت أيضاً منذ الصباح ؟

– لما أنا أيضا ؟ هل هناك أمرٌ ما ؟ لما تكلمينني بهذه الطريقة ؟!

– لا شيء لاشيء، استيقظت للتو فقط

– حسناً أردت التحدّث معك من أجل موضوع خطبتك بأسامة فالبارحة كنت........

– أنا لا أريد الزواج، أعتذر لمقاطعتك ولكن لا داعي للحديث في الموضوع أكثر من ذلك، أنا لا أريد الزواج الآن أو لنقل أنني حتى إن فكّرت بالارتباط الآن لن يكون بأسامة بالتأكيد

– وكيف حدث ذلك ! البارحة أخبرتني أنك مرتاحة له وبدوت سعيدة

– لقد فكرت طويلاً خاصةً بعد حديثي معك البارحة، أنا كنت مترددة في البداية وقد حسمت أمري ليلة البارحة ولا أريد الارتباط، وأرجو أن لا

نتكلم أكثر في الموضوع.

أليس اليوم هو يوم زفافك ؟

– نعم هو يوم زفافي. لكن ماذا عن والديك أخبرتهم بقرارك ؟

– لا، كنت سأطلب منك مساعدتي بإخبارهم قراري خاصةً انهم أبدوا موافقة وارتياح لموضوع الارتباط البارحة

– حسناً لا تقلق، أعطيني والديك لأكلمهما بالموضوع الآن

– وماذا عن زواجك ألن تخبرهم

– لا اطلاقاً كما كنّا اتفقنا سابقاً

– حسناً، ابق معي على الخط حتى أعطي الهاتف لوالديك، فأنا مازلت في غرفتي وأظنهم في الصالة الآن يشربون القهوة سوياً كعادتهم

أنهى محمد مكالمته مع العائلة بعد أن أكدّ لهم ضرورة رفض خطوبة زينب من أسامة احتراماً لقرارها بعدم الموافقة.

وهكذا انتهى موضوع زينب وأسامة بالنسبة لمحمد على الأقل.

أصبحت الساعة الواحدة ظهراً الآن، ذهب محمد برفقة سعد إلى أحد المطاعم بعد خروجهما من أحد محلّات الحلاقة القريبة من المنتجع، سعد بدا متحمساً أكثر من محمد يوم زفافه :

– محمد هل نسيت نتائج التحاليل أم ماذا ؟

لقد اتصل بي الطبيب الذي من المفروض أن يتابع حالتك البارحة وسألني عنك، كنت قد أخبرته أن نتائج التحاليل كانت جيدة بل ممتازة وأنه

لا وجود لفيروس الايدز في جسدك على الاطلاق وأنك أعدت التحاليل في مخبر أخر وتنتظر النتائج وهو أيضاً ينتظرك

- لا أدري لقد نسيتها تماماً

- ونور ؟

ألم تسألك عنها وعن لقاء الطبيب والإرشادات التي من الواجب أخذها قبل الزواج ؟

- لا أعلم، نور في عالم أخر، مع فستان زفافها ويوم الزفاف الذي من المفترض بحسب رأيها أنّه ليس مهماً، لكنّي أراها الآن لا تهتم إلّا به، قد أخذ كلّ وقتها

- دعك من نور، نور منشغلة بأمرٍ مهم بلا شك

- وماذا تعرف عن هذا الأمر المهم أنت ؟

رن هاتف سعد وقطع حديث الاثنين، إنّها نور على الهاتف :

- أهلاً نور عروستنا الجميلة

- سعد هل كل شيءٍ جاهز ؟

- نعم لا تقلق أنا الآن مع محمد

- لا تخبره بشيء أريد مفاجئته

- أعلم لا تقلقِ

- الأطفال جاهزين ؟

– كلهم جاهزين وسعداء جداً وينتظرونك في الصالة الرياضية عند الساعة السادسة، ستكون معهم الممرضة رهف بانتظارك أيضاً

– لا تتكلم أمام محمد أريدها مفاجأة له

– حسناً حسناً

– أنا الآن مع سمر وتغريد لم يتركاني منذ البارحة

– خذي محمد وكلميه أعتقد أنه سيقتلنا نحن الاثنان بعد قليل

أعطى سعد الهاتف لمحمد :

– حبيبي كيف حالك اليوم ؟

– لقد تذكرت حبيبك وأخيراً ؟!

ضحكت نور لغبطة محمد العفوية والتي إن دلّت فهي لا تدّل إلّا على حبه لها

– صغيري الجميل اشتقت إليك جداً لكن هناك مفاجأة كما عرفت الآن من صديقنا سعد لكن كونها مفاجأة فلا داعي أن أخبرك عنها أليس كذلك ؟!

لتكن مفاجأة وحسب، أتمناها سعيدة لأجلك، ما رأيك ؟!

– نور ألست أنت من أخبرتني أنّك لا تريدين حفلة أو فرح ما الذي غيّر رأيك ؟

– ومن قال أني غيّرت رأيي !

- ما الذي تحضرينه إذاً ؟!

- محمد أرجوك دعها مفاجأة

- هل تعلمين لو اجتمع مئة رجل ليفهموا امرأة واحدة فقط لن يقدروا على فهمها

- مئة أيها الشرير ؟

- لا بل ألف، بل آلاف

- إنّك تسرق وقتي بحديثك وكلماتك المضحكة دعني أكمل ما أجهزه وإلّا استمرينا هكذا حتى الغد ، حديثك لا يمل حبيبي

- آهٍ منك، اذهبي

- بدون دعاءٍ مثلاً ؟!

- حماك الله لي وانتبهي إلى نفسك أرجوك

- إلى اللقاء

أغلق محمد الهاتف مع نور وأعطاه لسعد ثم أكمل حديثه معه وكأن شيءً لم يكن، أي وكأن نور لم تتكلّم، لم يشأ محمد تخريب مفاجأة نور حتى لا يسرق منها تلك السعادة والفرح الذي يغمرها وبدا واضحاً في صوتها وحديثها، رغم أنّه يستطيع معرفة ما تخفيه عنه لو أراد ذلك عن طريق الالحاح على سعد بل ربما من دون الحاح يستطيع أخذ ما يريد من سعد الذي لا يستطيع اخفاء شيء عنه خاصةً أنّه يحب الكلام كثيراً.

- ماذا قالت لك نور يا محمد ؟

- لم تقل شيء، دعك منها الآن، أنا جائع لم أتناول فطوري اليوم
- حسناً سأطلب طعام لي ولك حالاً وأنا أيضاً جائع
- أنت جائعُ على الدوام يا صديقي

صالة الرياضة..

الساعة تشير إلى السادسة مساءً، بدأت الصالة تعجّ بالأطفال، تقريباً ثلاثين طفلاً بل كانوا ثلاثين طفلاً بالضبط نصفهم فتيات والنصف الأخر فتيان أعمارهم بين السادسة والتاسعة لا أكثر.

هؤلاء الأطفال جاؤوا من مستشفى صغيرة قريبة من المنتجع متخصصة بأمراض السرطان للأطفال فقط، برغبة من نور قام سعد باستدعاء الأطفال عن طريق زملائه هناك.

نور لم تخطط لأي شيء بل جاءت فكرتها فجأة عندما أرسل إليها أخاها مجلداً يحوي أحدث موديلات فساتين الأعراس، اختارت احداها ولفت انتباهها فساتين أعراس للفتيات الصغيرات مرفقة بأطقم للفتيان الصغار أيضاً، عندما شاهدت هؤلاء الأطفال تذكرت الأطفال الذين كانت تراهم في مستشفى السرطان عند أخذ علاجها في سوريا. تذكرت نور تماماً تلك الطفلة الصغيرة التي جلست بقربها تنتظر جرعتها وكأنها تنتظر جرعة من الحليب بالشوكولا التي لا تحبّه ولكنها مجبرة على تناوله من أجل صحتها كما قالت لها والدتها وقد أخبرت نور ذلك بالفعل.

"

– أتعلمين يا خالة أنا أعرف أن أهلي قد أتوا بي إلى هنا لأخذ جرعة العلاج من السرطان وأعلم أيضاً أن هذا المرض خطير وسأموت قريباً لكن

عائلتي لم يخبروني الحقيقة، يروني صغيرة على فهم مثل هذا المرض أو على فهم الموت، وربما لا يريدون أن أحزن فأنا صغيرة والصغار لا يحزنون أليس كذلك يا خالة ؟

– معك حق يا صغيرتي

– وأنت مريضة أيضاً ؟

– نعم

– وهل أخفوا أهلك عنك الحقيقة أيضاً ؟

– أنا لست صغيرة لذلك أنا من أخفيت الحقيقة عنهم

– أنا أيضاً لم أخبرهم الحقيقة

– حقيقة ماذا ؟

– حقيقة أني أعلم بمرضي،إنني أخفي عنهم ذلك.

أنا بارعة في التمثيل إنني أتظاهر بأني لا أتوجع كثيراً من الجرعة من أجل ماما، لا أريدها أن تبكي وتبدأ بالتبرير واختلاق الحكايات لي لتفسير بكائها.

أنا لست حزينة من أجل مرضي فهو ليس بيدي ليس إلّا قدري من الله ولا أخاف الموت فماما أخبرتني أن الله يحب الأطفال

– صحيح كلام أمك صحيح

– أتمنى أن لا أموت قبل حفل زفاف خالتي سلمى

– لا تقولي ذلك يا صغيرة ستشفين بإذن الله وستحتفلين بزفاف خالتك

سلمى وستقومين بعزيمتي أيضاً

– أحب خالتي سلمى جداً لقد اشترت لي فستاناً أبيضاً كفستانها وعلّقت عليه فراشات صغيرة ملونة بزهر شفاف.. تمنيت ارتداؤه كل يوم حتى أمّي قالت لي أنّه بإمكاني لبسه في أي وقت أردت. هي قالت لي ذلك بعد علمها بمرضي مع أنها قبل أن تعلم كانت تعنفني قليلاً لو أنني لمسته فقط مجرد لمس أما الآن فهي تخاف موتي فجأة لذلك سمحت لي بلبسه في أي وقت

– حبيبتي لم تخبريني باسمك

– أنا نور

ثم جاءت والدتها واصطحبتها معتذرة من نور على اعتنائها بابنتها الصغيرة إلى حين عودتها من غرفة الطبيب وذهبت مع ابنتها ولم ترى نور الكبيرة نور الصغيرة مرةً أخرى بعد تلك المرة، كانت تلك المرة هي الأولى والأخيرة.

لقد تخيلت تلك الطفلة مراراً بذلك الفستان الذي رأته بين موديلات فساتين الأعراس ومن هنا جاءت بالفكرة فاتصلت بسعد على الفور حينها، لم تشأ الاتصال بمحمد وأخذ رأيه بالفكرة بل فضلّت اخفاء ذلك المخطط عنه وجعله مفاجأةً لأجله، لقد كانت متأكدة من فرحة محمد بمثل تلك الفكرة.

فرحة كبيرة عند رؤية أطفال صغار يبحثون الفرح بين أسرّة المستشفيات ليجدونه بلبس فستان أبيض للعروس وبدلةٍ يرتديها العريس، ذلك اللباس لا يمكن أن يأتي إلّا بالفرحً، ذلك اللباس هو الوحيد الذي يجعل من أبسط

الاحتفالات فرحاً كبيراً صادقاً من القلب وفي القلب إن كان قلب طفل أو قلب راشد كبير.

اتصلت نور حينئذ بسعد على الفور وطلبت منه أن يكون المدعوين لزفافها مع محمد هم الأطفال تحديداً مريضي السرطان منهم. وطلبت من أخيها طارق تجهيز فساتين وبدلات للأطفال إلى جانب فستانها وبدلة محمد بالعدد الذي أكد لها سعد حضورهم من مستشفى السرطان القريب منهم.

كانت تلك هدية طارق لها.

اجتمع جميع الأطفال والممرضة رهف المسئولة عنهم بالصالة، كانت نور باستقبالهم مع سمر وتغريد وبعض موظفات وموظفين الصالة الرياضية في المنتجع، السعادة بدت على وجه نور في أقصى درجاتها وهي تستقبل الأطفال:

– أنا نور اليوم هو عرسي وأردت الاحتفال مع من أحب وأنتم من أحب. أنتم مدعوين للاحتفال اليوم بزفافي فهل أنتم موافقين ؟

الأطفال جميعهم أجابوا بصوت واحدٍ نعم وبضجةٍ كبيرة من الفرح والمرح في الصالة، ثم بدأت أسئلة الأطفال تتوالى على نورٍ وكأنها صديقتهم منذ زمن :

قالت لها احداهن :

– هل سنرتدي ملابسنا هذه في الحفلة !

أراها غير مناسبة

– لا يا صغيرتي سترتدين فستاناً أبيضاً كأنك العروس

- جميل أنا سعيدة

وسأل أخر :

- سيكون هناك قالبٌ من الكيك بالتأكيد أليس كذلك :

- أجل وسنتشارك سوياً بعمل كعكات أيضاً إلى جانب القالب المتواضع سيقوم بعمله عمو أبو سامح شيف المطعم هنا

وصبيٌّ أخر كان أكبرهم وأكثرهم انتباهاً وذكاءً.. الأطفال لا يقلون ذكاءً عن الكبار أيضاً :

- ولما نحن المدعوين دون غيرنا ؟

نور بعد محادثتها مع نور الصغيرة أصبحت تعلم مدى ذكاء وشدة انتباه الأطفال مهما كانوا صغاراً وهي تعرف أن هؤلاء الأطفال لا يقلّون ذكاءً عن نور الصغيرة ووجودهم في المستشفى منذ مدة يجعلهم على دراية بوضعهم كمرضى على الأقل لذلك حاولت اجابته بشفافية :

- منذ مدة تعرّفت على فتاة صغيرة في المستشفى كنت أتلقى العلاج مثلها وفي نفس القسم من المستشفى أصبحنا أنا وهي صديقتان وقد اقترحت علي فكرة حفلة الزفاف هذه برفقتكم.

وأنا أحببت تلك الفكرة جداً

- وأين هي ؟

- هي في سوريا لن تستطيع المجيء إلى هنا الآن لكنها تبلغكم تحيتها كثيراً كثيراً

- ومتى ستبدأ الحفلة ؟

- الآن إن أردتم

انطلق الأطفال جميعهم بصحبة نور والآخرين، كان محمد برفقة سعد بانتظارهم في الحديقة، حيث امتلأت الحديقة بألعاب الأطفال، قام عمال المنتجع بمساعدة عمال أحد المنتزهات بنقل العديد من ألعاب الأطفال إلى حديقة المنتجع بأمر من مدير المنتجع بعد موافقته والقائمين على المنتزه وبتدبير من سعد وتحتً اشرافه أيضاً، الفكرة طبعاً فكرة نور أمّا التنفيذ فكان من اشرًاف سعد الذي لا يصعب عليه شيئاً هنا كانت روحه جميلة والمكان الذي يدخل إليه يملكه بقلبه الكبير وروحه الجميلة وثقافته أيضاً كطبيب وقارئٍ جيد.

انطلق الأطفال للعب تحت رعاية نور والآخرين، أفاضت نور من حبها واهتمامها للأطفال وكذلك محمد الذي لم يهتم لكل ما يجرى كاهتمامه بفرح الأطفال ونور وضحكاتهم التي ملأت المكان حتى سمر وتغريد ورهف أيضاً جميعهم أصبحوا أطفالاً وسعد ومحمد وبعض عمّال المنتجع لم يفوتوا هذا المهرجان الطفولي الفريد من نوعه.

انتشر الأطفال بين الألعاب مرةً على الأرجوحة وأخرى على الميزان وأيضاً دولاب الهواء والقطار ودوامة الخيول ولم يخلو المكان من ميكي ماوس وسبايدر مان والأميرة النائمة شخصيات كرتونية قام بعض المتبرعين من عمال المنتجع بالتنكر بها لأجل الأطفال.

لم ينتشر الأطفال وحدهم بين الألعاب، كان جميع الحاضرين من نزلاء المنتجع وحتى العاملين والأهم نور ومحمد اللذان رجعا معاً إلى الطفولة

يتقاسمان اللعب بين ألعاب الحديقة كطفلين خائفين من انتهاء النهار قبل أن يتعبا من لعبهما.

امتلأ المكان بالسعادة والفرح، أصبحت الساعة تشير إلى التاسعة تماماً اجتمع الأطفال حول نور التي حاولت جمعهم عن طريق صافرة استعارتها من رهف ثم رفعت صوتها قليلاً محاولة لفت انتباه جميع الأطفال وجذبهم إليها للانتقال إلى الفعالية الأخرى وهي نفخ البوالين في الساحة التي ستزّف بها مع محمد وتنسيق الورود ونشرها في المكان على أساس ذوقهم وعفويتهم كأطفال فقط.

انطلق الأطفال في الساحة وكأنهم أوكلوا بمهمة تحرير الكوكب من الأشرار كما في برامج الأطفال الكرتونية وظفوا كل طاقاتهم وأفكارهم الجميلة في تزيين الساحة بالأزهار والورود والبوالين وما إن انتهوا حتى صوت قوي ينادي لهم لبدء تزيين الكيك، ركض الأطفال جميعهم لا حقين بنور نحو العم أبو سامح صاحب الصوت الذي ناداهم للمشاركة في تزيين قالب الحلوى وقطع الكيك الآخرى التي كانت بعدد الأطفال.

اقترب كل طفل من الطاولة الكبيرة جالساً كل واحدٍ منهم في مكانٍ خاص به وبكل طفل، أمامه إلى جانب قطعة الكيك الصغيرة كل الأدواتٍ التي ًتلزمه لتزيين كعكته تلك بالكريما وقطع الفواكه. طلبت نور من الأطفال رسم ما يحب كلّ منهم من وجوه على سطح كعكاتهم الخاصة بالإضافة إلى كتابة كل منهم حرف اسمه لمعرفة كعكته عند توزيعها على الجميع وتناولها بعد قليل.

استمتع الأطفال بالتزيين مع العم أبو سامح إلى جانب نور وبقية

الحاضرين الذي لم يتردد أيّ منهم بالمشاركة بتزيين كعكته الصغيرة.

العم أبو سامح كان مسئولاً عن تزيين كعكة العرس الأساسية والتي كانت كعكة بسيطة جداً من تحضيره هي وبقية الكعكات الصغيرة وأيضاً كانت الفكرة من تصميم نور كما بقية الأفكار الآخرى.

بعد أن انتهوا جميعاً من تزيين كعكاتهم انتقلوا معاً إلى غرفة تبديل الملابس كانت الساعة تشير إلى العاشرة وبضع دقائق. لبست نور فستانها وكذلك الأطفال لبسوا فساتينهم بالإضافة إلى محمد وارتدائه بدلته هو والأطفال الآخرين أيضاً. زيّنت الطفلات الصغيرات وجوههن بمساحيق التجميل والمكياج إلى جانب نور التي اهتمّت تغريد بأمر تزيينها إلى جانب الفتيات الصغيرات كل واحدةٍ على حسب ذوقها، واحدة أرادت روجاً أحمراً وأخرى طلبته بلونٍ وردي وظل عيون باللون نفسه أيضاً. رشّ كل منهم العطور على ملابسه وخرجن جميعهن برفقة العروس باتجاه الساحة أما العريس فانطلق مع باقي الأطفال بطلتهم المميزة نحو العروس وأخذ جميع الحاضرين بالتصفيق برفقة الأطفال. كان منظراً مهيباً بدت نور كسندريلا خارجة من إحدى قصص الأطفال الخيالية أما الأطفال فكأنهن بجعات البحيرة تحولوا بتعويذة ما إلى أمراء وأميرات لا يمكن أن نراهم إلّا في قصص الأطفال المصوّرة.

بدا فستان نور عاجي اللون كلون اللؤلؤ ذو اطلالة انثوية بفضل القصة الضيقة حول الخصر والتي تبرز نحافته تقريباً، كانت قصته تشبه القصة العمودية (A Line) الطويلة نوعاً ما وهذا ما جعل الفستان مرسوماً على خصرها، بالإضافة إلى تنورة صغيرة من Ball Gown وتطريزات يدويةٍ ناعمة

امتدت على أكمامه الطويلة وطرحة التول الناعم التي تنسدل فوق رأسها وحجابها . بدت كالأميرة مع الأميرات والأمراء الصغار حولها بالقرب من محمد.

بدأ الأطفال يغنون أغاني أفراح جميلة من التراث المصري مع جميع الحاضرين ويلتفون حول العروسين وسط الكثير من التصفيق والغناء. مرةً يغنون أغاني أطفال شعبية وأخرى أغاني أفراح أيضاً وبدأ الرقص بين الحاضرين خاصة الأطفال كونهم هم أهم المدعوين اليوم مع ميكي ماوس وغيره من الشخصيات الكرتونية الحاضرة، لقد عمّ الفرح المكان.

عندما يكون الفرح مصدره الأطفال أو يكون لأجل الأطفال فلا بد للسعادة أن تغمر قلوب كل الحاضرين، السر في عيون الأطفال وفي قلوب الكبار عندما ينظرون تلك العيون البريئة الصادقة.

وزّع العم سامح الكعكات بين الأطفال، كلّ طفل عرف أيّ كعكة هي كعكته فهو من رسم عليها حرف اسمه ووجهٍ جميل أو نجمة أو قمر وربما قلب أو زهرة. كلّ طفل علم أيّ واحدة هي كعكته وأخذها بفرح وبدأ الجميع بتناول الحلوى بعد أن قطّع العروسين كعكة فرحهم بمشاركة الأطفال تقطيع كعكاتهم أيضاً.

لم ينتهي الفرح بانتهاء هذه الحفلة بل كانت تلك الحفلة بداية لفرح لا يمكن أن ينتهي.

طالما كان فرح الأطفال مسبب لأفراح الآخرين فلا يمكن للفرح أن ينتهي.

عندما يفرح الأطفال يفتحون باباً للسعادة لا يمكن أن يُغلَق على الاطلاق.

انتقلت نور في هذه الليلة مع محمد حيث غرفته في المنتجع، حدثته حينئذ عن قصة نور الصغيرة التي قابلتها في المستشفى، حدّثته عن حبها له، حدثته عن أمنيتها في بقائها معه مدى الحياة، حدثته عن الأبدية التي تتمناها معه، كان يصغي إليها كطفلةٍ صغيرة تتحدث مع من تُحب لأنّها تعلم أنّه لا أحداً سيسمعها غيره، تلك الطفلة الذي لا تتمنى أن ينتهي حديثها وأنت تنظر إلى عينيها اللتان لا يمكن أن تكذبان أبداً وتعابيرها البريئة التي يستحيل إلّا أن تجعلك تبتسم.

وأخيراً تزوج محمد من نور وبدأا حياتهما الجديدة التي لم يتمنى كلّ منهما نهايتها أبداً هي لن تنتهي طالما هناك إيمان بالله بتلك الحياة الآخرى التي تنتظرهما وتنظرنا جميعاً.

أن تكون مؤمناً باليوم الأخر أحد أركان الايمان عليك أن تؤمن بأن الحياة الطيبة التي عشتها مع الطيبين ستستمر بشكلها الأبدي الذي شاءه الله أن يكون لنا بكل الحب والصدق والبراءة والطيبة التي سنحملها معنا إلى الأبد ولم ولن نحمل سواها، الحب عندما يبدأ يستحيل أن ينتهي، هكذا الله يشاء طالما بدأ من القلب و إلى القلب واستمر ليكون رحمة ومودة.

بعد أسبوعين من الزواج..

اتصل محمد منذ صباح هذا اليوم بالبنك وطلب منهم تمديد اجازته بعد أن تعدت الشهر كاملاً، اعترضت نور على قراره بالتمديد لكن محمد أصرّ على التمديد لعشر أيام أخرى، رأى أن بقاؤهما في مصر لمدة أطول سيحسّن من حالة نور الصحيّة كما فعل الأسبوعين الماضيين، فقد بدا التحسّن واضحاً على نور، تورّد وجهها ولم تشتكي من أي عرض كان، حتى أنّها لم تعاود طبيبها أبداً في هذه الفترة، شعرت أنّ حالتها لاً تستدعي أيّ طبيب على الاطلاق.

لم تكن تحلم نور بشيءٍ الآن سوا بطفل من محمد، نست مرضه تماماً حتى أنها لم تعد تآبه لوجوده أصلاً عندها ًأو عند محمد، ثقتها التامة بأن محمد يستحيل أن يؤذيها جعلها مطمئنة القلب مرتاحة البال ولا تجد أي مبرر لسؤاله عن حالته المرضية أو عن لقاءهم مع طبيبه الذي من المفترض أنّه تأجّل قبل حفل الزفاف وتأجل معه حديث شرح الارشادات التي من المفترض أن يتبعاها هما الاثنان إن أرادا أن يكونا كأيّ زوجين. نست نور تماماً كل هذه الأمور التي من المفترض أنّها كانت حدثت ما قبل الزواج لم تهتم لكل ذلك طالما أن محمد معها، لا داعي للقلق والتفكير بأيّ شيءٍ الآن، محمد الآن هو الأمان بالنسبة لها الذي لا يمكن أن تقلق منه.

أصبحت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف ظهراً دخل محمد الحمّام أمّا نور جلست على السرير، التلفاز يعمل على إحدى المحطات العربية وهي

تقرأ بأحد الكتب التي استعارتها من المكتبة منذ يومين، رن هاتف محمد كان اشعار وصول إحدى الرسائل على تطبيق الواتساب، صرخ محمد من الحمام حتى سُمِعَ صدى صوته :

– حبيبتي سمعت صوت وصول رسالة على هاتفي إنّه سعد بالتأكيد كنا متفقين منذ البارحة على اللقاء في هذا الوقت أظنّ أنّي تأخرت عليه ، لذا أرجوك أجيبي على رسالته وأخبريه أنّي سأنزل إليه حالاً

– إلى أين ستذهبا ؟ لم تخبرني !

– سنذهب إلى الملعب غاليتي

أمسكت نور هاتف محمد ثم فتحت الرسالة الواردة كانت من سعد فعلاً:

– أين أنت يا صديقي ؟

كتبت نور الرد كما أخبرها محمد :

– أسف على التأخير سآتي حالاً

لم تشأ نور الدخول مع سعد بأحاديث جانبية لذا لم تخبره أنها نور وأن محمد طلب منها الرد اكتفت بالرد على أنها محمد، لم تر أن الأمر يستدعي شرحاً أطول خاصةً أنّها منسجمة بما تقرأ لم تلبث أن انتهت من الرد حتى عادت لمتابعة القراءة .

في هذه الأثناء وصلت رسالة أخرى من سعد.. عادت نور إلى هاتف زوجها لترى إن كان هناك أي رد طارئ من سعد يستدعي الرد عليه لذلك اكتفت بإنزال ستارة الهاتف من الأعلى لترى مضمون رسالته :

- حسناً صديقي أنا في الطريق سأسبقك..

صحيح لقد وصلني اليوم نتيجة تحليلك الثاني الذي نسيت أمره، أنت معافى تماماً يا صديقي هنيئاً لك صحتك

قرأت نور الرسالة وأعادت الهاتف بسرعة حيث تركته أول مرة وكأنها قد ارتكبت ذنباً عظيماً في رؤيتها لتلك الرسالة، لم تكن ردة فعل نور واضحة لما قرأته في رسالة سعد، إلّا أنّها أصبحت الآن تعلم أنها لم تتزوج ممن يشابهها، ممن لن تشعر أنّه أفضل منها، سيعيش حياةً أطول من حياتها أو أنّه لم يتزوج منها إلّا من باب شفقة تلك الشفقة التي ستتعب فتاة كنور، نور الآن ستختلف عن نور قبل رسالة سعد.

خرج محمد من الحمام عند تلك اللحظة التي تركت بها نور هاتفه :

- ها حبيبتي ماذا أخبرك سعد ؟

- لقد كان ينتظرك وسأل عنك أخبرته أنّك لن تتأخر

انتبه محمد إلى حال نور لم تكن على طبيعتها في هذه الأثناء كانت هناك أصوات اشعارات رسائل جديدة من سعد إضافة إلى رسائله الغير مقروءة بالنسبة لمحمد أما بالنسبة لنور فقد قرأتها وهذا ما لم يلاحظه محمد، سمع محمد الاشعارات ولم يهتم بها، اقترب من نور ونظر إليها حاولت اخفاء توترها عن طريق تركيزها بالقراءة :

- ما بك حبيبتي ؟

- لا شيء

- إذا أردت أن أبقى معك أبقى وألغي موعدي مع سعد، لا بأس فليس هناك ما هو مهم بل لا يوجد ما هو أهم منك

وضع يده في شعرها وحاول تسريحه كأنّها طفلة صغيرة محاولاً إرضاءها، نظرت إليه مبتسمة محاولةً اخفاء ما كان بداخلها في هذه اللحظات :

- لا يا عزيزي أنا بخير لكن القراءة جعلتني متعبة قليلاً وأريد أن أنام فقط

- اذاً نامي الآن واتركي عنك القراءة

- حسناً اتفقنا

- أرني ابتسامتك مجدداً

ابتسمت له ووصته بالاعتناء بنفسه ثم تظاهرت أنّها نامت مستلقية بجسدها على السرير.

خرج محمد تاركاً ورائه نور جديدة تختلف عن نور السابقة.

انطفئ النور في عينيها وحالما خرج محمد بدأت التفكير الذي لابد منه، لم يكن هناك أمراً واضحاً تفكّر به، هو فقط ذلك الخوف بدأ يتسلل إلى قلبها وأطفئ النور الذي بعينيها، بدت خائفة جداً لم تستطع فعل شيء تركت الكتاب الذي كانت تقرأه جانباً واستلقت تحت غطاء سريرها ونامت إلى حين عودة محمد الذي لم يطيل غيابه.

الساعة تشير إلى الثالثة تماماً دخل محمد غرفته كانت نور لم تزل نائمة اقترب منها بهدوء لكنّها ما لبثت أن استيقظت على صوته :

- صحوتي اذاً !

- هل عدت ؟

- الآن.. أنا جائعٌ جداً هيّا انهضي وبدلّي ملابسك ولنذهب إلى الحديقة أو المطعم للغداء

- حسناً سأنهض حالاً

- نور ما بك ؟

- لا لاشيء والله أنا بخير الحمد لله

- الحمد لله

حاولت نور عدم اظهار أي شيء من حالها لمحمد إلّا أنّها من الصعب أن تنجح طويلاً بذلك.

بعد يومين..

- نور نور حبيبتي ما بك ؟

أرجوك أجيبيني

يا الله يا رب

أمسك محمد هاتفه الملقى بجانبه على السرير قرب نور التي لا تستجيب لأي شيء من محمد لقد أغمي عليها أو أن شيئاً حدث لها، كان حال محمد أصعب من أن يوصف أمسك هاتفه طالباً سعد :

- ألو ما بك من على الصبح ؟؟

- أرجوك سعد أرجوك

- ما بك ؟

- نور لا تتحرك لا أدري

- حسناً سآتي حالاً

- أرجوك بسرعة

- لا تقلق أنا قادم حالاً، لكن أخبرني هل حدث شيء ما ؟

- لا أدري ولكن حالها اليوم لم يكن جيداً طلبت منها أن أذهب بها إلى طبيبها لكنّها رفضت وقالت أنها مرهقة وحسب ثم نامت، الآن صحوت

لأوقظها لكنها لم تجب أظن أنها أصابتها حمى.. أرجوك سعد هيا

– أنا في الطريق، سأغلق الآن وأحاول طلب طبيبها ليلحق بنا أو نسعفها إليه

– حسناً

توجّه سعد بسرعة نحو غرفة نور ومحمد ثم لحق به طبيب نور على الفور، كانت حالة نور سيئة كما شرحها الطبيب وتستدعي الذهاب إلى المستشفى المختص.

انطلقا جميعاً إلى المستشفى حيث تم حجز غرفة خاصة لها :

– ها أخبرني أيها الطبيب ما هي حالة نور ؟

– للأسف يا أستاذ محمد أظن أن حالتها سيئة ولا أدري كيف ستكون نتيجة التحليل خاصةً أنّها لم تأخذ الدواء منذ مدة

– لكنها كانت بخير وأنت في المرة الأخيرة أخبرتها أنّها ستتخلى عن دواءها قريباً

– قلت قريباً ولم أقل لها أن لا تأخذ دواءها. كان سرطان نور في كتلة عند المعدة وقد تم استئصالها منذ البداية وحمدنا الله كثيراً أن حالها لم يتطور وأن الخلايا السرطانية لم تطل أكثر من تلك المساحة التي تسمى كتلة

– ربما تعبها الآن عرضٌ عادي يا دكتور

– إن شاء الله يا بني نأمل ذلك دعنا ننتظر التحاليل

– لكن لماذا لم تصحو !

- لا تقلق بسبب الأدوية

بعد ساعتين أو أكثر جاء عاملٌ من المخبر ممسكاً بنتائج تحاليلها وبجانبه كان طبيب نور دخل غرفتها حيث كان محمد ينتظر على نار :

- أخبرني أيها الطبيب أرجوك

- أين الطبيب سعد

- خرج يجلس في الخارج

- دعنا نخرج إليه إذاً لا نريد أن نزعج نور بغرفتها

- حسناً

خرجا الاثنين حيث سعد جالس على كرسي أمام نافذة كبيرة تطل على حديقة المستشفى، اقترب محمد والطبيب منه بعد أن سلما عليه ثم دار حديث بين الطبيب وصديقه سعد أمّا محمد فبقي صامتاً لم يجد أكثر من الصمت تعبيراً عن حالته :

- للأسف أيها الطبيب سعد لقد أَصبح سرطاناً في الدم

- لا حول ولا قوة إلّا بالله، هل حالها متفاقم ؟

- إلى الآن أتمنى السيطرة عليه

- سنحتاج معالجة كيميائية اذاً

- بالتأكيد

عاد محمد ونور مساء اليوم التالي إلى غرفتيهما كان التعب مازال بادياً على

نور التي أصبحت ملزمة بدوائها من قبل محمد.

استقلت على سريرها جلس زوجها بقربها محاولاً تحسين مزاجها الذي لم يكن على ما يرام كما في الفترة الأخيرة :

- محمد أريد العودة إلى سوريا

- يا حبيبتي ألم أخبرك منذ قليل أنّ سنقوم هذا الأسبوع بنشاطات جديدة!

ما زلنا بشهر العسل أم أنك نسيتِ ذلك ؟!

- محمد سأموت أرجوك أريد أن أعود سوريا لأرى أمي وأبي

- نور ما هذا الكلام ؟!

لما تتكلمين هكذا ؟ ما الذي جرى أخبريني ؟

ألم نتفق أننا سننسى المرض كلياً و....

- محمد أرجوك اشتقت لوالداي

- حسناً نامي الآن يا صغيرتي ولا تقلقي نفسك بالتفكير

- أريد أن أسافر غداً

- كما تريدين يا حبيبتي سنسافر غداً، هيّا استريحي الآن

بعد أن اطمئن محمد على زوجته أنّها نامت، خرج إلى الشرفة سارحاً بحاله :

" ما الذي جعل نور تنتكس بتلك الطريقة ؟

لا أدري ماذا حصل كنا بأحسن حال.. الحمد لله على كل حال

أتمنى من الله أن يردها إلي معافاة ويعيد البسمة إلى وجهها كما كانت يا رب علينا أن نعود إلى سوريا غداً بإذن الله "

صلّى محمد ركعتين لله وطلب العون من الله لما يمر به ثم سلّم أمره له ولم يفكّر بشيء إلاّ بيوم غد وضرورة السفر.

صباح اليوم التالي..

الساعة السابعة صباحاً وقف محمد أمام المرآة يسرّح شعره وتبدو عليه العجله، أفاقت نور على صوت حركة محمد في الغرفة :

- محمد أين ذاهب ؟

بدت السعادة واضحة على وجه محمد في المرآة عندما سمع صوتها، اقترب منها مستنداً إلى السرير جالساً قربها وهي تقترب بنظرها إليه كلما اقترب إليها تنتظر اجابة سؤالها. أجابها مداعباً إيّاها :

- قولي صباح الخير أولاً أيتها الصغيرة

ابتسمت ابتسامة صغيرة ثم أجابته :

- أسفة صباح الخير

- صباح النور

- إلى أين ذاهب ؟

- أراك بألف خير والحمد لله أظنّك تتدللين على حبيبك وحسب

- محمد أريد أن أسافر

- حبيبتي ذاهب إلى مكتب الطيران للحجز على أول رحلة.

ما رأيك ؟

- شكراً لك

- لن أتأخر عليك سأحجز وآتي حالاً.

لم يخرج محمد من الفندق حتى أوصى إحدى موظفات الغرف بنور التي لم تكن تبدو أنّها بحالة سيئة هذا الصباح، لكن كان لابد لمحمد من الاطمئنان أكثر بتلك الطريقة.

ذهب إلى مكتب الطيران وحجز تذكرتي سفر إلى سوريا كان موعد الرحلة بعد يومين فجراً ثم عاد مسرعاً إلى الفندق حيث نور.

لم تزل نور نائمة على السرير كما تركها قبل أن يغادر الغرفة إلى مكتب الطيران:

اقترب منها عند السرير محاولاً ايقاظها:

- حبيبتي لقد عدت، ألم تستيقظي بعد؟

نور لم تجبه، أعاد على مسامعها الكلام نفسه مستخدماً يديه في تسريح شعرها الذي يُحب:

- نور غاليتي مازلتِ نائمة؟

قبّل جبينها محاولاً ايقاظها أيضاً:

- نور حبيبي

لم تجب أيضاً.

- نور

– نور

لم تجب نور منذ هذه اللحظة ولن تجيب بعد اليوم. ماتت نور لكنّها ماتت بجسدها فقط أمّا روحها فبقيت مستوطنة محمد وأظنّها ستبقى هكذا، فالحب الذي خُلِق بين نور ومحمد كانت أولى صفاته أنّه لا يفنى بموت جسد إحداهما، حبهما كان أبدياً والأبدي لا ينتهي برحيل جسد.

عاد محمد مع جثمان زوجته إلى سوريا على الفور، كان بانتظاره هناك أخاها طارق أمّا عائلته فلم تعلم بقدوم زوج نور مع جثمانها على الاطلاق طالما أنه لا أحد يعلم بزواجه منها فلن يعلموا أيضاً بقدومه مع جثمانها وبوجوب التزامه وحضوره للعزاء كزوج لتلك الفتاة التي لم تتهنى بزواجها كما كان من المفترض أن يحدث، فقدر الموت كان أسرع من ذلك. ربما استسلمت نور للموت عندما علمت بمعافاة محمد، المهم أن القدر أسرع بها إلى الله قبل أن تكتمل سعادتها معه.

في سوريا..

أصبح محمد بمفرده الآن ذهبت نور وتركته وحيداً مع نفسه مجدداً. وصل محمد مع جثمان نور إلى سوريا كان طارق شقيقها بالانتظار، أكملا معاً اجراءات استلام الجثمان ثم انطلقا به إلى منزل عائلتها حيث والديها. كان طارق قد أخبر والديه بوفاة شقيقته نور لحظة علمه بالخبر وأخبرهما حقيقة مرضها الذي أخفته عنهما على أمل شفائها قريباً والعودة إلى سوريا بعد أخذ فترة نقاهة لذا فإن زواجها كان سريعاً بهذه الطريقة.

كانت صدمة الوالدين كبيرة بوفاة ابنتهما الوحيدة لكن تلك مشيئة الله وقدره وهما مؤمنين بذلك.

ودّع محمد نور بعد أن تأمل وجهها طويلاً ثمّ مضى بعد أن أتمّ مراسم التشييع والدفن والإجراءات جميعها وعاد إلى منزله.

كانت الساعة العاشرة مساءً كان الجميع في المنزل، الأم والأب زينب وأكرم، يجلسون في غرفة الجلوس في الأسفل يشاهدون التلفاز عندما رنّ جرس الباب، أسرع أكرم لفتح الباب :

- محمد !

ماما لقد عاد محمد

صرخ أكرم من أمام الباب وعانق محمد ودخلا معاً حيث العائلة، سلّم

محمد على أسرته وأستأذن الجميع إلى غرفته معتذراً منهم بسبب تعب السفر، الأم كعادتها أبدت قلقها واستغربت التعب الذي بدا واضحاً على وجهه ومن طريقة سلامه على الجميع. أرسلت زينب وراءه كالعادة لتستفهم عن حالته أمّا زينب فلم تتردد بذلك رغم الزعل الطفيف الذي كان بينهم أخيراً، ذهبت وراء أخيها إلى غرفته كان مستلقي على سريره ولم يزل بملابسه نفسها لم يخلعها بعد، رامياً بحقيبته أرضاً. طرقت زينب على باب غرفته ثم فتحته بهدوء :

- محمد هل أدخل ؟

- لقد دخلتي يا زينب، هيّا تعالي ماذا تنتظرين !

دخلت مسرعة وهي تبتسم له ثم جلست عند الكرسي القريب من سريره :

- وأخيراً عدت لقد اشتقنا إليك

- وأنا أيضاً. أرسلتك أمك ورائي أليس كذلك ؟

- كما العادة لكن هذه المرة أنا جئت أيضاً من نفسي وبكل قناعة، أراك على غير ما يرام.

ما بك يا أخي ؟

- لا شيء يا عزيزتي لا تقلق أنا متعبٌ فقط لكن أنا بخير

- وكيف كانت اجازتك ؟ ولما مددتها أيضاً ؟

- لا شيء لكن أردت أن أستمتع بإجازتي أيضاً فقمت بتمديدها

- وهل أعجبتك مصر ؟

- مصر بلدٌ جميلٌ جداً

- معقول ؟

- نعم بلدٌ رائع

- لم أكن أعرف ذلك

- زينب !

- نعم

- عندما يموت الانسان أين يذهب ؟

- لما هذا السؤال يا محمد ؟

- مجرد سؤال

- ليس مجرد سؤال بل له غاية أليس كذلك ؟

- لا لا هو سؤال وحسب

- لا ليس كذلك أنا أعرفك تماماً يا محمد

- ربما هناك غاية لكن لا تقلق أنا بخير والحمد لله

- بعد موت الانسان ينتقل من الدنيا إلى البرزخ أمّا البرزخ فلا شيء ثبت عنه فهو غيبي ولا يمكن الاطلاع عليه أو ادراكه هو مرحلة تفصل بين حياة الدنيا والأخرة لا أعلم بالضبط الكثير عن عالم البرزخ يا محمد لكن أظنه هو جزء من الجنة لمن كان مؤمن وأعماله صالحة وهو جزء من النار للكفار.

يمكنك قراءة الكتب عن ذلك

- هل الأموات يشعرون بنا فعلاً ؟

- بالتأكيد يشعرون بنا

- أقصد بالضبط هل يمكن أن نقوم عنهم بالأعمال الصالحة بعد وفاتهم؟

- قال عليه الصلاة والسلام : " إذا مات الانسان انقطع عنه عمله إلّا من ثلاثة : إلّا من صدقة جارية، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له "

- ولد؟

قالها محمد متحسراً. تذكّر حديثه مع نور ورغبتها بولدٍ منه لكنّها توفت قبل تحقيق أبسط رغباتها معه

- نعم ولد صالح، ممكن أن تكون أعماله ودعواته موصولة بأهله بالتأكيد. محمد من هو ذلك الميت المهتم بوفاته ؟ وما تلك التغيرات ؟! أنت تسأل عن الموت والبرزخ ؟!

- لا تقلق يا زينب سأخبرك في الوقت المناسب

- ممكن أن نقوم بتطبيق فكرة ما هدفها نبيل وتحمل عملاً صالحاً هذا العمل يعود إلى شخص متوفى ؟

- لا أعلم بالضبط لكن أظنّ ذلك، كأنّها صدقة جارية تعود بنفعها إلى المتوفى

- حسناً يا صغيرتي، دعيني أنام قليلاً الآن

- ستنام هكذا بثيابك ؟

- هل هناك ماء ساخنة في الحمام ؟

- أظن ذلك

- حسناً سأقوم بحمامٍ سريع ثم أعود للنوم وغداً نلتقي

- محمد قبل أن أذهبٍ أردت أن أسألك سؤالاً أيضاً

- ما زلت أصلّي يا زينب لا تقلق

- وكيف عرفت السؤال

- أنا أعرفك جيداً يا زينب. أنتن الفتيات من السهل جداً معرفة أفكاركن

- يا لغبائنا ونحن نظن أننا خبيثات ولا تستطيعون فهمنا

- لا لا أنت على خطأ يا زينب أفكاركن غالباً تظهر في نظراتكن أو بأطراف أحاديثكن

، لكن عليك أن تعرفي رغم سهولة معرفة أفكار الفتيات لكن من الصعوبة أيضاً فهمهن في تفسير بعضها. طريقة التفكير وفهمها صعبة بالنسبة لنا أما أفكاركن فهي واضحة.

ضحكت زينب من كلمات أخيها لكنّها اطمئنت لحاله ثم خرجت من غرفته مسرعة إلى والدتها التي لم تزل تنتظرها للاطمئنان على محمد فهي تعلم تماماً أن زينب قادرة على فهمه ومعرفة حاله بسهولة.

لكن من الغريب أن ينتهي حديثهما هنا دون الرجوع إلى حدثٍ مهم من المفترض أنّه حدث مع محمد أخيراً وربما كان سبباً في سفره على حسب رأي زينب وهو موضوع زواجه بزينب !

بعد يومين..

بعد انتهاء العزاء في الأيام الثلاثة كما هو متعارفٌ عليه في سوريا، عاد محمد إلى وظيفته لكن ليس كالسابق، لم يعد محمد نفسه الذي كان قبل، أصبح الآن يعي معنى الأيام والزمن والعمر والحياة خاصة في حال وجود رب رحيم خالق هذا الكون بما فيه، الحياة تغيرت كثيراً بالنسبة لمحمد.

جلس كعادته وراء مكتبه ملتزماً بعمله حتى رنّ هاتفه، إنّه سعد :

- أهلاً أهلاً صديقي الغالي

اشتقت إليك والله

- اشتقت إلي ولا تكلمني ؟

- أنت تعلم يا صديقي لقد كنت مشغولاً بالعزاء

- نعم البقاء لله.. أخبرني الآن ما أخبارك !

- الحمد لله عدت إلى عملي لكنّي أشعر أني فارغ من أي شيء حتى الأصدقاء تخيل ذلك يا سعد !

- أين أصدقائك

- سعد أنت تعلم أنه لم يعد لدي أصدقاء هنا تقريباً

- أعلم اعلم لكن ألم يكن لديك أصدقاء من نوع أخر !

- كفاك سخرية يا سعد.. ماذا تريد أيضاً، أنا الآن في العمل

- حسناً وماذا تنوي الآن ؟

- لدي فكرة مازالت تدور برأسي أظنها لم تنضج بعد. عندما تنضج سأخبرك عنها

- لم يعد لديك صديق غيري تذكّر ذلك

- أخبرني عنك كيف حالك أنت ؟

- أنا بخير والحمد لله لقد تركت المنتجع البارحة وأنا الآن في المستشفى أقوم ببعض الفحوصات والتحاليل

- ها أخبرني عن النتائج ؟!

- أظنني تخلصت من سرطان الثدي الذي أصابني كإحدى الحالات المتفردة لسرطان الثدي الذي يصيب الرجال وربما سأعود إلى عملي وحياتي قريباً

- الحمد لله، حمداً لله على سلامتك يا صديقي

- الوحيد صديقك، الوحيد تذكّر ذلك

- الوحيد نعم

ضحكا معاً وودعا بعضهما ثم عاد محمد إلى عمله لكن تفكيره بقي مع فكرته الجديدة التي لم تتركه منذ وفاة نور ووداع جسدها :

" كان وجهها أشبه بلوحة ناطقة، أخبرتني تلك اللوحة الكثير.

أخبرتني أنه يجب علي أن أستمر لأجلها، عليّ أن أجد فكرة أحيي بها تلك اللوحة حتى بعد وفاتها. نور ماتت وواجبي أن أبقيها حيّة في داخلي على الأقل.

لقد خطرت ببالي فكرة لكن لا أعلم كيف يمكن تنفيذها "

بقي محمد يفكّر وأفكاره بقيت تتلاطم في رأسه علّها تجد مرسى يريح تخّبطها قليلاً.

بعد الانتهاء من عمله ذهب إلى النادي الرياضي الذي اعتاد الذهاب إليه منذ زمن. عاد إلى المنزل مساءً منهكاً من العمل والتمارين وكذلك التفكير أيضاً.

جلس مع عائلته على العشاء بعد أن أخذ حماماً سريعاً ثم صعد غرفته مسرعاً وكأنّه وجد فكرةً ما، الحقيقة أنّ فكرته هي ذاته مازالت تدور في رأسه لكن ربما قد عثرت على مستقر ما في رأسه الآن لتستقر به وتهدأ ليبدأ التأسيس لها وعلى أساسها. صعد غرًفته وطلب سعد على الفور :

- مرحباً سعد

- أهلا حبيبي

- أخبرني عن صحتك الآن؟

- أنا بأحسن حال يا صديقي والحمد لله.. أخبرني أنت ما ورائك ؟

- لقد وجدت الفكرة يا سعد

- وما هي ؟

– أريد أن أنشأ جمعية أو مؤسسة أو لا أدري ماذا يمكن تسميتها بالضبط، جمعية للمرضى الملهمين، فيها فعاليات كتلك التي نراها في بعض الفيديوهات على اليوتيوب مثل TDEx، يتكلم بها المشاركين عن تجاربهم الناجحة في الحياة ليستفاد منها الآخرين.

– فهمت تقريباً

– الفكرة هي أن الأعضاء في تلك الجمعية سيكون لديهم تجربة مرضية سابقة قد استفادوا منها أو تركت لهم بصمة ايجابية ما في حياتهم، علينا أن نرى ونشرح المرض بعين تختلف عن عين الشفقة والقلق وحسب التي نراها في العادة. التجارب الايجابية مع المرض ستغير نظرتنا اتجاه الحياة ككل سواء كنا مرضى أم أصحاء، نعيش مع مرضى وربما نكون مؤهلين لنصبح مرضى مثلهم أيضاً .

– فكرة جميلة يا محمد

– وكيف أبدأ بتنفيذها أريد مساعدتك يا سعد

– سنقوم بإنشاء فعالية على الانترنت عن طريق الفيسبوك ثم نقوم بإرسال دعوات لأجلها في الصفحات والمجموعات الكبيرة على مواقع التواصل الاجتماعي على الانترنت ونعرّف بشرح مبسط عن مضمونها وأظن أنّها ستلقى نجاحاً

– ستكون الفعالية في سورية فقط أم الوطن العربي ؟

– لتكن في جميع الوطن العربي وما المانع ؟

– هل سننجح ؟

– ستنجح يا محمد بكل تأكيد الفكرة تستحق التجربة.. تحويل حالة المرض بكل ما فيها إلى حالة ايجابية يُستفاد منها هذا بحد ذاته أمر جميل ويستحق التجربة بالفعل

– ما سأفعله سيكون لأجل نور وإحياء ذكراها،، نور كانت مريضة نعم لكن مرضها لم يكن إلا لخير، حتى بالمرض علينا أن نرى الخير عندما يكون أصحابه أشخاص كـ نور وغيرها.

– ستنجح يا محمد

– بل سننجح سويّاً يا سعد، ستشارك لنجاح تلك الفكرة

– بإذن الله

– ومتى سنبدأ ؟

– من الآن. هل تعلم كيفية انشاء تلك الفعالية كصفحة على الفيسبوك ؟

– لا أعلم بالضبط لكن سأبحث عن طريقة ذلك لا تقلق

– اذاً مبدئياً بعد انتهائك من انشاء الفعالية والأهم هو اعدادك لشرح مبسط لها سننتقل إلى المرحلة التالية وهي نشر تلك الفعالية بين الصفحات الكبيرة وتلك ستكون مهمتي ومهمتك أيضاً.

– لكن ماذا بعد ؟

– بعدها سنرى عدد المشاركين ثم نجهز للمرحلة التالية. أظن مبدئياً يلزمنا في المرحلة التالية مكان للاجتماع مع المشاركين وتنظيم الفعالية أولاً ثم مكان للمشاركة بإلقاء التجربة أمام الناس ثم نقلها على الانترنت لضمان

نشر الافادة بين جموع أكبر من الناس وغير ذلك.

– لكن ماذا عن أن المشاركين سيكونون من أكثر من بلد !

– لا تقلق في كل بلد سيكون هناك منظم مثلاً. أنا و أنت مبدئياً وربما آخرين أيضاً

– محور الفكرة هو بمشاركة المريض لتجربته مع الأخرين بكل ما فيها من ايجابيات وحسب

– نعم

– سننطلق اذاً بعون الله

– هيّا أرني مهاراتك التقنية في البداية يا صديقي.

– سترى

– إلى اللقاء لا تكلّمني إلا للغد لا تنسى

– حسناً تصبح على خير

– وأنت من أهل الخير

بعد ثلاث ساعات من التعب جلس بها محمد وراء حاسبه وبيده جوّاله ودون أي استراحة، أنهى اعداد صفحة الفعالية، لم يضع أي صورة لكنه كتب شرحاً مناسباً عنها كتب في الشرح :

"

كيف نجعل من المرض ملهماً !

يأتي المرض فجأةً ليُعلمنا أننا أضعف مما كنّا نتوقع، أضعف جسدياً لكن ليس بالفعل روحياً.

في المرض يضعف الجسد ونصبح أضعف من أن نقوى على حمل أنفاسنا حتى. لكن إن اتّبعنا حقيقة الأمر سنرى أن المرض يأتي ليكشف لنا حقيقتنا ككل ليس حقيقة ضعف أجسادنا وحسب بل يأتي ليخبرنا عن قوتنا الداخلية ونحن بقمة المرض وضعف الجسد.

جميعنا في المرض نبحث عن مصدر قوة يحيينا من جديد، مبعث حياة وأملٍ جديد يجعل منا سوبرمان لا نعرفه حتى نحن أنفسنا.

المرض يضعف جسدك لكنّه يضعك أمام تحدي أكبر من أي تحدي قد مرّ وسيمّر في حياتك، ذلك التحدي يجبرك على الخروج بالقوة التي بداخلك، يجبرك على مواجهة نفسك التي لم تجرؤ على مواجهتها يوماً ما وأنت بصحتك.

تجربتك مع المرض يمكن أن تكون التجربة الأهم في هذا الوجود والتي يمكن أن تقوم بطرحها بين الناس لتكون التجربة الأولى على الإطلاق، التي تستطيع تحويل الانسان من مجرد جسد يأكل ويشرب إلى روحٍ بشرية كما خلقها وكرّمها الله.

المرض وإن كان عضالاً إن لم يأتي لن تنجو من الموت، الموت قادم بمرض أو بدونه، بل على العكس فإن المرض يأتي كإشارة بموعد الرحيل، علّى عكس المعافى يأتيه الموت فجأة دون أن يُعطى أي فرصة لمحاولة التحسين

بنفسه للرحيل بها إلى الله أو حتى اشارة ليلهمه بأشياءٍ كثيرة كان غافلاً عنها.

المرض فرصة للتصحيح بالنفس قبل رحيلها إلى الله، المرض تجربة ايجابية حقيقة بكل ما فيها من ألم وعناء إلا أنها تستحق أن تكون التجربة الأهم في ذلك الوجود. وتستحق أن نحكي ونتكلّم عنها.

المرض هو حالة انتقالية بالمريض من كونه مجرد جسد يأكل ويشرب إلى انسان حقيقي يستحق الحياة لأجل ما يستحق منها.

نحن كمرضى فقط من يستطيع التعبير عن تلك الحالة عن طريق رواية تجاربنا المختلفة مع المرض بشكلها الايجابي المختلف عن الشكل المتعارف عليه من ضعف جسدي وشفقة وحسرات على ما فات ونسيان ما يمكن أن يكون.

سنجعل من تجربتنا المرضية سبباً ملهماً للآخرين

هذا ما كتبه محمد في وصف الفعالية التي أنشأ لها صفحة وأرسلها إلى سعد على الفور، كان سعد قد نام في هذا الوقت بالتأكيد وكذلك محمد نام أيضاً بعد تعب ومجهود كبير قد بذله هذه الليلة.

***

في صباح اليوم التالي

أثناء عمل محمد رنّ هاتفه لم يجب بسرعة كعادته في العمل، بعد انتهائه من عمله الصباحي أمسك هاتفه ليرى من كان المتصل صباحاً وكما توقع إنّه سعد. أعاد الاتصال به على الفور :

- مرحباً مرحباً
- أهلا سعد، ها أخبرني ما رأيك بما أرسلته لك البارحة ؟
- قل كيف حالك أولاً يا رجل !
- ها أخبرني أولاً
- يا لك من صديقٍ انتهازي
- كفاك يا سعد هيّا أخبرني
- الحقيقة أنّ عملك البارحة رائعاً أحسنت
- بالفعل ؟
- أه والله رائع
- وماذا بعد ؟
- الآن علينا اختيار صورة مناسبة وأقترح أن تكون تصميم خاص بمشروعنا
- نحتاج شخص متخصص بتصميم الجرافيك
- لا تقلق لديّ صديق هنا في البنك هاوي تصميم جرافيك
- ويستطيع تصميم ما يناسب لنا ؟
- نعم بالتأكيد
- حسناً أخبره بسرعة

– سأخبره فوراً، وبعد ارساله التصميم سنكون جاهزين لنشر الفعالية أيضاً سألجأ إلى معارفي في نشرها وكما اتفقنا سننشرها في الصفحات الكبيرة سواء على الفيسبوك وغيره من مواقع التواصل الاجتماعي

– عظيم، أرجوك يا سعد وليكن بسرعة

– ولما هذه السرعة

– أنا متحمس لتطبيق الفكرة

– متحمس لكن الآن هو دوري وأنا لست على عجل

– سعد أرجوك كفاك مزاحاً الآن وإلا لن ترى مني ما يعجبك على الاطلاق

– أظنك ستندم على كلماتك تلك

– ولما ؟

– لأنني سأتراجع عن المساعدة، فكّر في الموضوع الآن

– ســـــــــــــــــعد

– حسناً حسناً سأتكلّم بجديّة الآن. صديقي العزيز اطمئن وانتظر للغد على الأكثر حتى نبدأ بمرحلة النشر. ما رأيك ؟

– حبيبي يا سعد. أنا في الانتظار من الآن

– إلى اللقاء

– إلى اللقاء

بعد عدة أيام..

تم تصميم صور مناسبة للفعالية و نشرها على مواقع التواصل الاجتماعي تحت اشراف محمد وبتخطيطٍ منه بمشاركة سعد، انتشر اعلان الفعالية في مواقع التواصل على الشبكة بشكل كبير وبسرعة أكبر مما كانا يتوقعان الاثنان.

بدأت الناس بإرسال الرسائل عبر الصفحة إلى محمد الذي من المفترض أن يقرأها ويختار منها الأنسب ويوافق على عرضها في الفعالية كتجربة من تجارب الملهمين الذين سيشاركون فيها.

كان محمد بحاجة إلى وقتٍ طويل لقراءة ما يُرسل إليه، وفي القوت نفسه كان يريد أن يفتح الباب ويعطي فرصاً أكبر لأشخاص أكثر للمشاركة في الفعالية.

كانت الساعة العاشرة مساءً، محمد جالسٌ كعادته في غرفته، فتح حاسبه المحمول وبدأ الإطلاع على الرسائلِ الواردة إليه عبر صفحة الفعالية أراد أن يفتح الرسالة الأولى لكنّه بدا خائفاً قليلاً لقد تذكّر نور وارتعد قلبه لكنّه ما لبث أن اطمئن كثيراً.

نور كانت تحمل المرض بين أضلاعها والحب في قلبها أما حنانها فكان أكبر من أن يملأ جسدها.

هل كان يجب عليها أن تبقى هنا ولا ترحل !

لو أنّها بقيت ولم تمت لكانت قدّمت للبشرية شيئاً ما يجعل منها انسانة ملهمة لهذا الجيل وما بعده، أتذكّر تماماً عندما أخبرتني أنّها تفكّر بزراعة أشجار كثيرة وعندما سألتها عن سبب اهتمامها بزراعة الأشجار قالت لي أن من أحب الأحاديث النبوية إلى قلبها :)) إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا تَقوم حتى يَغرِسَها ، فليَغرِسْها ((قالت أن هذا الحديث يعني لها الكثير فهو دائماً ما يذكَرها بأنه لابَد من نهاية لهذه الحياة ووقتنا وأعمارنا محدودة طبعاً والأهم أن تلك الأعمال التي نقوم بها قبل أن نموت مهما كانت صغيرة يجب أن تكون مثمرة كالشجرة تماماً عندما نغرسها لا نرى ثمارها فوراً نغرسها ونطلب من الله انباتها مع الأخذ بالأسباب برعايتها وسقايتها والصبر إلى حين اثمارها،الحديث يشعرك بأهمية الأعمال قبل فوات الأوان مهما كانت بساطتها لابد أن تكون عظيمة بنظر الله ومثمرة إلى حين وقتها والأهم مستمرة إلى ما بعدك أيضاً.

نور أخبرتني أنها طالما تخيّلت أن المقصد من تلك الأشجار هو الأطفال، أرادت بكلامها أن يكون الغرس هو غرس أطفال يملكون أفكاراً كفيلة بجعلهم بذوراً لأشجار لابد لها أن تثمر الخير ولا شيء إلا الخير يوماً ما.

قالت لي : " الأطفال يا محمد أمانة في أعناقنا ومن حقهم علينا التربية الصالحة التي أمرنا بها الله ورسوله، ليست التربية الصالحة وحسب بل الأمانة تبدأ باختيار الأزواج لبعضهم البعض، لكن مع الأسف اختيار الأزواج هذه الأيام غالباً ما يكون سيئاً، يأتي الأطفال ليعيشوا تجربة الزواج السيئة مع آبائهم الذين لا يجعلون هؤلاء الأطفال أهم ما في حياتهم، بل يعتبرونهم عالة أحياناً.

في بعض العلاقات وإن بدت ناجحة يمكن أن تنتهي بالفشل عندها يصبح الأطفال الضحية الأولى.

تأتي المدرسة أيضاً بمدرسّيها كوسيلة ثانية فشل الأطفال إلا من رحم ربِّ من المدرسين الذين يهتمون بالأطفال وكأنهم فلذات أكبادهم، هؤلاء المدرسين يمكنهم انقاذ الخير وانباته في قلوب تلاميذهم الأطفال ولو بنسبةٍ قليلة إن عجزت العائلة عن ذلك "

سألتها كيف ستنشأ هؤلاء الأطفال !

أجابتني أنّها طالما حلمت بإنشاء مدرسة تهتم بتعليم الأطفال وتربيتهم تربية صالحة ترقى بنا كمسلمين، أخبرتني كم خططت في أحلامها لذلك المشروع بكل تفاصيله وأيضاً أسرّت لي وهي تبتسم ابتسامة الفتاة اللعوب أنها ستنشأ أطفالها أيضاً تنشئة صالحة "أطفالي الذين سأنجبهم منك يا محمد ".

أتذكّرها تماماً في تلك اللحظة التي قالت لي ذلك بدت عيناها لامعتان جداً وصادقتان أكثر من اللازم، ناسية مرضها نهائياً.

آه لو أنّي أعرف ما الذي جعلها تنتكس فجأة هكذا وهي بقمة تحسنها حينها.

سكت فجأة تفكيره عن التذكر ثم تذكّر لحظة ارسال سعد لرسالة الواتساب قبل يوم من وفاتها، حدّثه بتلك الرسالة عن نتيجة تحليله الثاني التي كانت جيدة بل ممتازة، تقول أن جسده خالٍ من أي فيروس لا ايدز ولا غيره.

هل يعقل أن نور قرأتها ؟

ولم لا وأنا أساساً طلبت منها أن تفتح الرسائل وتجيبه !

يا لغبائي أظنّها قد علمت أني معافى وأعتقد أن ذلك آَلامها وتسبب بنكستها.

ترك محمد حاسبه المحمول ووضعه جانباً وأخذ هاتفه بسرعة كبيرة ثم طلب سعد :

– ما بك في هذا الوقت ؟

– سعد لقد ماتت نور بسببي

– ماذا ؟

– نعم ماتت بسببي وأنت أيضاً كنت سبباً بذلك

– ماذا تقول يا محمد هذا قضاء الله وقدره.

– أعلم أعلم لكن نور كانت قد تحسّنت في الفترة الأخيرة بل شفيت لكنّها قرأت رسالتك على الواتساب في ذلك الوقت عندما أَرْسَلْتَ لي تخبرني نتائج التحليل، أتذكر يا سعد ؟

– نعم نعم تذكّرت لكن ما علاقة رسالتي ونتائج التحليل بوفاتها، أرجوك يا محمد كبّر عقلك قليلاً هذا هو عمرها وأنت رجلٌ مؤمن أليس كذلك ؟

– نعم لكني متأكد أن علمها بمعافاتي كان سبباً لنكستها

– اهدأ يا صديقي هذا قدر الله وهذا هو عمرها وهذا حالنا إنّ لله وإنّا

إليه راجعون

قل رحمة الله عليها واستعذ بالله من الشيطان الرجيم

- الحمد الله على كل حال

- حسناً دعني أنام الآن وكفاك جنوناً

- إلى اللقاء

أغلق محمد الهاتف وأنهى مكالمته مع سعد ثم توجه لصلاة ركعتين لله، دعا لنور طويلاً وقرأ بعضاً من سور القرآن على روحها.عاد إلى حاسبه المحمول لقراءة الرسائل المرسلة التي مازالت تزداد باستمرار بعد أن هدأ تفكيره قليلاً.

بدأ محمد بقراءة الرسائل بالترتيب كانت الساعة تشير إلى الثانية عشر والنصف بعد منتصف الليل

الرسالة الأولى :

"

مرحباً أنا زينة..

في الحقيقة أنا لست مريضة بأي مرض عضال أو غيره لكنني تعلّمت من مرض أحدهم الكثير، إنّه أبي، بالإضافة إلى أنني أحببت الفكرة وأتمنى المشاركة أو تقديم المساعدة بأي شيء كان أستطيع فعله لنجاح تلك الفكرة وذلك المشروع الرائع.

سأتكلّم عن تجربتي مع المرض أي مرض أبي رحمه الله.

نحن ثلاث فتيات في المنزل وأنا الكبيرة بينهم، كان والدي حنوناً جداً معنا رغم صرامته أيضاً، كنّا إن أردنا شيئاً ما منه نتعمد طلبه من والدتي أولاً تهويناً علينا الطلب من أبي لا لشيء إلا لهيبته بنظرنا التي طالما كنا نخشاها لكنه أبداً لم يكن يبخل علينا بأي شيء بل على العكس كنا إن طلبنا شيئاً جاءنا به فوراً وبأضعاف ما طلبناه أيضاً.

قد دخلت كلية الاقتصاد بجامعةٍ خاصة بطلبٍ من أبي رغم أني لست مضطرة لدخول جامعة خاصة تتطلبُ دفع مبالغٍ طائلة، كان أبي قادراً على دفعها ومع ذلك لم تكن ضرورية لكني سعدت بذلك خاصة أني تعودت أن أكون مميزة بين صديقاتي ومدللة كما أخوتي عند أبي.

عشنا سنيناً رائعة في حياة أبي حياة تتمناها فتيات كثيرات لم أكن آبهة بشيء في هذا الكون وهذا العالم سوى بنفسي وبالأشياء التي يمكن أن تسعدني وتجعلني تلك الفتاة المميزة بين كل الفتيات من حولها كما أخواتي اللواتي يصغرنني بسنوات عدة، الأولى تصغرني بخمس سنين أما الثانية بتسع سنين.

كنت أخرج وأدخل وأصحو متى وكيفما شئت، أشتري وألبس وأصرف بالطريقة التي أحب دون أن أفكر عن ذلك المال الذي بيدي ماذا لو جاء يوماً وانتهى !

أو حتى ما هو مصدره !

وكم تعب والدي بجمعه لأجلنا !

أو على الأقل قدّرت يوماً تعب والدي به لأجلنا.

منذ أكثر من سنة تعب والدي ونقلناه للمستشفى لنعلم بعد عدة

فحوصات وتحاليل أنّه مصاب بسرطان الرئة. لقد بات متعب جداً بعد أن استفحل به المرض. في هذه الفترة كان يجب أن يستمر عمل أبي.

عمل أبي كتاجر قماش لأضخم المحلات في المنطقة، كان عمي عاملاً لديه في المحل، لذا كان لابد منه أن يستمر بعمل والدي بعد مرضه كونه على اطلاع بكيفية سيره، أما نحن فلم نكن نهتم أو نلتفت لمثل هذه القصة كان المهم بالنسبة لنا أن يبقى عمل أبي مستمراً وعمي أولى الناس بإدارته.

استمر علاج أبي طويلاً من عمليات وصور وتحاليل وعلاج كيميائي وإشعاعات وغيره.

بعد فترة من مرض أبي وجدنا أن حسابه في البنك قد صّفر، أمّا نحن لم نكن قد سحبنا كل هذا القدر من المال الذي يُنْهي رصيد والدي في البنك بهذه السرعة وخاصةً أن عمله مازال قائماً.

كان لدى عمي توكيل لسحب ما يريد من الحساب لصالح العمل طبعاً، مع الوقت اتضح لنا أن عمي قد سحب كل المال لصالحه كونه يلعب القمار، وفي الفترة ذاتها تعب والدي جداً لم نكن قادرين على اعلام أبي بتلك الحال التي أوصلنا إليها عمّي. بعد مدة اكتشفنا أيضاً أن عمي قد باع بضاعة المحل كلّها تقريباً لأجل لقمار وأعلن افلاسه ولم نعد نراه اطلاقاً،وبأي وجه سيرانا!

كنت أرى والدي كم أصبح ضعيفاً أمامنا أضعف حتى من أن يواجه عمي، هكذا كنا نراه بجسده المريض لذا كان من الصعب علينا أن نخبره بأيّ شيء.

حوّل قوته المعهودة لمواجهة مرضه الذي جعل منه رجلاً نحيلاً ضعيف

الجسد ومع ذلك كان قادراً على استيعاب أوجاعنا أكثر منّا، والدتي عملت جاهدة على اخفاء الحالة المادية التي أصبحنا بها أمام والدي ربما أخطأت أو أصابت لا أدري، كان عليّ أن أقوى بنفسي لأجل والدي ولأنّه لا ينفع أن نبقى هكذا منتظرين فرج الله على شكل مطر وحسب كان عليّ أن أفكر هذه المرة بمسؤولية أكبر اتجاه نفسي وعائلتي.

علينا أن نتحرك وإلا سنصبح بلا مال ونحن أحوج الناس إليه هذه الأيام خاصة لأجل علاج والدي. أمي كانت هادئة وصامتة على الدوام وكأننا لسنا بمصيبةٍ كبيرة.

أولاً تركت جامعتي مضطرة، فلم أعد أحتمل دفع أقساطها الكبيرة كما المعتاد حتى أنني امتنعت عن النقل إلى جامعة أخرى عامة بالمجان بسبب المصاريف أيضاً التي يصعب عليّ تأمينها ونحن في حالتنا هذه، تركت جامعتي من قرارة نفسي وبدأت أفكر بالبحث عن عمل يؤمّن لنا نسبة بسيطة من مصاريفنا بالإضافة إلى علاج أبي.

لم يكن لدي أي خبرة بأي عمل لم أعرف بحياتي سوى الصرف وحسب ولم اضطر يوماً للعمل أما الآن فأقف أمام خيار مهم في حياتي بعد تركي للدراسة والجامعة، لم يكن هناك خياراتٍ كثيرة للعمل فكرت لكن لم يطل التفكير خاصةً أنني أرى والدي أمامي يحاول تقويتنا وهو لا يعلم حقيقة المأساة التي نعيشها كان يحاول على الدوام تقويتنا وهو أحوج إلينا لنقويه، ومع ذلك كان يقوى على جسده الضعيف لأجلنا، كان يقوّينا بدل أن نقوّيه، لم يكن والدي يوماً حتى بأيام مرضه إلّا سنداً نأتمن بوجوده في حياتنا.

بتلك القوة توجهت إلى دكان قماش والدي ثم طلبت صديقه المقرب

الذي لم يترك والدي أبداً في مرضه وهو كان أعلم الناس بحالنا وحاله، طلبته يومها وسألته عن كيفية اعادة تعبئة المحل ببضاعةٍ جديدة أما العم سالم فلم يتردد بمساعدتي وتوجيهي على الأقل، أخبرني عن المال الذي أحتاجه لإعادة الحيوية إلى دكان والدي كما السابق وشراء بضاعةٍ جديدة كفيلة بإعادته إلى سابق عهده لم يكن للعم سالم القدرة على مساعدتي بالمال ولكن تعهّد بأن يكفلني عند تجار القماش إن فكّرت أن أستدين القماش منهم.

أخبرت أخوتي ووالدتي بكل ما أفكر به لكن أخوتي كنا خائفات من فكرة عملي بهذه الطريقة واعتبروني جريئة بتلك الخطوة أما أنا فكانت قضاء ساعة واحدة قرب والدي كفيلة بخروجي أقوى فتاة في العالم.

كان أبي يعلّمني القوة بهشاشة جسده وقوة نظراته وضحكاته التي طالما أخفى وراءها ألف عنّة ألم وعنّة.

والدتي أخيراً خرجت عن صمتها عندما رأت اصراري قدّمت لي مبلغاً محترماً للمساهمة بشراء بضائع للمحل، كان هذا المال جزء من رصيد أمي الذي ادخرته لنا لمثل هذه الأيام لقد أعطتني الثقة التي كنت أحتاجها، وبالفعل بدأت تجارتي بل أكملت تجارة والدي وأعدتها إلى سابق عهدها تقريباً، اضطررت إلى الاستدانة بنسبة قليلة لأنطلق بتجارة أبي من جديد.

في البداية كنت بمفردي في المحل، كان يجب أن أوّفر من مصاريف العمل قدر استطاعتي، لم أشأ توظيف ولو حتى صانعٍ بسيط في المحل وأيضاً لم يكن من السهل أن أفهم طبيعة العمل بسرعة، دائماً ما احتجت العم سالم لتفهّم ما يصعب عليّ فهمه وبعد مدة والحمد لله عاد العمل تقريباً إلى ما كان عليه أيام والدي.

مات والدي.. كانت وفاته مؤثرة للغاية، أحسست بالضعف الشديد. الفتاة عندما تفقد والدها تفتقد الحياة بأسرها خاصةً عندما تكون بلا أخٍ أيضاً.

تحتاج الفتاة لسندٍ على الدوام، ليس بالضرورة أن يكون السند مادي أحياناً نكون أحوج للسند المعنوي أكثر من المادي، الفتاة مهما كانت قوية ولها كيانها لن تكتمل قوتها دون شعورها بالأمان، والأمان لا يأتي إلا برجلٍ تستند إليه عند شعورها بالخوف من أيّ شيء كان في هذا العالم الموحش، هكذا شاء الله أن تكون الأنثى بكامل رقتها، احساسها بالقوة لا يمكن أن يكتمل إلا بوجود رجل تستند إليه وقت الشدة أو لنقل وقت حاجتها.

طالما غطى والدي تلك الحاجة وذلك الشعور أنا الآن وبعد وفاة والدي بسنة وشهرٍ تقريباً قد أعدت دكانه للعمل ووضعت عليه من يؤتمن به ويستطيع إدارته بشكلٍ جيد، ثم نقلت أوراقي الجامعية إلى جامعة أخرى عامة لا تكلفني أقساطاً كأقساط الخاصة التي كنت طالبة فيها والحمد لله أتممت حالياً السنة الثالثة وانتقلت إلى الرابعة.

مرض أبي جعلني أعرف نفسي أكثر وأثق بها وبقوتي أكثر وأكثر، عرفت من خلاله أن الموت يأتينا فجأة لذا علينا أن نستعد له على الدوام علينا أن نحسب له حساباً وحساباً لساعات حياتنا التي يجب أن تمر بما يرضي الله يوم الحساب.

أعتذر للإطالة وأتشرّف بعرض تجربتي إن كانت ستعود بالفائدة ولو لإنسانٍ واحدٍ فقط في هذه الحياة.

"

الرسالة الثانية :

"

أنا لارا كنت في الثالثة والعشرين من عمري عندما نمت على حرارة عالية وتعب جسدي، حمّى قوية هاجمت جسدي نُقلتُ على إثرها إلى المستشفى ليلاً وبشكلٍ اسعافي، حينها لم يفهم الأطباء حالتي إلا بعد تشخيصها بعدة أيام واكتشفوا أني مصابة بالسرطان.

كنت أعيش قبل هذه الليلة حياةً طبيعية كأيّ فتاة عادية، طالبة في كلية الآداب مخطوبة لشاب يكبرني بثلاث سنوات قريبي من جهة أبي، ابن خاله بالضبط، لم نرتبط عنً قصة حبٍ كانت خطبة تقليدية وفي تلك الخطبة التي استمرت لأكثر من سنة تقريباً تعرّفت على خالد خطيبي بشكلٍ جيد كما اعتقدت بوقتها، كان رجلاً تليق به الرجولة، كريم يحبني يهتم بي ولًا ينقص عليّ أي شيء كان ومهما كان صغيراً أو كبيراً، أحببته لطيب خُلقه وأخلاقه معي أنا لم أحبّه وحسب بل أنا جعلته مصدر قوتي، لقد كنت يتيمة الأب وأعيش مع جدتي في بيتها الكبير أنا وهي فقط بعد أن تزوج جميع أعمامي وعماتي، أمّا والدتي فبعد وفاة والدي بحادث سير وأنا في الثالثة من عمري وعندما بلغت الخامسة تزوجت، كانت صغيرة تزوجت من رجلٍ مطلّق وسَافرتْ معه إلى قطر حيث عمله ولم أعد اراها كثيراً إلا مرة كل سنةً أو سنتين أو أكثر، باتت غريبةٌ عني وأنا تعوّدت ذلك. اعتدت الحياة مع جدتي كوحيدتين في المنزل لكنّا كنّا سعيدتين معاً ولا ينقصنا شيء، خاصةً أن أعمامي كانوا يوفرون لنا كلّ ما نحتاجه مع ذلك كان ينقصنا القليل من الأمان والقوة في المنزل، بعد

ارتباطي بخالد ارتحت كثيراً وأحسست أني أتممت ما ينقصني في حياتي معه.

بعد تلك الليلة التي اكتشفت بها مرضي تغيّر كل شيء، رغم حاجتي لخالد في تلك الأوقات لم أعد أجده، بدأت أبحث عنه قربي لكنّه أصبح يبتعد عنّي يوماً بعد يوم، جعل منّي تلك الفتاة الغبية التي تنتظر زياراته اليومية التي من المفترض أن تقويها إلّا أنّ تلك الزيارات تحولت إلى مكالمات في البداية.

سألته مراراً عن سبب ذلك التحول، جاء لي كل يوم بحجةٍ جديدة وكلما شكوت غيابه عنّي وأنا في قمة احتياجي له اعترض بشدة وبدأ قسوته الغير معتادة، لم أكن أعرفه هكذا ولم أعتد عليه بهذا الشكل ولا أخفيكم أنّي بدأت أشعر بتأنيب ضمير ظننت أنني المذنبة خاصةً بعد مرضي، ربما أصبحت لا أطاق بضغطي الكبير عليه هذه الفترة، لقد تعبت جداً بسببه بالإضافة إلى تعبي من المرض والعلاج الكيماوي الذي يتعدى ألمه ألم الكون بأسره. في البداية صرت أبحث له عن الأعذار على الدوام ، كنت أعذره في كلّ مرة ألف مرة لكنّه كان يعرف تماماً أني لن أصبر طويلاً وسأنفجر في النهاية لأخبره أني لم أعد أطيق ما يفعله بل لم أعد أحبه ولا أريده وحدث ذلك بالفعل لقد أحسست أنّي لم أعد أطيقه فعلاً وأخبرته أننا من الصعب أن نستمر هكذا. من شدة دهائه جعل من نفسه الضحية وأنّي تلك المجرِمة المتسببة بخراب العلاقة، إنّه الشر والخبث الذي يُدخلك بسبب من تُحِبْ في دوامة من العذاب وتأنيب ضمير وشعور بالذنب أحياناً كثيرة بالرغم أنه ليس لك لا حولاً ولا قوة بكل ما جرى. لا أعلم كيف يمكن وصف أولئك الذين يتصرفون بتلك الطريقة الأنانية دون أدنى احساسٍ أو شعور

بأيّ أحد ارتبط بهم يوماً ما حتى أنّهم يخططون لتبرئة أنفسهم بأخذ دور المظلوم بدل الظالم، يخوضون تلك التمثيلية لا ليبرؤون أنفسهم وحسب بل ليزرعون العذاب داخل قلوب أناسٍ أحبتهم بصدق لا أدري ما طبيعة هذا القلب الذي يحملون..

قلوبهم قاسية جداً، في البداية كنت أراه بتلك النظرة وحسب ولكن فيما بعد اكتشفت كم أنا ساذجة لقد تركته وأنا بقمة ضعفي الجسدي وبكامل قوتي أيضاً للإقدام على مثل تلك الخطوة التي لم أكن لأفعلها وأنا بكامل صحتي، جدتي لم تعلم حقيقة الأمر اعتقدت أنني تركت خالد لأجله، خاصة بعد مرضي، اعتقدت أيضاً أن خالد قد تأثر جداً بقراري هذا وكان حزيناً، لقد أوحى لها أيضاً كما أوحى لي أنه لا ذنب له بكل ذلك وأنه ليس ذلك الحقير الذي يترك حبيبته عند مرضها وهي في قمة احتياجها له ولكن كان ذلك اختياري. لقد فكرت كثيراً بعد كل ما حصل لي ورأيت من مرضي سبباً لكشف حقيقة خالد أمامي، حمدت الله كثيراً أنني اكتشفت خالد قبل زواجنا، اكتشفته وأنا في أصعب الأوقات في حياتي، اكتشفت من كنت سأرتبط معه طول حياتي، من كنت سأربط اسمه بأولادي الذين طالما حلمت بهم مع أب يليق بهم وبأسرة طالما خططت لها وضعني المرض في حالة قوة أمام قرار كان من الممكن أن يكسر قلبي لولا مرضي الذي جعل مني فتاة أقوى من سابق عهدها، أصبحت أعرف الآن أن لا أحد يمكن أن يقويك في هذا العالم سوى نفسك أنت من الداخل، أنت وحدك مصدر القوة والأمان لك ولكلّ من حولك أيضاً، أنا مازلت مريضة إلى هذه اللحظة لكني مؤمنة أن المرض جاء بقدرٍ من الله ولخيرٍ ما، وأول الخير كان قراري بترك خالد.

أحمد الله كثيراً على قدره أتمنى الشفاء العاجل لي ولكل مريض والقوة لي وللمرضى جميعهم ولغير المرضى أيضاً.

الرسالة الثالثة :

"

السلام عليكم

سأكون سعيداً جداً لو شاركت بفعاليتكم، لقد عانيت كثيراً مع المرض، وسأحكي لكم قصتي معه :

لقد كنت سجيناً منذ عدة سنوات لأسباب لن أذكرها فلا أظنّ أنها مهمة، الأهم أنني كنت سجيناً بظروفٍ سيئة وحالتي كانت مزرية للغاية عانيت الكثير والكثير لكن في النهاية كنت سجيناً لا أكثر، وبسبب أوضاع السجن التعيسة أصبت بمرض السل لقد دخلت السجن لارتكابي خطأً ما في حياتي، كنت أحمقاً نعم وكانت أيام سجني أصعب أيام حياتي ولكن جاء تشخيص مرضي هو الأقسى والأصعب ف كلّ ما مر في تاريخ حياتي كلها كان اختباراً قاسياً جداً رغم أن المرض كان السل وليس السرطان مثلاً،السل قابل للعلاج في النهاية هناك أمل على الدوام هكذا كان يواسيني بقية السجناء الذي مر بعضهم بنفس المرض أيضاً ، المشكلة كانت بأنه ممكن للمرض أن يقوى عليك طالما أنه لا أحد سيقدم لك العلاج أو العناية فأنت وحدك مع المرض وبسجن لا طاقة له ولا سماء.

انطويت على نفسي وانعزلت بها عن كل السجناء واستسلمت لوضعي الذي لم يتغير عمّا كان عليه قبل المرض، كنت مستسلماً أيضاً لحالي الذي لم

أكن أعرف نهايته، فأنا لم أُحاكمْ أو يصدر حكماً في قضيتي، كنت مستسلماً دون مرض حتى، وعندما جاء المرض شعرت بأن جديداً قد طرأ على حالي، انعزلت بنًفسي وفكّرت طويلاً أن أقوى على مرضي حتى أستطيع استكمال ما تبقى لي من الحياة هنا، وهنا علينا أن نقوى حتى نستمر وإلا سنموت مستسلمين لا أكثر.

جاء المرض ليكون سبباً في اخراجي من السجن، ألحقوني بمصح وذلك لحسن حظي كما أخبرني السجناء ومع ذلك رفضت العلاج في البداية وأخبرتهم أن يعيدوني لأموت سجيناً كما كنت أحسب مصيري هناك، لكن لحسن حظي أو لسوئه لا أعلم لم يكترث أحداً لرغبتي وضعوني في حجر صحي لبدء العلاج ولحسن حظي فعلاً تلقيت العلاج من ممرضين وأطباءً يستحقون حمل هذا اللقب، في هذه الأثناء جلست مع نفسي كثيراً وحدّثتها كثيراً ووجدتها أخيراً.

تابعت علاجي بانتظام وبكامل الاصرار على العلاج والشفاء أردت أن أحمل أحلام أولئك السجناء الذين تمنوا لو أنهم كانوا مكاني بالمرض ونصحوني العديد من النصائح من بينها أن أقوى على جسدي وأتوق بنفسي إلى الحرية التي لن أنالها إلا بشفائي من المرض وبالفعل بعد انتهاء مدة العلاج قد شفيت تماماً، تم اخلاء سبيلي أخيراً لا أدري كيف ولماذا !

لقد خرجت بنفسي من سجن حقيقي إلى سجن جسدي، ثم إلى الحرية. هنا أدركت معنى الحياة التي استًسلمت لها يوماً وأنًا في السجن.

أنا الآن مستعد لأن أساعد الناس على قدر ما ساعدني الكثير في أوقات حاجتي لهم، الآن هناك من يحتاجني ربما بكلمة وحسب وأنا أتمنى ذلك

وجاهز لذلك.

الحياة تستحق منّا بعض الاصرار على الاستمرار لأجل من نحب لأجل أجسدانا وصحتنا وأنفسنا ثم عائلاتنا الحالية وحتى المستقبلية التي طالما حلمنا بها.

سليم محمد

الرسالة الرابعة :

....

وصل محمد إلى الرسالة الرابعة ثم استسلم للنوم أخيراً كانت الساعة أصبحت تشير إلى الواحدة والثلث تماماً.

مساء اليوم التالي أتمّ محمد قراءة الرسائل الكثيرة جداً التي وردت إليه وبشكل كثيف، وبعد اتمامه القراءة اتصل مع سعد على الفور، كان سعيداً جداً، أَولاً لكثرة المعجبين بالفكرة والمقبلين على الفعالية وأيضاً بسبب ما قرأه في تلك الرسائل وتأثّر به بالفعل، لقد كانت تجارب مؤثرة فعلاً :

– مرحباً حبيبي وصديقي سعد

– أهلاً أهلاً

ما سر السعادة يا صديقي ؟

– أظننا سننجح بمشروعنا يا سعد

– قل بمشروعك إنه مشروعك

– مشروعي وأصبح مشروعنا، خاصةً أن أصحاب الرسائل أغلبهم من

سوريا ومصر يا صديقي

– جميل وماذا تنوي الآن ؟

– مازالت الرسائل مستمرة إلى هذا الوقت، لكن مبدئياً أظن أنّه من الصعب عرض كل تلك التجارب التي وصلتنا

– أخبرني ماذا تنوي بالضبط ؟

– الآن نحن بحاجة إلى مكان لعرض التجارب سواء في سوريا أو مصر

– مكان مثل ماذا ؟

– مسرح مثلاً أو حتى صالة كبيرة نضع بهام قاعدة مناسبة للحضور

– ومن أين سيأتي الحضور

– سعد يا سعد سنقوم بنشر مكان وتاريخ لبدء فعاليتنا على الصفحة ذاتها والمشاركين سينشرون معنا طبعاً

– جميل أيضاً

– أما دورك سيكون تأمين المكان المناسب في مصر

– سيكون هناك فعاليتان اذاً

– فعالية واحدة بمكانين وزمانين مناسبين هنا في سوريا وفي مصر حيث أنت

– حسناً فهمت عليك...

ألا ترى أنك أصبحت شغلي الشاغل يا محمد وكأنه ليس لديّ شغل أخر

سواك ؟!

– ولم لا يا صديقي إنه مشروعنا نحن الاثنان لا تنسى

– نعم نعم نسيت، أعطني الآن القليل من الوقت لتأمين اللازم أظنه لن يكون صعباً لا تقلق

– حسناً لا تتأخر حتى لا يبرد حماس المشاركين أو أن يزداد عددهم ويصعب السيطرة على العدد مثلاً

– نعم لكن عليك يا محمد الاجتماع بمن سيشارك معك بالفعالية بأسرع وقت أيضاً للاتفاق على الاجراءات والخطوات الواجب عملها والتدرب عليها

– إن شاء الله سأتكلم مع الجميع وأتفق على مكان مناسب للاجتماع

– الله الموفق يا صديقي

– نعم يا سعد لكن أنت أيضاً يجب أن تجتمع مع المشاركين في مصر

– لا تقلق أرسل إلي رسائلهم وعناوينهم للتواصل معهم

– سأرسلها حالاً لكن أرجوك يا سعد لا تتأخر

– على الفور بعد أن أستلمها منك سأقرأ وأراسلهم على الفور

– إن شاء الله.. لم تخبرني عن أحوالك

– تذكرت أخيراً !

– أعتذر أخذني الحماس ونسيتك

- أنا بألف خير والحمد لله لقد عدت إلى العمل في عيادتي الآن كما السابق والحمد لله

- وفقك الله ورعاك أيها الصديق الحبيب.. أستودعك الله

- إلى اللقاء

لم يتأخر محمد على الاطلاق بإرسال رسائل إلى كافة من أرسل له، جعلها رسالة واحدة للجميع كالتالي :

" مرحباً أنا محمد عبد الحليم صاحب الفكرة ولدي تجربة أيضاً تشبه تجربتك وتجارب جميع المرسلين لي. نحن الآن بحاجة إلى مكان لنجتمع به ونحدد الخطوات التالية لمشروعنا لقد أصبح هذا المشروع يخصك كما يخصني ويخص جميع من أرسل لي تجربته أحتاج بعض الوقت لتحديد وتأمين المكان المناسب مبدئياً لاجتماعنا ثم لتأمين مكان أو مسرح لعرض تجاربنا أمام الناس إن شاء الله، عندما أجد المكان المناسب سأخبر الجميع، طبعاً سيكون هناك تجمعين هنا في سوريا وأخر في مصر مع صديقي الدكتور سعد.. أشكركم جميعاً لقد أدخلتم الفرح والقوة إلى داخلي بتلك الرسائل التي قرأتها من الجميع

سننجح بفعاليتنا إن شاء الله وسنحقق نتائج رائعة بإذن الله..

تصبحون على خير "

أرسل تلك الرسالة إلى الجميع من بينهم سعد أيضاً مع باقي الرسائل التي أرسلها إليه ولم يلبث أن ينتهي حتى وصلت إليه رسالة عبر تطبيق الفيسبوك من زينة صاحبة الرسالة الأولى :

- مرحبا أنا زينة أرسلت لك رسالة البارحة

- نعم لقد قرأتها أهلاً بك يا زينة أنا محمد

- أهلاً بك

- أردت أن أخبرك أنني أستطيع تأمين المكان المناسب

- حقاً ؟

- نعم

- لدينا منزلٌ عربي كبير هو لجدتي رحمها الله وقد تَرَكَتْهُ لأمي وهو مغلقٌ منذ زمن تقريباً، أظنّ أنّه يحتاج بعض الترميم والترتيب ونحن لا نحتاجه هذه الأيام لذا مازال على حاله إلى الآن، أعتقد أنه بقليل من التنظيف والترتيب سيكون جاهزاً ومناسباً بالفعل لما نريد

- جميل جداً، هل يمكن أن أراه صديقتي ؟

- بالتأكيد

- ما رأيك غداً ؟!

علينا أن نسرع التجهيزات

- بالطبع أنا موافقة وبأي وقت تريد

- أظن أنه يمكن أن نراه غداً بعد الرابعة عصراً ما رأيك ؟

- نعم موافقة

- ما العنوان ؟

- ما رأيك أن نلتقي عند مسجد النور القريب من المحكمة

- ممتاز أنا أعمل هناك في البنك المركزي

- أجل عرفته سأمر عليك عند الرابعة

- حسناً صديقتي.. أخبريني كيف حالك ؟

- أنا بخير والحمد لله

- كيف حال جامعتك ؟

- بألف خير.. أنت تذكر قصتي اذاً !

- بالتأكيد قصتك وكل قصة قرأتها استوطنت برأسي

- وأنت لك قصة أيضاً !

- أه قصة طويلة جداً صدقيني

- وما هي ؟

- لا دعيني أقصّها بيومٍ أخر وربما أمام الجميع

- حسناً أعتذر لتطفلي

- لا لا على العكس من حقك عليّ أن أقص لك كما قصصت لي حكايتك، لكن دعينا لا نستبق الأحداث

- إن شاء الله

- لقاءنا غداً يا زينة بإذن الله !

- بإذن الله

- تصبحين على خير

زينة..

أصبحت زينة في الخامسة والعشرين من عمرها، سمراء جميلة جذابة، بعينين واسعتين ذو لون بني وشامة صغيرة على الخد الأيمن وشفتان ورديتان مكتنزتان وقوامٍ طويل وجسمٍ ممتلئ، كانت فتاة جميلة جداً.

بعد مرضٍ والدها التزمت بدراستها وأصبحت شخصيتها أنضج من السابق وأقوى ايضاً.

في تلك الليلة التي تحدّثت بها زينة مع محمد نامت سعيدة، ربما شعرت بسعادة لأنها سَتُقْدِم على المشاركة بمشروع يعطيها فرصة للتكلم عن تجربتها أمام أناس كثر، والمساهمة بمثل هذا المشّروع باتت أكبر بعد أن عرضت تنفيذه في بيت عائلة والدتها القديم، بالإضافة إلى أنّ حديثها مع محمد كان مريحاً بالنسبة لها أيضاً.

أحياناً نستشعر الخير مع بعض الناس منذ اللحظات الأولى. من اللحظة الأولى نجد أنفسنا بحالة راحة لم نشعر بها منذ زمن تكون حالة غريبة ونادرة وأولى.. حالة ولحظة لا يمكن تفسيرها مهما كانت احداثياتها، هي لحظة أولى في حياتنا وحسب. لحظة تنقلك من عالمٍ إلى عالمٍ أخر.

كان لزينة غرفتها الخاصة في المنزل أما أختاها الصغيرتان لهما غرفة أخرى مشتركة بينهما لكن وكأي فتيات في بيتٍ واحد يستحيل أن تعيش واحدة بعيدة عن الأخرى، كانت شقيقتها التي تصغرها بخمس سنوات رغد

تستوطن غرفة أختها على الدوام تسرّ لها يومياتها بالتفصيل وتتناقشان معاً بأمور عدة وربما تنمّان أحياناً على أصدقاء وصديقات هنا وهناك هكذا إلى أن تستسلم كلّ منهما إلى النوم وكم من مرةٍ بقيت رغد نائمة بالقرب منها في غرفتها وعلى سريرها ذاته أيضاً.

في تلك الليلة كانت رغد كعادتها تجلس مع زينة وتحدّثها عن مجريات نهارها هذا اليوم إلّا أن زينة كانت شاردة أمام حاسبها بعد أن أنهت كلامها مع محمد، بقيت شاردة تعيد قراءة رسالتها إليه مرة وأخرى تستعيد كلامه معها وتفكّر بالقادم في تلك الفعالية وكيف ستكون مشاركتها به :

– زينة أنا أكلمك منذ ساعة وأنت لا تفعلين سوا الهز برأسك وكأنك لست بحاجة لتسمعين حديثي

– رغد أرجوك لماذا تختارين وقت تفكيري بأمرٍ مهم وتبدئين بالإلحاح والكلام الذي لا ينتهي !

– لا ينتهي !

– إنّه أمرٌ مهم ؟!

– وما هذا الأمر المهم أخبريني هيّا !

– حبيبتي رغد أنصحك بأن تذهبين إلى غرفتك حالاً أظن أن سارة أختنا الصغيرة تنتظرك هناك لتحكي لها حكاياتك حكايات ما قبل النوم

– زينة !!!

أنا أكلمك عن كل أموري المهمة وأنت الآن ترفضين اخباري عن أمرك

المهم هذا

– أنا سأشترك بفعالية تم نشرها على الفيسبوك اسمها ملهمون، وقد تلقيت رسالة منذ قليل من صاحب هذا المشروع يخبرني به عن حاجته إلى مكان مناسب لتنفيذ المشروع وكنت أفكر بمنزل جدتك ما رأيك ؟

– البيت العربي القديم ؟

– نعم

– لا بأس، وأظن أن أمك لا تمانع مادامت فكرة المشروع جيدة

– كنت أفكر بذلك أيضاً، لذا أخبرت محمد عن بيت جدتك وغداً سنذهب معاً ليراه

– من محمد ؟

– صاحب المشرووووع يا رغد

– أه نعم نعم وهل أخبرتِ والدتك ؟

– سأذهب لأخبرها الآن

– هيّا أسرعي قبل أن تنام

– سأذهب أهربي أنت عن وجهي أولاً فأمك لن تمانع بالتأكيد

– حسناً تصبحين على خير أنسة زينة

في البيت العربي..

كان بيتاً دمشقياً كبيراً مازال بناؤه كما العمار الدمشقي القديم، أحجاره ضخمة وكبيرة وخشبه مزخرف على الطراز القديم، فيه ساحة كبيرة ونافورة وسط أرض دياره كما يسمونها، على جوانب أرض الديار حديقة بسيطة مليئة بالشجيرات والأزهار بالإضافة إلى العريشة.

العمارة الدمشقية هي عمارة مميزة وخاصة فنية لا يمكن تكرارها، كان البيت مازال محافظاً على رونقه القديم والطراز نفسه لم يطرأ عليه أي تحديث إلّا أن الاهمال بدا واضحاً فيه.

اجتمع محمد بزينة في البيت العربي وقف مندهشاً لجمال عمارته وقدمه وعتقه الذي جعل منه تحفة فنية نادرة :

- مكانٌ رائعٌ يا زينة.

لما مهملٌ هكذا؟

- لا أعلم يا أستاذ لكن الظروف التي مررنا بها مؤخراً ومرض أبي رحمه الله كما تعلم قد أنستنا هذا المنزل، كان خاص باهتمام أمي، تهتم به وترعاه دائماً لكن مرض أبي أنساها العديد من الأمور من بينها هذا المنزل.

- حرام أن يبقى هذا المنزل هكذا، على الأقل يجب الاهتمام به كأثرٍ فني.

- البارحة عندما أخبرت والدتي بالفكرة وبحاجتنا للمنزل بدت سعيدة

جداً، وأخبرتني أن يبقى المنزل تحت تصرفنا طالما أننا نقوم من خلاله بما يمكن أن ينتفع به الآخرين سُعدتْ جداً بفكرة مشروعك وسعدتْ أكثر من فكرة استخدام هذا المنزل في تنفيذ هذا المشروع تحديداً، لقد حمّلتني سلاماً كبيراً لك وهي من الآن أولى الحاضرين عند الانتهاء من التجهيزات وإتمامها.

– بلّغيها سلامي الحار جداً.الآن يا زينة علينا أن نقوم أولاً بتنظيف المنزل وصيانته قدر الإمكان، ما رأيك ؟

– وكيف هو حاله من الداخل ؟

– في الداخل لا يوجد أثاث على الإطلاق

– بكل الأحوال نحن لن نحتاج إلّا هنا، أرض الديار مع الصدر في المنتصف أظنه مكان متسع وجيد جداً، سنقوم بعد التنظيف بترتيب مقاعد مناسبة وتجهيز منصة بسيطة فيها كل ما نحتاجه أثناء العرض وبإذن الله سنكون جاهزين للانطلاق بالمشروع.

– إن شاء الله

– سأذهب حالاً لتأمين فريق من العمّال للبدء بالتنظيف، أولاً أرض الديار مع الساحة والصدر والحديقة

ما رأيك ؟

– معك بالتأكيد وأنا سأهتم بالتكاليف

– لا لا بالطبع يا زينة، لا تهتم للتكاليف، أنا لا أعرف كيف سأشكرك على تأمين مثل هذا المكان، أنا عاجَز عن شكرك بالفعل يا صديقتي

- العفو. لا تنس أنّي أصبحت عضواً في الفريق

خرجا معاً من المنزل بعد أن سلّمت زينة المفتاح لمحمد واتفقتا على أن يبدأ بتجهيز المكان من هذه اللحظة كما أخبرها.

توجّه محمد مباشرةً بعد أن ترك زينة إلى أقرب شركة تنظيف وطلب فريق للتنظيف ولإصلاح المنزل بما فيه، ثم انطلق إلى مكانٍ أخر لتأمين مقاعدٍ مناسبة واستعان بصاحب ورشة في سؤاله عن امكانية تركيب منصة صغيرة لتنفيذها في صدر المنزل، بعدها توجه إلى أقرب مكتب حواسيب وميلتيميديا لتجهيز ما يلزمه من مستلزمات للعرض والصوت وغيرها.

قام بتجهيز كل هذه الأشياء بسرعةٍ كبيرة، كان متحمّس جداً خاصةً عندما رأى المكان الرائع الذي سيتم تنفيذ العرض خلاله.

عاد محمد في هذا اليوم متعب للغاية ولكنه سعيد جداً بما رآه من جمال في البيت العربي وبما أتمّ انجازه إلى الآن من أجل مشروعه ملهمون.

زينب في هذا اليوم قامت كما كلّ مرة باستقباله عند غرفته، دخلت معه الغرفة وسألته عن سر تغيّر حاله وعن انشغاله الدائم هذه الأيام، بالرغم أنه لم يكن يخفي عنها أي شيءٍ في السابق لكنّه بات الآن يخفي الكثير، لم تعد زينب تعرف عن محمد إلا أنه لم يعد محمد الذي كان، حتى أصدقاؤه لم تعد تراهم الآن كأنهم لم يكونوا في حياة أخيها يوماً، وأهمهم أسامة الذي اختفى تماماً عنه وعنها وانقطعت أخباره عن العائلة جميعها،

أرادت زينب من شقيقها في الفترة الأخيرة أن يسرّ لها أخباره الجديدة لكن محمد إلى الآن مازال صامتاً عن التحدث معها عن أي شيء. في هذا

اليوم بدت سعادة محمد واضحة على وجهه عند عودته إلى المنزل وهذا ما استفزّ زينب لسؤاله عن سره في تلك السعادة :

- ما بك ما بك يا زينب، ها ؟

- ستعترف لي اليوم وإلا لن أخرج من هنا أبداً

- يا لك من شريرة. حسناً كنت سأخبرك في كل الأحوال

- أخبرني هيا ما سر هذه السعادة ؟

- هذه السعادة جاءت اليوم لسبب مهم، اليوم بدأت بتنفيذ مشروعي الذي كنت أخطط له منذ مدة

- وما هو؟

- مشروعي هو انشاء جمعية خاصة بالمرضى الذين لهم تجاربهم الخاصة مع المرض.

في هذا المشروع سنرى المرض من جانب ايجابي، كل عضو يصبح ملهماً للناس بتجربته الايجابية مع المرض وسنعرضًها أو يعرضها كل عضو بشكلٍ ايجابي عبر فعالية خاصة سيؤثر بها على الناس ويصبح ملهماً

- كيف سيعرضها

- هل تعرفين TEDx ؟

- نعم نعم فهمت، سيقوم كل ملهم بعرض تجربته مع المرض بشكل ايجابي على منصة مثلاً لتعود بالفائدة على من يستمع من الحاضرين

- نعم هكذا

– فكرة جميلة ولكن الغريب أنك أنت صاحبها، لا أدري كيف خطرت على بالك ؟

وكيف ؟ ولماذا ؟ومتى وأنت محمد الذي كنت ناسياً الدنيا بما فيها وغير آبهاً بنفسك حتى تآبه بالناس ؟ ! وتقوم بتنفيذ مشروعٍ أيضاً يعود بالفائدة لمن حولك منهم !

كيف أصبحت هكذا ؟

– سأخبرك يوماً ما يا أختي لا تقلق، سيأتي اليوم الذي سأحدّثكم به عن كل ما حصل لي وجعلني أنسى أني ملَحد على الأقل، ملحد كما كنت تريني يا زينب

– ومتى سيبدأ العرض وكيف جمعت مشاركين ؟

– قمت بعرض الفكرة على الفيسبوك، سأرسل لك رابط الصفحة حالاً وقد تفاعل معها أناسٍ كثر وجمعت عدة مشاركين، وسر سعادتي اليوم لتأميني مكان جميل جداً للعرض ومستلزماته

– حسناً وماذا بعد ؟

– نسيت أن أخبرك أيضاً أن الفعالية ذاتها ستطبّق في مصر عن طريق صديقي سعد الذي حدثتك عنه مسبقاً

– أريد أن أشارك معك أنا أيضاً يا محمد

– لا تقلق ستشاركين. مهمتك الآن هي دعوة الأصدقاء لحضور الفعالية عندما أنتهيَ من الاستعداد أخيراً وتحديد موعد العرض

- إن شاء الله سأجمع لك العديد العديد من الحضور من كلّيتي والكليات القريبة لا تقلق من هذه الناحية

- جميل يا صغيرتي الآن اخرجي ودعيني أنام متعبٌ للغاية

- حسناً تصبح على خير

- وأنت بخير يا حبيبتي

***

في الصباح..

لم يذهب محمد إلى وظيفته صباحاً، طلب اجازة لهذا اليوم عبر الهاتف ثم توجّه إلى البيت العربي حيث كانت ورشة العمل قد بدأت منذ الصباح بالتنظيف والترتيب وغيرها من الأعمال. كان على محمد أن يراقب العمل عن كثب ويبقيه تحت إشرافه.

جلس قرب بحرة الدار يراقب العمّال، طلب سعد عبر الهاتف أراد أن يسأله عن أخر المستجدات لديه ويحدّثه عن أخباره هنا في سوريا :

- صباح الخير أيها الطبيب

- أهلاً أهلاً

- كيف حالك ؟

- أنا بخير والحمد لله كيف حالك أنت ؟

- أنا بألف خير يا صديقي بل بألف ألف خير

- ما الأخبار اذاً ؟

- لقد باشرت بالتجهيزات بعد أن وجدت مكاناً رائعاً للعرض سيعجبك جداً

- هل هذا صحيح ؟

- نعم والحمد لله، أنت أخبرني هل قمت بأي خطوة جديدة ؟

- لا تقلق يا محمد المكان قد بدأت بتجهيزه أيضاً

- هل وجدت مكان مناسب ؟

- المكان موجود يا صديقي وقد أخبرتك ذلك

- وأين المكان اذاً؟

- لدي مكتب هنا بالقرب من عيادتي سأجعله مكاناً لاجتماع الشباب والتخطيط على العروض أما بالنسبة للعرض سأقوم بحجز المسرح في المركز الثقافي القريب أيضاً يوم العرض، إنّي على معرفة جيدة بالمسئول هناك وسيساعدنا بإذن الله خاصةً أني كلمته البارحة وعرضت عليه فكرة المشروع وقد أبدا اعجابه به فلا تقلق ودعني اذهب إلى عملي الآن

- حسناً جميل جداً يا سعد لقد قمت بما هو أفضل مما قمت به أنا وفقك الله يا صديقي الغالي انطلق إلى عملك والله الموفق

- سلام

في هذا اليوم تم تنظيف المنزل تحت اشراف محمد وترتيبه بمساعدته أيضاً لقد ظهر المنزل بمظهر رائعٍ للغاية، مرّت زينة عند الرابعة عصراً إلى المنزل

لتفقد وضع المنزل بعد التنظيف، خاصةً أنها لم تكلم محمد أو تراسله بأي شيء منذ البارحة.

دخلت المنزل كان الباب الخارجي مفتوحاً أمّا محمد مازال مع العمّال يعملون داخلاً، أحسّت بالفرق من لحظة دخولها الأولى، لقد أصبح للمنزل بهجة الآن بدت واضحة منذ دخولها على الفور، كان محمد يحاسب العمال وما أن انتهى حتى انتبه لدخول زينة التي بقيت هادئة لم تشأ أن تزعجهم بدخولها المفاجئ، ودّع العمال بعد أن أنهى حسابهم ثم اتجه إليها :

- أهلاً زينة

- أهلا أستاذ محمد

- ما رأيك بالمنزل الآن ؟

- رائع جداً جداً لقد أصبح جميلاً

- نحن فقط قمنا بتنظيفه وحسب..

مشى قليلاً ضمن أرض الديار قرب النافورة ثم أشار إلى الساحة الواسعة في الصدر كما يُقال عنه :

- هنا سنقوم بتنفيذ منصة صغيرة وتجهيزها بكل ما نحتاجه إن شاء الله، ما رأيك ؟

- سيكون عملاً رائعاً

- لم تخبريني ما الذي جاء بك إلى هنا ؟

- كنت قد أنهيت دوامي في الكلية ورأيت نفسي قريبة من المنزل فقلت

لنفسي لأرى ما الجديد وهل الأمور تمشي بشكلٍ جيد في المنزل !

– وكيف رأيت العمل ؟

– رائع جداً

– الحمد لله.. دعينا اذاً نخرج الآن

– حسناً

– سأعود غداً إن شاء الله لاستكمال باقي التجهيزات، إن مررت غداً سترين أن الفكرة بدأت بالظهور بشكل أكبر وأوضح وبإذن الله سنعتمد موعد هذه الليلة أو ليلة الغد للاجتماعً معاً هنا في المنزل أيضاً من أجل الاتفاق على مجريات الفعالية وعن كيفية دعوة الناس لحضور الفعالية ما رأيك ؟

– نعم إن شاء الله

– أين منزلك هل بعيد من هنا ؟

– لا لا إنه قريب، قرب تلك الصيدلية هناك. دقيقتين فقط وأصل

– حسناً أنا سأتركك الآن، برعاية الله

– إلى اللقاء

في مساء اليوم نفسه

قام محمد بإنشاء مجموعة للدردشة بين جميع الأعضاء الذين من المفترض بهم المشاركة ضمن الفعالية، اتفق معهم على موعد للاجتماع والاتفاق سويّاً على ما سيقدمونه في العرض وتجهيز أنفسهم لذلك والأهم لتثبيت أسمائهم



كمشاركين والتثبيت يكون بحضور المشارك شخصياً للاجتماع والتأكيد على الحضور أمّا زينة فكانت أول المتحمسين.

مصر.. يوم العرض

اجتمع سعد مع الشباب الذين بادروا بإرسال قصصهم عبر الانترنت للمشاركة بالفعالية، قام بالتجهيز معهم على العرض في مسرح المركز الثقافي بعد أسبوع من ذلك الاجتماع لذا كان على كلّ منهم التجهيز للمشاركة بشكلٍ جيدٍ في الفعالية.

أصبح عدد المشاركين مع الدكتور سعد في مصر ثمانية أشخاص بالضبط قد ثبّتوا أسمائهم لديه وقاموا بتنفيذ عروض تجريبية فيما بينهم للتدرب على العرض في وقته المحدد، كان من بين المشاركين طبعاً اسم الدكتور سعد كمشاركٍ أيضاً. الموعد الذي اتفقوا عليه كان يسبق موعد الفريق السوري بخمسة أيام بالضبط كان محمد قد أخّر موعد العرض متعمداً، وذلك للوصول إلى عَرضٍ مهم خالٍ من أي خطأ ممكن أن يكون، خاصةً أن العرض سيكون بمكانٍ قد تم تجهيزه حديثاً كالبيت العربي ليس كالمركز الثقافي المجهز بكامل التجهيزات اللازمة للعرض في مصر.

أصبح الآن الفريق المصري حاضراً للعرض، واليوم هو يوم العرض في مصر هذا اليوم الذي انتظره محمد بلهفةٍ وحماسٍ كبير منذ أن أزهرت الفكرة برأسه والآن بدأت تثمر، كان قلبه ينبض أكثرَ من قلب سعد المتواجد ضمن الفعالية الآن، وأكثر من قلوب المشاركين المنتظرين بدء العرض.

أمّا المتواجدين كانوا كُثر على عكس توقعات سعد ومحمد، من بينهم

أقرباء وأصدقاء ومعارف للمشاركين، وغيرهم لا يمتّون بأي صلة لأيّ منهم، هم أناس عاديين قد سمعوا بتلك الفعالية عبر صفحات الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي.

وأخيراً بدأ العرض، كان من المفترض أن يكون سعد أول المشاركين، وبالفعل كانت البداية معه و له. صعد إلى المسرح بقوة كبيرة ناسياً كل من حوله مركّزاً فقط بأن تجربته التي سيتكلّم عنها ممكن أَن تشكل فارقاً كبيراً في حياة أحدهم كما كانت فارقاً مهماً في حياته وغيرتها، متمنياً أن حديثه عن تلك التجربة سَيُحدث تغيير ما في قلب أحدهم ممن يجلسون على تلك المقاعد المصطفة أمام ناظريه، تجاوز عدد الحاضرين المئة تقريباً، وصل إلى المسرح وأمسك الميكرفون لينطلق بصوته بينهم وأمامهم :

"

أنا سعد في الثانية والثلاثين من عمري طبيب مختص بالأورام، و أصبت بورمٍ أيضاً لسنةٍ أو أكثر، بعدها تم استئصاله.

أنا الآن في حالة جيدة والحمد لله، حتى أني عدّت لمداولة عملي ومعالجة مرضاي كما سابق عهدي.

أمي أول مريضة تابعت حالتها في عيادتي مع أطباء أصدقاء أيضاً، كانت قوية جداً رغم اصابتها بالسرطان، تؤمن بأن الحياة لها أوانها ونهايتها، والحمد لله قد ربتني على ذلك أيضاً، خاصةً أنّها فقدت والدي في سن مبكرة، كنت في السادسة من عمري ولم يكن لديّ أيّ من الأشقّاء، توفي أبيٍ بحادثةٍ مؤلمة بعد أن تعرّض لصدمةٍ كهربائية وهو يقوم بإصلاح إحدى الأعطال كعاملٍ صيانة في مؤسسة الكهرباء.

والدتي عندما علمت بمرضها حمدت الله كثيراً وأخبرتني حرفياً أنّه أخيراً جاء وقت اللقاء، وعندما سألتها عن أي لقاء تتحدث، أخبرتني أنّها تقصد اللقاء مع والدي أي زوجها.

حالتها النفسية وإيمانها بأن المرض ليس تلك الحالة الكارثية التي يمكن أن يصل لها الإنسان، المرض هو حالة لابد منها إن شاءها الله أن تكون سبباً للوفاة في اليوم المكتوب منه، هو سبب مثله مثل حادث سيارة مفاجئ أو ربما صدمة كهربائية أو صدمة قلبية أو حتى وخزة دبوس صغير جداً، إن قدّر الله أن تكون سبباً للوفاة لجَعَلَها الله سبباً وكفى، والمرضً هكذاً.

الايمان بالمرض بتلك الطريقة يجعل منك قوياً عليه بالتأكيد، أصبح يُضرب المثل بحالة أمي بين الأطباء جميعهم الذين يعرفون حالتها من معالجين وغيرهم من الأطباء المتابعين عن بعد، كانوا يقولون أن تلك الحاجة أم سعد رغم كبر سنّها إلّا أنها تواجه المرض بقوة لدرجة أنها جعلت الخلايا السرطانية تتراجع عن بعض من أجزاء جسدها وهذا ليس إلّا خطوة لتراجعها جميعها، ولم تكن إلّا حالتها النفسية وروحها الجميلة هي سبب لهذه الحالة الفريدة في عالم الطب وتحديداً في موضوع السرطان وخلاياه التي اذا ما انتشرت لا تتراجع بسهولة، والحقيقة أن تصالح أمي مع حقيقة المرض بحد ذاته وعدم اكتراثها بخطورته المميتة جعلت منها قوية تقوى على مرضها وحتى ألمها أثناء العلاج الذي ليس إلّا تكفيراً عن خطاياها كما كانت تقول، خطاياها التي لم أكن أراها يوماً.

تعلَّمتُ من والدتي أن الموت هو حقيقة لا يمكن الهروب منها إلّا لحياةٍ أخرى في العالم الأبدي كما وعدنا الله بها.

تعلّمت منها أنّه طالما أنّ الله حاضرٌ لابد للأمل أن يكون موجوداً بأي أمرٍ كان مهما كان صعباً وعسيراً، وجود الله يهوّنه على الدوام.

الإيمان بالله هو إيمانك بوجود يوم أخر وحياة أخرى لابد أن تكون بعد الموت، تلك الحياة ستكون للأحلامً التي تأجل تحقيقها في الدنيا لأسباب عديدة.

الأحلام لا يمكن أن تموت بوجود مرض ما، الأحلام لابد أن تستمر ونستمر بتنفيذها حتى الرمق الأخير، حتى إنّ لم يكن هناك متسع لتحقيقها ستؤجل للحياةٍ الأخرى التي تنتظرنا.

هذا ما كنت أتعلّمه من أمي، أمي التي لم تضعف يوماً إلا في ذاك اليوم الذي عَلِمَتْ به بمرضي، لم تقوى على حمل فكرة ألمي خلال فترة المرض وأثناء أخذ العلاج خاصةً أنّها تعلم تماماً بماهية هذا الألم.

رحلتْ أمّي بروحها إلى الله وتركتني وحيداً مع المرض، لم أتزوج أو أنجب لذا لم يكن لديّ عائلة أمّا أصدقائي في فترة المرض لم أعد أحتمل شفقتهم على حالتي، ربما كان حباً لي لكن في بداية مرضي رأيت أن حبهم واهتمامهم ليس إلا شفقة لم أحتملها ، تركتهم وذهبت بنفسي بعد فترة العلاج إلى مكانٍ مريح على الشاطئ.

هناك جلست كثيراً مع نفسي وكثيراً ما تذكرت كلام والدتي وحالها أثناء مرضها، حلمت بوالدي لمراتٍ ومراتٍ أيضاً، أخيراً وجدت فكرة مجنونة جعلتني أعتمدها كحقيقة أولى وأخيرةً في الحياة، حقيقة لابد منها في حياتي أنا كسعد تحديداً، حقيقة تجعلني أستمر بالحياة دون أن أتراجع.

المرض قرّبني جداً من الله وكثيراً ما فكرت عبره بمعنى الموت الذي لابد منه في حياة أي انسان على هذه الأرض أما الحقيقة المجنونة التي اعتمدتها في حياتي فهي أن والدي توفي قبل أن يستمتع معنا في حياته العائلية بما يكفي، كان سعيدٌ جداً بوجودنا في حياته آنذاك، جاءه الموت فجأةً سارقاً منه عائلته وسرقه منا، هناك عند رب العباد لابد لأبي أن يطلب ما يريد وهو شهيد تلك الحادثة المرعبة لصعقه بالكهرباء، لذا فإنّي أظنّه طلب من الله أن يلقى عائلته في أقرب وأسرع وقت، فكان المرض هو أسرع أسباب الوفاة في حالة أمي ثم حالتي، تلك الفكرة المجنونة باتت هاجساً في حياتي في هذه الفترة جعلتني أؤمن أن المرض إن كان سبباً للموت فلن يكون الموت إلّا للقاء الأحبة فأهلاً وسهلاً به وليكن المرض تكفيراً عن الخطايا والذنوب كما كانت تقول أمي، الوصول إلى تلك الحالة من التراضي والتصالح مع الموت لا يأتي إلا في حالة المرض وحسب.

المرض يأتي ليقوّينا جداً من الداخل حتى وإن كانت أجسادنا هشّة من الخارج.

حالة التصالح مع الموت يلزمها قوة كبيرة لا يمكن أن يصل إليها أي صحيح معافى بتلك السهولة التي يصل إليها المريض.

المرض قوة فعلية..

في فترة مرضي لن أنسى أني تعرفت إلى رجل رائع من البلد الشقيق، شقيق الوحدة، كان شاباً سورياً مرّ بتجربة مرض أيضاً لن أتكلّم عن تفاصيل تخصّه أكثر لأنه لابد أن يتكلم هو عن نفسه وقصته التي أثّرت بي أيضاً آنذاك وجعلتني أقوى أكثر على ذلك المرض الذي استوطن جسدي ثم ما لبث أن

تركني بعد مدةٍ من العلاج.

أنا الآن معافى والحمد لله وعلى استعداد دائم كأيٍ معافى أو ربما ليس كأي معافى فليس أي معافى قادر على أن يكون مستعداً للموت لأي سبب كان وبأي لحظة، أنا الآن على استعداد ليس للموت فقط بل على استعداد للمرض مجدداً وبأي لحظة إن قدّر الله ذلك أن يكون.. نحن أقوياء بل أصبحنا أقوياء بعد تلك التجربة.

المرض هو حقيقة كأيّ حقيقة في هذه الحياة، فيها من الألم الكثير ومن القوة الكثير أيضاً.

المرض يجعلك قوياً مؤمناً بأحد أركان الاسلام وهو الإيمان باليوم الأخر أكثر من أي مؤمنٍ معافى.

المرض هو فرصة ومدة زمنية أهداها الله لصاحبه كي يستعد للقائه، فرصة لن تكون لكل الناس فإن كانت لك حاول أن تستغلّها.

المرض يقوّيك حتى تصبح قادراً على تقوية من حولك أكثر من حاجتك لهم وأنت بتلك المرحلة.

المرض يجعلك تؤمن بأن الوقت لا ينتظر أحداً ولابد من نهايته والموت هو حقيقة لابد منها.

فليكن كلامنا حافزاً لغيرنا من المعافين لاستدراك ما يستدركه المريض وهو معافى فإن كان ذلك فهنيئاً له، وعافاه وعافانا وعافاكم الله وهدانا جميعاً إلى ما هو خير وحق وجعلنا وإياكم في طريقنا إلى الله على الدوام وفي طريق الله الذي لا طريق للخير إلّاه.

"

ما إن انتهى الدكتور سعد من إلقاء كلمته أمام الحاضرين حتى بدأ يعلو التصفيق من الجميع بقوة، وهذا ما جعل باقي المشاركين متحمسين لإلقاء تجاربهم أيضاً أمام الجميع بكل قوة.

استمر الإلقاء واستمرت الفعالية لأكثر من أربع ساعات عرض بها المشاركين تجاربهم، وبقي التصفيق يرتفع بين الحاضرين ويملأ القاعة الكبيرة والممتلئة نوعاً ما بالمصفقين.

تم تصوير العرض منذ بدايته بطريقة احترافية كما كان اتفاق سعد مع المصور ومن ثم تم نشر الفيديوهات للمشاركين عبر الشبكة، كل فيديو عرض تجربة واحدة لكل مشارك بل كل ملهم كما أراد محمد حيث قام بتحميل تلك المقاطع عبر قناة على اليوتيوب قام بإنشائها و أسماها باسم مشروعه ملهون، كانت المفاجأة بانتشار تلك المقاطع بشكلٍ واسع جداً وسريع عبر صفحات الانترنت بعد القليل من الساعات من نشّرها، خاصةً أن المتواجدين والحضور آنذاك كلهم أبدوا اعجابهم ذلك اليوم وشاركوا بانتشار تلك المقاطع بشكل كبير. بدأ نجاح المشروع يتضح قليلاً قليلاً وبعد عدة ساعاتٍ من العرض لَا أكثر.

فرحة محمد بالنتائج لم تكن توصف، لم ينم من شدة تأثّره بعرض القاهرة والنتائج التي كانت باهرة جداً هذا اليوم .

لم ينم وهو يعيد تشغيل المقاطع على القناة بين الحين والأخر، يبكي أحياناً متأثراً بما شاهد وأخرى يضحك سعيداً بالتعليقات والنتائج التي يراها من المتابعين، وأحياناً كثيراً يرى نور ويشعر بسعادتها لو أنها معه الآن وترى ما

يراه ويتابعه، لم تفارقه هذا اليوم كان سعيداً لسعادتها التي لم يتوقف عن تخيلها لحظةً واحدة.

سوريا..

بقي على العرض يومان، مساءً اجتمع محمد بزينة في البيت العربي حيث سيتم العرض، زينة أخذت تهتم بترتيب المقاعد التي تتسع لخمسين شخص أو أكثر بقليل، محمد لم يتركها أبداً بقي معها يجهّز المنصبة ومكبرات الصوتً وتوابعه :

- أخبريني زينة هل الأمور لديك على ما يرام ؟
- نعم كل شيء على ما يرام لا تقلق
- مساعدتي الأولى ويدي اليمنى شكراً شكراً لك
- لنرى عملك اذاً
- تعال وتأكدي بنفسك أظنّ أنني أنا الآن من تحوّل إلى مساعد لا أنت !
- ولم لا ؟

يبدو أن العلاقة بين محمد وزينة أصبحت أقوى، خاصةً أن زينة لم تترك محمد أبداً بتلك الفترة سواء بتقديم المساعدة في تجهيز بيت جدتها أو لمشاركتها بتجهيز وتحميل مقاطع الفيديو لفعالية مصر وعرضها عبر قناة اليوتيوب وغيرها. وقفت معه بكل خطوة وكأنها تقاسمت معه مشروعه بكل تفاصيله أيضاً، حتى أنها اعتبرته مشروع حياتها الذي طالما انتظرت تنفيذه.

وجدت نفسها مع محمد في مشروعه وبقيت تنظر يوم التنفيذ والعرض

بفارغ الصبر كحال محمدٍ تماماً وهذا أكثر ما قربهما من بعضهما الآن.

بقي يومان فقط، بدأ الحماس يزداد أكثر وأكثر خاصةً أن ما تم عرضه في مصر كان له أثره السريع عبر الانترنت وعلى مواقع التواصل الاجتماعي.

الآن جاء دور محمد هنا، كان عدد المشاركين في سوريا سبعة مشاركين من بينهم محمد وزينة .

عاد محمد إلى منزله عند الساعة التاسعة كانت زينب كالعادة بانتظاره لتسأله عن أخر مستجدات التجهيز للمشروع، لحقته إلى غرفته مسرعةً خلفه، جلس على طرف سريره أما هي فوقفت أمامه وبدأت أسئلتها التي لا تنتهي :

- ها أخبريني ما بك يا نور؟

- نور !

من نور ؟

- أسف قصدت زينب أخطأت الاسم

- نعم نور موظفة البنك ذاتها التي أخبرتني عن زفافك بها في مصر أليس كذلك !

لم أسألك عنها عند عودتك،، أخبرني ما حقيقة أمر زواجك وأين هي نور ؟

- من نور!

- وما يدريني من هي تلك التي تشغل تفكيرك، ألم تخبرني أنك تزوجت

بها !

– زينب ما بك وماذا تريدين حتى لحقت بي هكذا !

أنا متعبٌ اليوم وأريد أن أنام

– أريد أن أعرف أين زوجتك

– لم أتزوج

– ماذا اذاً ؟ أنت أخبرتني أنك ستتزوج منها، لم يتم الزفاف أم ماذا لا أفهم..!

أنت أخبرتني عندما كنت في مصر عن زفافك ألا تذكر ؟

– أذكر ولكن ليس هذا وقت شرح تلك المسألة الآن افهمي ذلك يا زينب أرجوكِ

– حسناً. ألن تسهر معنا ؟

والديك في الأسفل أظنهم اشتاقوا لك، منذ مدة وأنت دائم الانشغال عنّا

– لا تقلقِ بشأن والديك، جلست معهما ظهر اليوم لساعات اطمئني، أنت ماذا تريدِين منّي ؟

– أريد ان أعرف أخر المستجدات

صمتت قليلاً ثم نظرت إليه نظرةً خبيثة :

وأريد أن أعرف عن نور ومتى أحببتها وهل حقاً تزوجتها في ذاك اليوم ؟

– زينب أرجوك أنا متعب

اتركيني وشأني الآن

– حسناً حسناً سأتركك لكن أخبرني عن تجهيزات المشروع

– الأمور على ما يرام و أظننا سنحتفل بنجاحنا إن شاء الله ذلك بعد غد كما احتفلنا منذ أيام بفريق القاهرة

– محمد كنت سأسألك هل سعد هو صديقك في مصر ؟

– نعم صديقي

– لقد شاهدت مشاركته عبر اليوتيوب وقد تكلّم عن صديقه السوري الذي له تجربة مع المرض أيضاً،

هل هو أنت صاحب التجربة !

– زينب دعيني الآن وغداً سأجيبك عن كل أسئلتك ما رأيك ؟

– لكن يا أخي ربـــ....

– زينب رجاءً أريد أن أنام

– حسناً أنا أسفة

تصبح على خير

– وأنت بخير، أغلقي باب الغرفة ورائك من فضلك

تنهد محمد بعد أن أنهى حديثه مع شقيقته التي أثارت بقلبه ما يؤلمه على الدوام، لقد اثارت زينب بداخله نقاط الألم التي مازالت ولا يمكن أن تزول

بعد رحيل نور .

ما إن أغلقت باب غرفته حتى نهض مسرعاً وبدّل ملابسه وقام بالوضوء ثم صلّى ركعتان وقرأ ما تيسّر له من القرآن.

أنهى القراءة وجلس على سريره ممسكاً هاتفه طالباً سعد :

- مرحباً سعد

- أهلاً صديقي..

....

ما بك ؟

- لا أدري يا سعد، أظن أنّي اشتقت لنور، أنا أحتاجها

- وماذا أيضاً ؟

- اشتقت لها كثيراً، ليتني بقيت مريضاً

- صاحب ذلك المشروع الذي سيكون سبباً لإلهام العديد من الأصحّاء والمرضى لا يمكن أن يتكلّم بتلك الطريقة..

ألم تكن أنت من بحثت عن فكرة تخلّد ذكرى نور وعن مشروع يحمل فكر نور وتهديه لها بكل الخير الذي يجب أن يأتي منه لأجلها فقط ؟!

- وما المانع أن أشتاق لها ؟

- لا يوجد مانع، المانع هو أن تقول لو أنك مريضاً..

لقد أعطاك الله الصحة بل ردّها إليك ليكون لديك فرصة جديدة

لتصحيح حياتك بما يرضيه، فرصة لتطبيق أفكار تشبه فكرة مشروعك الأول..

يحتاجك من حولك الآن يا محمد، سواء أقرباء أو أصدقاء أو حتى غرباء، الجميع يحتاج من يذكّرهم بأهمية وجودهم في هذه الحياة طالما أنهم موجودين فيها

تنهّد محمد طويلاً وكأنه أراد أن يبكي، لكنه أخفا دموعه وأعادها حيث كانت :

- الحمد لله..

أنا أعلم يا سعد أهمية ما تقول، نور لم تفارقني منذ أن ماتت، لكنها اليوم أخذت كل تفكيري وجاءت أختي زينب لتزيد ذلك الشوق أكثر عندما أخطأت اسمها وناديتها بنور بدل زينب..

أنا مشتاق لها وأظنها هي أيضاً، كما أنني أشعر بسعادتها بما أقوم به لأجلها

- محمد بغض النظر عن كل ما تفعل لكن تذكّر أن ما مررت به أصبح ماضياً وأيضاً لم يكن حاضراً يوماً، أقصد تحديداً مرضك.

أنت لم تكن مريضاً يوماً، وأنت الآن لست مريضاً على الاطلاق ولم تزل شاب والحياة أمامك ومن حق نفسك عليك وحتى من حق تلك الدنيا عليك أن تقيم عائلة وأولاد مثلاً وتعيش حياةً طبيعية.. هل تفهمني يا محمد ؟!

- لا أظن أنه الوقت المناسب لمثل هذا الحديث يا سعد

- أنا أذكّرك وحسب

- حسناً، أنا متعبٌ اليوم دعواتك يا صديقي أنا أحتاجها في تلك الأيام

- بالتأكيد الله الموفق يا صاحبي

اذهب إلى النوم الآن

- تصبح على الخير

- وأنت بخير

منزل زينة

رغد كعادتها تلازم أختها في غرفتها إلى الآن والساعة أصبحت الحادية عشر ليلاً، أما زينة فبدا عليها القلق أو أنها انشغلت بالتفكير بأمر ما، حتى كلمات رغد لم تكن بالنسبة لها إلا متمتمات خلفية تكاد تسمع صداًها، هكذا باتت زينة على الدوام قليلة الاصغاء لشقيقتها بعكس طبيعتها الأولى :

- زينة

زينة

- نعم نعم

- عدت للشرود !

مابك ؟

- أفكر بيوم العرض

- بيوم العرض أم بمحمد ؟

- ولما أفكر بمحمد ؟

- لا أعرف أجدك مهتمة به هذه الأيام

- مهتمة بمشروعه، هو صاحب المشروع بالنهاية يا رغد

- لا أعلم يا أختي ما فائدة مثل هذا المشروع؟

– تعال يا صغيرتي اقتربي إلى جانبي هنا ودعيني أشرح لك

أسرعت رغد بالاقتراب من زينة على سريرها وعانقتها طويلاً وكأنهما لم يتعانقا منذ سنة رغم أن كل منهما تعانق الأخرى كل يوم أكثر من مرة :

– هيا اشرحي لي الآن

– سأشرح، لكن بشرط عندما أنهي كلامي ستنطلقين مثل " الشاطرة " إلى غرفتك حسناً ؟!

– حسناً " أمرك أوامر أختي الكبيرة وغيرو " ؟!

– لا شيء غيره يا شقيّة

– هيّا حدثيني لأنام

– ماذا ؟ تنامين ؟

وما الذي كنّا نتفق عليه اذاً ؟

هيّا اذهبي إلى غرفتك لن أخبرك شيئاً

– لا لا أنا أمازحك فقط هيّا أخبريني عن أهمية هذا المشروع لن أنام إلّا بغرفتي صدقيني

– حبيبتي المرضى غالباً ما يغلب على جسدهم الضعف والتعب، حتى نحن كمراقبين نراهم أناس ضعفاء لا أكثر يحتاجون المساعدة مرة ويرون بعيوننا الشفقة ألف مرة ومرة، كل هذا الكلام تعرفينه بالتأكيد لكن ما تعرفينه هو أن هذا المريض يحمل الكثير من القوة في داخله ولولا تلك القوة لما احتمل فكرة المرض على الاطلاق، ولا استطاع تحمّله أبداً، كما والدنا رحمه

الله ألا تذكرين قوته على المرض !

عداك عن ذلك فإن المريض، خاصة مريض السرطان وغيره من الأمراض الخطيرة تجعل منه انساناً يتحمّل فكرة الموت في حياته ويتذكرها كثيراً على عكس الانسان المعافى الذي يهرب من تذكّر الموت، أو حتّى لفظة الموت مجرد لفظه يهرب منها.

إن قارنتِ الاثنان فسترين أن المريض بكل مرضه وضعف جسده أقوى بكثير من المعافى بجسده القوي.

هل فهمت الآن لما المعافى يحتاج أن يسمع المريض ويتعلّم من تجربته مع المرض ؟!

ولما جاء محمد بفكرة المشروع وما هي فائدته ؟!

- هل محمد كان مريضاً ؟

صمتت زينة قليلاً وكأن رغد سألت السؤال الذي باتت زينة تسأله لنفسها مؤخراً على الدوام

- لا أعلم

- كيف جاء بالفكرة اذاً ؟

- لم أسأله مسبقاً عن ذلك. لكن لا يبدو عليه المرض على الاطلاق

- ربما كان أحداً من أقربائه أو أصدقائه مريض أليس كذلك ؟!

- ربما. المهم الآن ستأتين لحضور الفعالية معي لتحضري بنفسك وتحكمي على المشروع بدون حاجتك لشرحي، حتى أنك ستسمعين محمد

وهو يشارك بقصته أيضاً

– بالتأكيد سأذهب معك حتى "ماما" ستذهب للحضور هي أخبرتني بذلك

– أعلم يا صغيرتي.. هيا اذهبي الآن إلى النوم كما اتفقنا أم أنك نسيت ؟

– لا لا على العكس.. أنا ذاهبة على الفور

تصبحين على خير

– تصبحين على خير يا عزيزتي

قبل العرض بيومٍ واحد..

بعد أن أنهى محمد دوامه في البنك توجه إلى منزله، وكعادته تناول غدائه مع العائلة ثم أخذ حماماً طويلاً، وبعد أن أنهى صلاته اختار أفضل ما لديه من ملابس ثم سرّح شعره وأعاد تسريحه لمراتٍ عديدة حتى يتأكد من جماله، رش عطره الذي لا يستخدمه إلّا بالمناسبات المميزة ثم أسرع بالنزول وكأنّه على موعدٍ ما.

كانت زينب تراقب حالته كعادتها، توقعت أنّ لديه موعد غرامي، فلا يمكن أن يكون إلا موعد غرامي، بدأ فضولها يتحرك كعادتها، وقفت بطريقه كعادتها أيضاً :

- هل ذاهبٌ للقاء نور ؟!

- زينب أنا على عجلة هيا اذهبي من طريقي

- أظنّك ذاهب للقائها !

ضحك محمد لأسلوب شقيقته الطفولي، لم ينزعج هذه المرة من ذكرها لنور، أدار ظهره لها وأكمل سيره باتجاه الباب ممسكاً هاتفه بيده طالباً أحدهم على الهاتف متجاهلاً زينب، نادته زينب وهو خارج من الباب :

- لا تنس أن تسلم لي عليها يا محمد

- حسناً

أشار بيده عبر شاشة هاتفه إلى اسم زينة ثم طلبها منطلقاً إلى الخارج، طال رنين الهاتف حتى أجابته أخيراً :

- أهلاً محمد

- أين أنت يا زينة ؟

- أنا في بيت جدتي في البيت العربي أعمل على التجهيزات الأخيرة

- بمفردك ؟ ألم يأتي أحد من الشباب اليوم لمساعدتك ؟

- نعم نعم معي الآن نوار لا نزال نعمل أنا وهي لكن أظنّها ستذهب الآن

- وأنت ؟

- سأذهب أيضاً بعد قليل.. ألن تأتي أنت اليوم ؟

- سآتي طبعاً لكن سأتأخر قليلاً أعتذر لذلك

- لا بأس فكل شيء أصبح جاهزاً، هي بعض اللمسات الأخيرة فقط وننتهي، وأعتقد أن تلك اللمسات لن تكون إلا أنثوية أليس صحيحاً !

- صدقتي اللمسات النهائية يجب أن تكون أنثوية

إلى اللقاء سآتي حالما أنتهي

حسناً إلى اللقاء

الساعة أصبحت الرابعة عصراً توجه محمد بعد أن أنهى حديثه مع زينة إلى محل وردٍ كان الأقرب في طريقه، اشترى باقة ورد واعتنى باختيار وردها

وأكمل طريقه.

محمد يتصرف كعاشقٍ فعلاً كما رأته زينب لكن معشوقته لن تكون على هذه الأرض بالتأكيد.

إن كانت معشوقته نور فبالتأكيد ستكون وجهته حيث المقبرة.

وصل محمد المقبرة متوجهاً إلى قبر نور مباشرةً، كان سعيداً وكأنه سيلقاها فعلاً لقد أحسّ بها منذ اقترابه من قبرها، سلّم عليها ووضع باقة الورد على قبرها ثم جلس يكلمها وكأنها أمامه فعلاً، أمامه حيث كان يكلمها وتنظر إليه منذ أول مرة عند شاطئ البحر في مصر :

- اشتقت إليك يا حبيبتي

أعلم أن ردك لا يمكن أن يسمعه أحدٍ الآن سواي

صدى صوتك يتردد داخلي حتى ابتسامتك أراها أمامي الآن

سعيدة بما قمت به لأجلك ؟!

تلك الفكرة أنت التي زرعتها برأسي بعد وفاتك، أنت فقط من يملك تلك الأفكار.

إنه مشروعك يا نور، وغداً سيكون يوم العرض وأظنه سيكون يوماً فارقاً في حياتي

سأتكلم عنك غداً وكأنك موجودة معنا فعلاً

سأحكي للناس أنك تملكين قلباً يتسع الكون بأسره

سامحيني لأنني أخفيت عنك حقيقة مرضي المزعوم

المهم الآن هل أنت راضية عني ؟

صمت قليلاً وكأنه ينتظر اجابتها ثم أكمل ناظراً إلى السماء :

- أيقنت رضاك بحفيف الأشجار

أرى ابتسامتك من بين أغصانها

أشعر بك بنسمات الهواء

ادعي لي كثيراً الآن انا محتاج لدعواتك يا صغيرتي

غداً سيكون يوماً فارقاً.. ستأتين لتقفين بجانبي أليس كذلك ؟

نعم ستأتين

تكلّم كثيراً لكنّه لم يبكي أبداً كان يبتسم أكثر مما يتحسّر أو يبكي.

هو فقط كان مشتاقاً لوجودها في حياته، لقد تكلّم معها عن الكثير وأخبرها أيضاً الكثير من التفاصيل.

حدّثها عن عائلته، عن المشاركين، عن البيت العربي الكبير، عن زينة وقصتها التي أثّرت به منذ أن قرأها للمرة الأولى، وأثرت به أكثر عندما قابل صاحبتها وتعرف إليها، حدّثها عن قوتها وقوة كل المشاركين برمتهم.

تمنى محمد لو أنّه يكمل باقي عمره قرب قبرها كما هو الآن، أو لو أنه يستطيع أخذ قبرها أينما أراد ومتى شاء، أو لو أنه يستطيع الصعود إلى روحها كملاكٍ بأجنحة كما يخيّل إلينا.

تمنى الكثير، وفي نهاية الأمر حمل جسده ونهض به مودعاً إيّاها حاملاً معه الكثير من الحب لأجل يوم غد.

الساعة الآن أصبحت السادسة والنصف أكمل محمد طريقه إلى المسجد القريب من المقبرة أقام صلاته وأكملها ثم انطلق إلى البيت العربي حيث كانت زينة مازلت هناك.

كان الباب مفتوحاً كالعادة، منذ أن بدأ الاصلاح والترتيب في المنزل وبابه الخارجي يبقى مفتوحاً، تفاجأ محمد من وضع الباب مفتوحاً إلى هذا الوقت، فلم يكن يتوقع أن تبقى زينة إلى هذا الوقت في المنزل، دخل مسرعاً باحثاً عنها :

- زينة زينة

- أنا هنا يا محمد، وأخيراً أتيت.. لقد تأخرت

- نعم!

- أعتذر لكنّك أخبرتني أنك قادم لذا بقيت أنتظرك، ربما نسينا أمراً ما ينبغي تجهيزه قبل الغد

- نعم نعم معك حق.. وهل هناك أي شيء ينقصنا الآن يا زينة ؟!

- لا إن شاء الله أمورنا على خير ما يرام، لكن نسينا أمر التصوير يا محمد

- لا لم أنسه لقد اتفقت مع أحدهم سيأتي إلينا غداً للتصوير بإذن الله لا تقلقِ

هل أنت جاهزة ليوم الغد ؟

- نعم جاهزة ومتحمسة جداً جداً

- حقاً؟

- نعم بكل تأكيد.. وأنت ؟

- جاهز أيضاً

صحيح أنت لم تخبرني أبداً عن قصتك مع المرض

- غداً ان شاء الله

- هل كنت مريضاً يا محمد

- قلت غداً

- حسناً كما تريد

- هيّا هل أنت جاهزة للعودة إلى منزلك

- نعم

- هيّا بنا اذاً

- هيّا

مشيا معاً حيث منزل زينة كان قريباً من بيت جدتها العربي، بقيا صامتين طول الطريق وكأن كل منهما على خلافٍ مع الأخر، أما محمد فكان مازال شارداً بنور ولقائه بها حيث المقبرة أخذ يراجع كل حديثه معها.

زينة لم تكن تعلم شيئاً ممّا يجعل محمد شارد الذهن هكذا، كانت تنظر إليه نظرات استغراب وتعجّب، حتى ملابسه اليوم تبدو على غير العادة ، ورائحة عطره وتسريحة شعره عندما دخل إليها منذ قليل. عندما رأته هكذا وقت دخوله إليها منذ قليل سُعدت لحاله وللحظة اعتقدت أن أناقته وعطره مع تسريحة شعره ربما تكون لأجلها، للحظة فكّرت زينة بتلك الطريقة، لكن

الآن وبعد حديثه المختصر معها وشروده وهو يرافقها إلى منزلها أصبحت تفكّر بطريقة أخرى :

- ترى ما الذي يشغله هكذا وما تلك الحالة الجديدة التي هو عليها !

هل هو عاشق مثلاً !

ربما كان على خلاف ما مع حبيبته حتى يبدو عليه القلق والشرود !

أخذت تتسآل عن حالته الغريبة هذا اليوم، لكنها بقيت صامتة دون أن تسأله أي شيء هكذا إلى أن وصلت أخيراً حيث منزلها ودع كلّ منهما الأخر واستمر محمد في طريقه إلى المنزل.

سوريا.. يوم العرض

في هذا اليوم استيقظ محمد حتى دون حاجة إلى أي منبه، بدت السعادة واضحة على وجهه.

أسرع في النزول إلى عائلته حيث اجتمع جميعهم حول وجبة الفطور كالعادة، الجميع كان حاضراً، والداه وزينب وأخيه الصغير، لاحظ الجميع السعادة الواضحة على وجه محمد وكذلك حماسه وراحته هذا اليوم، أكدّ محمد على الجميع الحضور مساءً حتى أخيه الصغير أكرم أكد على والدته اصطحابه يأتي معها، لقد طلب من والديه بإلحاح الحضور، فحضورهم هو جزء من عرض اليوم. أكد له الجميع حضروهم وأنهم بالتأكيد سيكونون من أول الحاضرين.

خرج محمد من البيت متجهاً إلى وظيفته لطلب إذن بالخروج حالما ينهي عمله المترتب عليه هذا اليوم، ولم ينسى الاتصال بزينة للتأكيد عليها بتحضير ما يلزم تحضيره مع باقي المشاركين حالما ينهي عمله ويلحق بهم.

زينة أيضاً كانت قد أصرت على عائلتها بالحضور في الوقت المناسب، والدتها وأختيها الصغيرتان وعلى الفور ومنذ الصباح الباكر توجهت مع باقي الفريق إلى البيت العربي حيث العرض وبدأ التجهيز.

في الساعة الرابعة تماماً اصبح الجميع جاهزاً ومتحمس للبدء بالعرض وبمقدمتهم زينة ومحمد.

بدأ الناس بالحضور، لم يكن من المتوقع أن يمتلئ المكان بهذا الشكل، لقد امتلأ المكان بالكامل وعجّ بالحاضرين وأصبح كل شيء جاهز الآن، كاميرات وصوت ومشاركين وغيرهم، بدا الجميع جاهزٌ الآن للبدء.

جلس بالصف الأول والثاني عائلات المشاركين، منهم عائلتي زينة ومحمد وعائلة نور أيضاً والدها ووالدتها، لم ينسى محمد دعوتهما لحضور هذا العرض وكأنّ نور موجودة بين المشاركين هذا اليوم، فحتى وإن غاب جسدها فهي حاضرة بل هي صاحبة ذلك المشروع برمته.

الجميع جاهز الآن وينتظر. كانت في البداية نوار أولى الملهمين، صعدت إلى المنصة وأمسكت الميكرفون بكل ثقة ثمّ بدأت :

"

أنا نوار أصبحت الآن في السادسة والعشرين من عمري، منذ ثلاث سنوات كنت نوار المختلفة كليّاً عن الآن.

كان عمري ثلاثة وعشرين عاماً مازلت إلى الآن لم أنجح في الثانوية رغم تقديمي لها لأكثر من مرة، للأمانة كان مستواي الدراسي جيداً جداً في السابق، لكنّي لم أستطع المحافظة عليه حتى وصولي للثانوية فقد ذهب اهتمامي بأشياء أخرى جعلتها أساس حياتي بل حسبتها هي أساس حياة الناس جميعها، لم أكن أكثر من فتاةٍ تافهة كلّ ما أراه أراه من نظرةٍ واحدة هي الجمال والجمال وحسب.

أصبحت أنظر للمرآة أكثر من أي شيء في المنزل، أنا مجرد قطعة أثاث لا أحد يجرؤ على الحديث معها ولا حتى أمي التي طالما كانت تقدم لي نصائحها

التي لم تعجبني يوماً.

لا أعلم، ربما بدأت أحقد على كلّ من حولي لا لشيء إلا لكثرة ما أنظر للمرآة وأرى مالا يعجبني أكثر مما يعجبني. كنت جميلة وأعلم أني جميلة ولكن بدأت أبحث عن نفسي كأجمل الجميلات.

عندما أخرج من المنزل يجب أن أتجهّز وكأنّه يوم زفافي، من لباس وتزيين ومكياج وعطور لم أكن أستخدمها مسبقاً قبل حالتي المرضية تلك. نعم لقد كانت مرضية دون وجود اسم لمرض محدد لها.

الناس لم تعد تراني نوار إلا من الزاوية ذاتها التي أصبحت أرى نفسي منها. لقد أصبحت شكلاً بل جسداً بلا شخصية.

يوماً ما كنت جالسة كعادتي ممسكة بهاتفي منشغلة به، وإذ بصوتٍ قوي غميت على أثره ولم أعد أذكر شيئاً بعدها سوى أنني صحوت على سرير في المستشفى وألم شديد يأكل جسدي ووجهي، كانت النار وقت الانفجارً قد أكلت وجهي.

تسبب تسرب الغاز في المطبخ الذي لم أنتبه له بحريق شوّه وجهي وجسدي كما ترون أو ربما لن ترون الآن ما رأيته بداية الحادثةً.

لن ترون ما رأيت عندما نزعت القماش الشاشي عن وجهي وجسدي أول مرة بعد حادثة الحريق، لقد رأيت التشوه الذي غيّر شكلي كلياً شكلي الذي أصبحت أرى الدنيا منه فقدته في تلك اللحظة.

اعتزلت العالم والناس والدنيا بأسرها وجلست بغرفتي كانت تلك الفترة في الأساس فترة علاجٍ أيضاً عليّ الاعتزال بنفسي خلالها طبعاً.

نحن عائلة ميسورة الحال والحروق التي أصابتني كانت من الدرجة التي يمكن علاجها مع الوقت وبقليل من التجميل، لكن يحتاج الأمر إلى قليل من الوقت بل ربما كثير من الوقت، وفتاةٌ مثلي آنذاك يمكن لذلك الوقت أنً يدمرها كفتاة لا ترى من نفسها سوى شكل عليها أن تراه وتتفقده كل يوم في المرآة أكثر من مرة لا أكثر ولا أقل.

كان تخيل الأمر بالنسبة لي مجرد تخيل شيئاً أصعب من أن تتحمله فتاة مثلي آنذاك. أحياناً كثيرة نحتاج بحياتنا لأصدقاء يحمونا من أنفسنا عندما نحاول ايذاءها.

إن أكبر أذية يمكن أن يتلقاها الإنسان هي ايذاءه لنفسه، الوجع حينها والأذى يكون أكبر بكثير من أذية الآخرين، أولئك الأصدقاء هم الوحيدين الذين يمكن الاعتماد عليهم للخروج بنا من هذا الألم والأذى الكبير الذي تسببنا به لأنفسنا.

طبعاً لا أقصد هنا ألم وأذى الحريق، إنني أتحدّث عن أذىً مختلفٌ عنه تماماً.

كانت لي صديقة تشبه أمي كثيراً في نصائحها لي، لكن الفرق كان بتقبلي أفكارها ونصائحها أكثر من والدتي، ربما كان أسلوبها أبسط وأسهل ولنقل أقرب إلى قلبي أكثر من أسلوب أمي الذي لطالما وجدته فظاً حتى منذ طفولتي.

صديقتي لم تكن أحن عليّ من أمي على العكس لكن كنت أحتاج حنان صديقتي في تلك الفترة وبالفعل لم تتركني رحاب أبداً. نعم كان اسمها رحاب .

ذكّرتني رحاب على الدوام بأن الله موجود في تلك الحياة ليكون هو وحده الأقرب لنا عند شعورنا بالوحدة.

نبهتني أنني بحاجة للاقتراب من الله الذي خلق الجمال بأشكاله العديدة،

خلقها مرةً في جمال العيون وأخرى في صدقها،

ومرةً في جمال الفم وأخرى في حسن نطقه،،

ومرةً في جمال الجسد بأسره وأخرى بفعله وعمله وصدقه بما يفعل،

جمال نواياه التي تختبئ داخل روحه.

الجمال مقترنٌ بمن خلق الجمال.

الجمال أسمى من لعبةٍ نرسم ملامحها مرةً بعلب الزينة وأخرى بالملابس ومراتٍ كثيرة بعمليات التجميل أو لنقل عمليات تغيير بحسب مواصفات الجمال الدارجة والمتعارف عليها الآن.

لقد أخبرتني الكثير مما يجعلني أبحث لأكتشف الأكثر والأكثر، لقد نسيت المرآة تماماً وأخيراً والحمد لله تجاوزت أكثر المراحل صعوبة.

أحمد الله أنّي استعدت عافيتي الآن نوعاً ما وعاد وجهي وجسدي تقريباً إلى ما كان عليه وما ترونه الآن، ولا أعتقد أنه قد بقي أثاراً للحروق بعد عمليات علاجٍ عديدة.

لقد خرجت من تجربة الحريق بنتائج أظنها قد هدّأت من روعي وأعادتني إلى رشدي أصبحت أرى الحياة من زاوية أخرى تختلف عن نظرة الجمال فقط.

كنت أسأل نفسي أحياناً، لما أنا صاحبة المرآة وتلك النظرة الواحدة فقط أن أتعرض لذلك التشوه الذي لولاه لما كنت مستعدة أن أستمع لصديقتي، بل لم أكن أسمع كلامها نفسه مسبقا، لقد كانت المرآة تلهيني عن سماعه.

أنا الآن لا أحمل ندوباً أو حروقاً والحمد لله لكني فعلياً أصبحت واحدة من مريضى السرطان.

اكتشفت المرض منذ مدة بعد أن تقدّمت إلى امتحانات الثانوية ونجحت والحمد لله، لكن المرض جاء ليخبرني أن تجربة الحريق لم تنتهِ باختفاء الندوب بل كانت بداية أو تمهيد للمرض الذي دخل جسدي الآن، لو أنّه دخل حينما كنت أنا نفسها الفتاة التي تدّعي الجمال وتعظّمه وتحيى به وله ولأجله، لو أن المرض دخل جسدي حينها أي قبل الحريق لكان شوّهني من الداخل قبل الخارج وأضعف مقدرتي على التمسك بالحياة.

اليوم أنا مريضةُ سرطانٍ نعم، لكني لا أنتظر الموت، بل إني أحاول تعويض خسارتي ما قبل حادث الحريق، أريد تعويض ما فاتني واللحاق بنفسي وأخذها للمكان الصحيح الذي من المفترض به أن تكون.

أنا راضية الآن، وبكامل الرضا عن حياتي، وأحمد الله كثيراً على أنه أخذ مني ليعطيني.

لا تنتظر حريقاً ليعيدك إلى رشدك بل أحدث حريقاً في داخلك وانسف كل ما لابد من نسفه وابدأ من جديد وكن ذلك الشخص الجديد الذي يحمل معاني الانسانية قبل أي شيء أخر.

"

علا التصفيق في تلك اللحظة بعد أن حلّ الهدوء بين الحاضرين وهم يستمعون لنوار، ثم عاد الهدوء ليأتي دور الآخرين، هكذا أنهى الجميع مشاركته إلى أن جاء دور زينة، صعدت إلى المنصة وأمسكت الميكرفون، ثم نظرت إلى والدتها كثيراً وكأنها تريد أن تخبرها أنها لا تريد أحداً أن يراها سواها، نظرتها تكفي، وسماعها لها ولكلماتها يكفيها أيضاً، ثبتت في مكانها وبدأت بالحديث عن نفسها :

"

أنا زينة عمري الآن خمس وعشرون عاماً لن أتكلم عن مرضي فأنا لست مريضة لكن تعلمت الكثير من مرض أحدهم، مرضه غيّر بي الكثير بل جعلني مختلفة أكثر بكثير.. إنّه أبي..

لقد مرض أبي بالسرطان..

"

صمتت زينة عن الكلام بعد أن أطالت النظر بوالدتها وبان عليها التوتر وبدأت عيناها تلمع بعض الشيء، لاحظ محمد توتر زينة فصعد إليها مسرعاً إلى المنصة، وقف بقربها وما كان منها سوى الإفراج عن دموعها التي باتت محبوسة خلف عيناها الجميلتان، حدثته هامسة و الهدوء يملأ المكان :

– محمد لن أستطيع أن أكمل

– لا ستكملين هيّا

– نوار أقوى منّي بكثير

- لا، أنت أقوى صدقيني

- أحتاج والدي الآن، لن أستطيع أن أتكلم عنه أمام والدتي وكل هؤلاء الحاضرين..

أنا أفتقد والدي جداً

- هيّا زينة لأجل والدك

- خائفة

اقترب منها أكثر وأمسك يدها المرتجفة بقوة :

- أنا معك لن أتركك أبداً لا تقلقِ، هيّا

تنفست الصعداء وعادت إلى طبيعتها عاد محمد إلى مكانه ثم أكملت ما بدأت به بعد أن دخل الاطمئنان والأمان إلى جسدها المرتعش :

"

أعتذر لكم لكن تذكرت والدي رحمه الله وتمنيت وجوده معنا الآن ليسمع بنفسه كم كان ملهماً لي حتى بمرضه.

كنّا ثلاث فتياتٍ في المنزل والدي ميسور الحال يعمل تاجر أقمشة ولديه دكان قماش كبير في وسط السوق، إن أردنا شيئاً جاءنا به على الفور بل جاءنا بما أفضل منه.

درست الاقتصاد لسنتين وارتفعت إلى الثالثة. كنت فتاة فارغة من أي شيء مهم إلّا دراستي، للأمانة كنت بمستوى دراسيّ جيد أما باقي أولويات حياتي ليست إلا الفراغ الذي لا يملؤه شيئاً سوى الفراغ والفراغ ثمّ النوم

واللبس والخروج وشراء ما هو تافه ولا معنى له.

حياتي كانت فارغة من أي شيء مهم .

إلى أن جاء مرض أبي فجأةً، وجدنا جسده القوي يضعف وينحل ويصبح أكثر هشاشة، في البداية، بات الخوف عنوان لداخلي وحتى لكل حياتي خاصةً أن عمي بعد استلامه لتجارة أبي قد خسر تجارته وأصبح دكان أبي فارغاً كما رصيده، لا لشيء إلا لحماقات عمّي.

أصبحنا أحوج الناس إلى المال لأجل علاج والدي على الأقل الذي كان المرض يأكل جسده وينعش قلبه، إن رأى يوماً في عيوننا شيئاً من الحزن احتضننا بكامل قوته وخبّئنا داخل قلبه وكأن قلبه حصن لا يمكن أن يتجاوزه أي أذىً على هذه الأرض، كان قلبه امناً للغاية، لا أعتقد أن يكون الأمان في مكانٍ أخر سوى قلب أبي.

أخفينا عن أبي قصة الافلاس التي أوصلنا إليها عمي وأنا تركت دراستي ثم حاولت ايجاد عمل ما، كان ذلك صعباً جداً بالنسبة لي كأي فتاةٍ كانت تعيش الحياة بالرفاهية التي كنت أعيشها، ومع ذلك كانت نظرات أبي القوية تجعلني أشعر بالمسؤولية اتجاهه، جعل منّي مسئولة وأنا لم أعرف تلك المسؤولية يوماً.

كنت أرى بتنهيداته وأنينه وقت العلاج استغاثات يستجديني بها وبالوقت نفسه لم أكن لأقوى لولا وجوده بيننا حتى بتلك الاستغاثات وبجسدٍ هش نحيل، كلماته وحبه وحتى تظاهره بتلك القوة الجسدية رغم كل تعبه وألمِه، كانت كفيلة بتقويتنا كلياً، كان يقوى لأجلنا.

أمّي أيضاً رغم كل قلقها وتعبها بتلك المرحلة الأصعب في تاريخ عائلتنا كانت تُظهر لنا ثباتها وقوتها ولطالما بقيت صامتة ولا أظن أن صمتها إلا لغاية ما وهي تقدير الحالة برمتها والبحث عن أكثر الحلول التي تجعلنا نعيش الحياة الكريمة ذاتها التي عشناها في عز والدي والأهم كانت تبحث عن كيفية الظهور أمام والدي بالحالة الطبيعية التي يعرفها، كانت تبحث عن كيفية استمرار الحياة أمام والدي وكأن شيء لم يحدث لا بتجارته ولا برصيده الذي بقي يجمع بهما لسنوات كثيرة، لقد نجحت أمي بذلك وكانت تلك المرة الأولى التي أشعر بها أن أمي أصبحت بحاجتي أيضاً.

أصبحت أمام أقوى نظرتين في كل حياتي نظرة والدي ونظرة أمي، كنت أستشعر بنظراتهم حاجتهم لي، حان دوري الآن، فكّرت كثيراً بماهية العمل الذي يمكن أن أعمل به لكن وجدت أن ما نحتاجه بالفعل هو اعادة تجارة أبي إلى ما كانت عليه، على الأقل نعيد تلك الأمانة التي تركها لنا والدي بفترة مرضه إلى وضع قريب مما كانت عليه، لا ينفع أن يعود والدي لعمله بعد العلاج ويراه هكذا.

لم أتخيل يوماً أنه يمكن لأبي أن يتركنا رغم خطورة وضعه الصحي وصعوبتها، لذا فكّرت بالنزول إلى دكانه والاستعانة بصديق قديم له لشراء بضاعة جديدة للدكان، اقترح علي أن أقوم بالاستدانة من كبًار تجار القماش مبدئياً وهو سيكفلني عندهم لشراء بضاعة تضمن لي البداية بتجارة جديدة في دكان والدي، ومع ذلك أخبرني أنّه لابد لي من مبلغ محترم بعض الشيء في البداية حتى أضمن عودة حركة الدكان إلى سابق عهدها نوعاً ما.

أمي عندما وجدت بي كل ذلك الحماس وتلك الجدّية التي لم ترها بي من

قبل بادرت على الفور في تقديم الدعم لي وتقويتي وتشجيعي أيضاً والوقوف بجانبي لأجلنا جميعاً، وثقت بي وبمقدرتي وسلمتني المال الذي وفرته لنا لسنين طويلة لحالاتٍ طارئة كالتي نمر بها. لقد غامرت " بالحيلة والفتيلة " كما يقولون والحمد لله أني لم أخذلها.

نزلت إلى الدكان وأعدت إليه شيئاً من البضائع التي كانت سابقاً، لم يعد إلى حاله الأول بالطبع لكن عادت إليه الحركة، قمت بإدارة الدكان من جديد فاستعنت كثيراً بصديق والدي وتفهمت طبيعة العمل، لم أشأ أن أوظف أحداً في البداية فقد كنّا بحاجة إلى توفير النقود لذا اعتمدت على نفسي وحسب.

مات والدي.. كانت وفاته مؤثرة للغاية، أحسست بالضعف الشديد. الفتاة عندما تفقد والدها تفتقد الحياة بأسرها، خاصةً عندما تكون بلا أخٍ أيضاً.

تحتاج الفتاة لسندٍ على الدوام، ليس بالضرورة أن يكون السند مادي أحياناً نكون أحوج للسند المعنوي أكثر من المادي، الفتاة مهما كانت قوية ولها كيانها لن تكتمل قوتها دون شعورها بالأمان، والأمان لا يأتي إلا برجلٍ تستند إليه عند شعورها بالخوف من أيّ شيء كان في هذا العالم الموحش، هكذا شاء الله أن تكون الأنثى بكامل رقتها، احساسها بالقوة لا يمكن أن يكتمل إلا بوجود رجل تستند إليه وقت الشدة أو لنقل وقت حاجتها. طالما غطى والدي تلك الحاجة وذلك الشعور.

الآن وبعد وفاة والدي بسنة وشهر تقريباً أعدت الدكان للعمل ووضعت عليه من يؤتمن به ويستطيع إدارته بشكلٍ جيد، ثم نقلت أوراقي الجامعية إلى

جامعة أخرى عامة لا تكلفني أقساطاً كأقساط الخاصة التي كنت طالبة بها والحمد لله أتممت حالياً السنة الثالثة وانتقلت إلى الرابعة.

مرض أبي جعلني أعرف نفسي أكثر وأثق بها وبقوتي أكثر وأكثر، عرفت من خلاله أن الموت يأتينا فجأة لذا علينا أن نستعد له على الدوام علينا أن نحسب له حساباً وحساباً لساعات حياتنا التي يجب أن تمر بما يرضي الله يوم الحساب .

المرض فرصة للبدء بحياةٍ جديدة لها معنى يستحق الوجود، لقد تعلّمت ذلك من مرض أبي.

من يمرض يملك من القوة ما لا يمكن أن نملكها ونحن بكامل عافيتنا وصحتنا.

المريض يعطي لا يأخذ وحسب، إنه يعطي أكثر مما يأخذ، يكفيك أن تشعر به لتعرف معنى الحياة وأهميتها بل أهمية كل لحظة فيها.

جاء مرض أبي ليجعل منّي فتاة يُعتمد عليها، فتاة أقوى من سابق عهدها.

أبي لم يرحل فالرحيل مؤلم، أبي قد انتقل إلى عالم أخر يستحق أن يكون به إن شاء الله، يحق لي أن أشتاقه وأفتقده، لكن ما لا يَحق لي أبداً أن أنساه وكأنه لم يكن، هو لم يفارقني يوماً وأعلم أنه معي الآن ويسمع كلماتي تلك، وأعلم أيضاً لو أنه هنا لكان فخوراً بي، لقد كنت على قدر المسئولية التي حمّلني إيّاها بعد وفاته.

لا أريد شيئاً الآن يا والدي سوى أن تسامحني لأنني طالما قصرت قبل مرضك بحق نفسي أولاً ثم بحقك وبحق أخوتي وأمي وبحق الحياة برمّتها.

الآن فقط فهمت معنى الحياة يا أبي.. أحبك كثيراً..

"

ما إن انتهت زينة ونزلت من على المنصة حتى علا تصفيق الحاضرين دون توقف.

اتجهت على الفور نحو أمها التي لا تزل الدموع تملأ عيناها لشدة تؤثرها بكلام طفلتها، ربما لم تعد طفلة، لقد أصبحت فتاة قوية لها كيانها قادرة على تحمل المسئولية.

قبّلتها واحتضنتها طويلاً ثم جلست بقربها تنتظر دور محمد الذي صعد نحوها مباشرةً فور انتهائها أخذ مكانها بعد أن أثنى عليها كثيراً وأبدا سعادته الكبيرة وإعجابه بما قدمته وتحدثت عنه. يبدو أن محمد بدأ يرى زينة جديدة، زينة رقيقة عفوية وبريئة.

حان أخيراً دور محمد، الكل ينتظر محمد ،عائلته، عائلة نور، زينة، حتى شقيقة زينة أيضاً مازالت تنتظر بكامل فضولها معرفة قصة محمد وما يخفيه وراء وجهه الواثق وجسده القوي.. هل يمكن أن يكون مريضاً ؟!

أمّا عائلته فكانت تعتمد على تحليل زينب لكلام أخيها لا أكثر.

بدأ محمد الآن :

"

السلام عليكم جميعاً.. سعيدٌ جداً بتواجدي معكم

أنا محمد أصبحت في التاسعة والعشرين من عمري أعمل موظف في أحد

البنوك هنا، تحديداً محاسب، الحمد لله لطالما كنت مرتاحاً في عملي هناك.

عشت كأي شاب، لا بل ليس كأي شاب بالضبط بل كنت " صايع زيادة "، أعلم أنكم ربما تضحكون لوصفي لكنه المضحك المبكي صراحةً.

لا أتذكّر أني نمت مرتاحاً أو أني كنت مرتاحاً لوضعي يوماً، لم أكن مكترث لحالتي فقد كنت أهرب من التفكير بها، فلو أنني حاولت التفكير بها لأيقنت معنى الراحة الحقيقي الذي كنت أحتاجه حينها ولم أكن أعرفه اطلاقاً.

أنا لم أكن صائعاً وحسب بل بمرحلة متطورة جداً من " الصياعة المتعارف عليها " وها هم أفراد أسرتي يعرفون ذلك وأعتقد أنهم ينتظرون أن أحكي لهم ولكم قصة تغييري الذي لم يكن يتوقعوه يوماً، للعلم فقط أني رغم كل ما كنت عليه من سوء مع نفسي إلا أنني لم أكن بهذا السوء مع عائلتي وهم يعلمون ذلك، حتى دراستي ومن ثم عملي لطالما التزمت بهما أيضاً .

لهو، سهر، فتيات ليل، وعلاقات محرمة.. من الداخل كان يجب أن أهرب بنفسي من تأنيب الضمير والشعور بالذنب وهنا جاء دور من حولي في تصدير فكرة أثارت اعجابي بل أراحت تلك الفوضى التي بداخلي.

فكرة أن تكون الحياة بلا خالق أو إله كانت مريحة لشاب ضائع مثلي آنذاك، هي الفكرة الأسهل على الأطلاق، اخترت الإلحاد كمسمى أغطّي به أخطائي التي طالما شوهتني من الداخل.

حقيقةً أنا لم أعي معنى الالحاد يوماً، كان مجرد حلاً للهروب بنفسي من نفسي، وشماعة أريح بها إياها واكتشفت أيضاً أن للإلحاد قدرة اضافية

لتمييزي عمّن حولي، كنت أجد نفسي بتلك الصفة التي باتت عنواناً لي..

إنّه ملحد..

كانوا يشيرون إليّ وعلامات الاستفهام تظهر بأعينهم، هو ليس استفهاماً هو استهجاناً أيضاً.

يوماً ما كنت كعادتي في الوظيفة فجأةً حلّت بعض الفوضى ضمن المبنى، أخبرني أحد عمال البنك أن الفوضى بسبب تواجد فريق طبي يقومون بتحاليل مجانية للموظفين من أجل القيام بدعاية لهذا المخبر التابعين له كونه مخبر حديث العهد، لم أتردد باللحاق بزملائي ضمن البنك والقيام بتحاليل لا أعلم ماهيتها بالضبط ولكن لا ضير منها هكذا قلت لنفسي.

ما السوء في القيام بتحاليل مجانية !

أخذ فريق المرضين أرقام هواتفنا المحمولة والثابتة في حال ظهور النتائج يرسلوها لنا عبر أحد تطبيقات الهاتف المحمول، وذلك ما شجعني أيضاً على القيام بالتحاليل وأخذ عينة.

المهم أن ذلك اليوم قد مرّ تماماً في حياتي التي اعتدتها وكأنه لم يكن، وبعد عدة أيام جاءني اتصال من طرف المخبر يخبرني بظهور النتيجة وأنه عليّ الذهاب لاستلامها.

لقد استغربت هذا اليوم من كلام الممرضة على الهاتف وإلحاحها بطلب قدومي وبأسرع وقت لاستلام النتيجة، خاصةً أنهم وعدونا بإرسالك النتائج عبر الهاتف.

وبالفعل لم أتأخر بالذهاب، بعد ساعةً تقريباً من هاتف الممرضة كنت

في المخبر من أجلِ استلام النتيجة، هناك طلبني الطبيب إلى مكتبه، بصراحة كنت متعجباً جداً مما يحصل لي في هذا المخبر، لن أخفي عنكم خوفي في تلك اللحظة وأنا أنظر في عيون الطبيب.

جلست أمام مكتبه بعد أن سلّمت عليه، لا أدري ما الذي جعله يبدأ بشرح قصة وفاة زوجته لي إثر تعرضها لدم مصاب بالايدز عن طريق جروح وشقوق في يدها أدت إلى دخول هذا الفَيَروس إلى دمها وانتقاله إليها عن طريق الخطأ، ومن ثم وفاتها والجنين الذي في رحمها بعد عدة شهور لا أكثر، لم أفهم بالضبط ما غايته من التكلم عن قصة وفاة زوجته فعلاً، لكنّ بعد أن أنهى حديثه عنها أخبرني وبكل هدوء أني مصاب بفيروس الايدز.

"

عمّ الصمت المكان إلّا من صوت شهيق والدة محمد وبكائها وأصوات باقي أفراد عائلته محاولين تهدئتها، أما محمد حاول أن يخفف عن والدته بابتسامته المعهودة التي طالما عرفتها وأحبتها وأدخلت الراحة إلى قلبها :

- لا تقلقي يا أمي أنا بخير فقط دعيني أكمل الآن

عاد الهدوء إلى المكان مجدداً ثم أكمل محمد ما بدأه :

"

كانت تلك الليلة التي علمت بها عن مرضي هي أكثر ليلة بل أول ليلة أشعر فيها بمعنى النوم الحقيقي، لقد كانت ليلة صعبة بلا شك إلا أن الغريب فيها أني لم أعرف ما الذي يجب أن أفكر به بالضبط في تلك الأثناء وكيف لي أن أفكر، كنت مصدوماً تماماً.

في هذه الليلة بل عند اللحظات الأولى من الفجر آنذاك، علا صوت تكبيرات آذان الفجر القريبة من منزلنا، سمعتها وكأني أسمعها للمرة الأولى، لا أدري كيف وجدت نفسي حينها متوجهاً للوضوء ثم الصلاة.

كانت المرة الأولى التي أصلي بها منذ أن كنت في السادسة أو السابعة من عمري أذهب إلى الصلاة مع والدي، الغريب أني لم أكن قد نسيت كيفية الصلاة أيضاً.

في ذلك الفجر صلّيت وكأني مغيّب عن العالم الذي كنت معتاده لسنوات وسنوات في حياتي، أتممت صلاتي ثم غفوت طويلاً كان ذلك النوم الذي أحتاجه منذ زمن، شعرت براحة كبيرة آنذاك.وتلك كانت الصلاة الأولى منذ زمن والأخيرة في تلك المرحلة، ففي اليوم التالي نسيت تماماً أني صلّيت فجره، كنت مغيباً وحسب.

لكن ثم ماذا ؟!

مرّت بضع أيام وأنا تائه لا أعرف التفكير، لم أخبر أيٍّ من أفراد عائلتي عن أيّ شيءٍ، لذا كنت مضطرباً و قلقاً طوال الوقت، فكّرت بالابتعاد وأخذ قسط من الراحة وقررت السفر لقضاء فترة نقاهة أو لنقل اجازة لم أكن أفكر إلّا بالهرب وحسب..

نعم الهرب مجدداً لكن هذه المرة الهرب مختلف، أردت أن أهرب ممن حولي وليس من نفسي بل إنني هربت إليها عمّن حولي.

كانت غايتي الهرب والاختلاء بنفسي عن الجميع، لا أدري كيف اخترت مصر وقررت السفر بعد أن أخذت اجازة بصعوبة من البنك لمدة طويلة بلا

راتب وأقنعت أهلي بأني أحتاج تلك الاجازة للترويح عن نفسي.

في مصر

حدث لي ما لم أتوقعه يوماً، وتهيّأت لي كل أبواب الخير هناك، وبالمناسبة إن أهل مصر من أطيب الناس الذين يمكن أن تتعرف عليهم في حياتك.

المهم هناك أخبروني عن مصح بل هو ليس مصحاً بالمعنى الصحيح للكلمة هو منتجع للترويح عن النفس وللراحة النفسية يقصده المرضى خاصةً، لأخذ قسطاً من الهدوء والراحة، فيه أنشطة عديدة مسابح، نوادي، مكتبات، والأهم فيه الهدوء والطبيعة الجميلة.

هناك كنت محتاراً أيضاً لما سأفعله خاصةً أني كنت أهرب من التفكير بمرضي، لقد كنت غريباً بعض الشيء لا بل كنت تائه حقيقةً.

هناك أيضاً علا صوت الأذان لمرات عديدة من المسجد الصغير الموجود ضمن الحديقة، كنت أسمعه أيضاً و أشعر بالراحة عند سماعه لكنّي لم أصلّي، حتى بدأت نفسي تطلب مني تكرار تجربة الفجر التي حصلت معي في تلك الليلة الغريبة في سوريا إلّا أنني مع ذلك لم أعد إليها وأكررها بسهولة .

منذ أيامي الأولى هناك تعرفت إلى شاب مصري كان قد أنهى فترة علاجه من مرضه ومحتاج لبعض الراحة والنقاهة. فجأة وجدته قربي ولا أعلم كيف، بالمناسبة هو صديقي الطبيب سعد الذي نشرنا تجربته في مصر على اليوتيوب منذ أيام وقد ساعدنا كثيراً في فعالية ملهمون في مصر.

المهم بعد معرفتي بسعد وراحتي بالحديث معه، حدثته عن حقيقة مرضي وأعتقد أن سعد كان ذكياً بتعامله معي، جعل من ردة فعله اتجاه مرضي عادية

جداً وعلمت منه أن فيروس الايدز ممكن أن يسكن داخلي لفترات طويلة دون أن أي ألم أو لنقل قبل أن يحين أوان موتي، في تلك الفترة شعرت بقليل من الاطمئنان وكأنني شعرت أنه مازال هناك فرصة..

فرصة لما ؟!

فرصة لتصحيح حياتي في حين جاء الموت وأخذ بي إلى الله وجاء وقت الحساب ؟!

فرصة لأجد ما يمكن أن يغفر لي ما فات وما كان ؟!

هل هذا الايمان ؟!

جميعنا مؤمنون بالفطرة.. الفطرة بوجود خالق..

بدأت اكتشف أني لم أكن يوماً ملحداً ولطالما حملت الإيمان بالله داخلي ولكني كنت أهرب منه بحجة الالحاد.

اتفقنا أنا وسعد على عدة نشاطات من بينها القراءة لم أكن هاوي قراءة بالفعل ولكن لم أكن أكرهها كنت أقرأ أحياناً بعض الروايات لكن بأعداد قليلة، المهم عند ذهابنا للمكتبة اقترح لي سعد كتاب رأيت الله وكتب أخرى، لكن كان رأيت الله للدكتور مصطفى محمود هو الأهم، قرأته في ليلة وضحاها كما يقولون، لقد كنت متعطش لقراءة ما مكتوب بداخله والحمد لله قرأته ودخلت الراحة إلى قلبي.

أصبحت أذهب للصلاة مع سعد، خاصةً بعد أن قابلت نور..

أمّا نور فهي قصةٌ أخرى..

قام هذا المشروع لأجل نور ومن أجل نور..

نور هي ملهمتي التي جعلت مني ملهماً كما أنتم، فكرة الالهام جاءت من نور.

نور كانت زميلة لي في العمل قبل فترة مرضي بزمن وأثناء تلك الفترة أثارت اعجابي، كان مجرد اعجاب لكنّها لم تبقى معنا طويلاً في العمل، تركت وظيفتها فجأةً واختفت، أقول اختفت لأنني حاولت التواصل معها عبر الهاتف آنذاك لكنها لم تكن تجيبني ولم تكن تجيب أي أحد.

في تلك الفترة اختفت نور تماماً إلى أن رأيتها ذلك اليوم في المنتجع حيث كنت أتمشى بصحبة سعد في الحديقة فوجئت جداً بوجودها ولم أتردد بالحديث معها، هي أيضاً بادلتني الدهشة ذاتها.

كلّ منّا كان يحتاج وجود الأخر في حياته، تقرب كل منّا للأخر، أصبحنا نعلم عن بعضنا أكثر ما نعلمه عن أنفسنا.

نور كانت أصيبت بالسرطان ولم تخبر والديها خوفاً عليهم، فهي فتاتهم الوحيدة كانت قد أخبرت شقيقها فقط، وبالفعل بقي أخاها بجانبها على الدوام طول فترة مرضها، عندما توظفت نور معنا في البنك لم تتوظف لحاجة بل كانت تبحث عن كيانها وغايتها بعد أن تخرجت من جامعتها، والدها سلّم أعماله وشركته لأخيها وأخيها لم يقصر معها يوماً حتى بعد مرضها وبعد أن أتمت علاجها بمساندته، كان هو من نصحها بالسفر إلى مصر وأخذ قسطاً من الراحة حيث المنتجع المكان الذي قابلتها به وربما القدر هو من جاء بي حيث كانت هي.

نور لم تكن مثلي تحتاج المرض لتتذكر أن لابد لهذه الحياة من نهاية، أن الله حق، وأن للوقت والزمن معنى، وأن للوجود والحياة معنى لابد أن نعيش لأجله.

لم تكن فارغة، ولا يمكن إلا أن يكون لحياتها ووجودها أهمية وفائدة حتى بدون مرض.

لم تكن بحاجة للمرض لتكتشف أن الله خلقنا لغاية وأن كل ما في هذه الحياة يجب ان يكون لله ولأجل الله.

اتفقنا معاً على الزواج، كان الأمر يبدو غريباً في البداية، مريض ايدز سيتزوج من مريضة سرطان، لم أتفق معها على الزواج حتى تأكدت من صديقي سعد أن مرضي لن يؤذيها، أو لنقل ضمنت أن فيروس الايدز لن ينتقل إليها، أما هي فلم تكن تمانع كان المهم بالنسبة لها أن نكون سوياً أما الموت فهو تحصيل حاصل أو مجرد نقلة إلى حياةٍ أخرى هكذا كانت تقول لي..

كانت تقول أيضاً أنّ مرضنا لن يمنعنا من أن نكون سوياً سواء في الدنيا الأولى أو الأخرى.

كنا بحاجة قبل الزواج للعودة إلى طبيبٍ مختص بحسب ارشادات سعد لكي يطلّع على حالتي ويطلعنا على الخطواتً والإرشادات التي من الواجب اتباعها في حال زواجنا.

وبالفعل عدنا إلى طبيب مختص أملى علينا ارشاداته الواجب اتباعها وتحدثنا معه عن كلّ ما يشغلّنا قبل الزواج.

طلب مني بعض التحاليل الواجب عليه معرفتها و لم أتردد بالقيام بها على الفور.

تزوجت بنور ضمن حفل زفاف لطالما رأيته أسطوري، كان حفل أطفال أما فكرته فكانت من تدبير نور.

شَارَكَنَا الاحتفال مجموعة من أطفال مرضى السرطان كانوا نزلاء أيضاً في مستشفى قريبة من المنتجع حيث كنا.

رسم الأطفال ضمن الحفل ثمّ غنوا ورقصوا حتى أنهم شاركوا بإعداد الحلوى وقالب الكيك الخاص بالحفلة.

كان هذا الحفل الأسطوري بالفعل، لن أنسى ذلك اليوم بالتأكيد كنّا بغاية السعادة بل كان جميع الحاضرين بغاية السعادة.

أنا أعتذر من والدي نور بالنيابة عنها لإقامة ذلك الزفاف حينئذٍ بعيداً عنهم، وأعتذر أيضاً لعائلتي، كنت سأخبركم كل شيء عند عودتي إلى سوريا بصحبة زوجتي، لكن كان من الصعب حينها أن أشرح لكم مرضي وحالتي، كنا مضطرين لفعل ذلك وأحمد الله كثيراً أُني قمت بذلك سريعاً ولا أطلب الآن سوى السماح منكم.

تزوجت بنور لأسبوع أو أكثر فقط، تعلّمت منها معنى الحياة والوجود والأهم الحب.

كانت تجعل من أبسط الأمور عملاً مهماً، وسر ذلك هو النية والغاية التي كانت تريدها من الله بكل شيء تفعله.

لطالما أخبرتني بحبها لحديث الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام " ((

إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا تَقوم حتى يَغرسَها ، فليَغرِسْها ((" وعن حلمها بتنشئة أطفال كأنهم أغراساً لا يوّد منهَا إلا الإثمارَ والخير.

نور ماتت وبموتها خسرت البشرية أهم من يفهم ويعلم المعنى الحقيقي للغرس.

موتها خسارة، نعم خسارة.

ربما كان من المفترض أن يكون الموت لي أنا، لكني في الحقيقة لم أكن حاملاً للمرض يوماً، لقد اكتشفت عند اعادة التحليل لعدة مرات أني لا أحمل أي من فيروس الايدز ولا أي فيروس أخر بجسدي.

يبدو أني تعرضت لخطأ ما من المخبر، هذا الخطأ غيّر حياتي، غيرني، غيّر كل شيء بداخلي. لقد ماتت نور وأنا ولدت من جديد على يديها لأحمل أفكارها ونيتها وحبها والأهم لأكمل مسيرتها.

الله أعطاني الفرصة لأكون أخراً لا يشبه ما كان عليه.

الله يعطي فرصاً للجميع وبأشكالٍ مختلفة وأنا جاءت فرصتي على شكل مرض بل وهم أحياني مع المرض وجعل منّي رجلاً حقيقي يفهم معنى الحياة.

أنا اليوم أتمنى تواجد ذلك الطبيب الذي أخبرني بمرضي في ذلك اليوم الذي قلب حياتي كلّها، أتمنى لو أنّه تواجد معنا اليوم فقد قمت باستدعائه دون ذكري لسبب لكنه للأسف لم يحضر..

لو أنه حضر لكنت شكرته من كلّ قلبي على خطأه معي، ذلك الخطأ

فتح لي الدنيا من أوسع أبوابها أعادني إلى الله لأتعرّف عليه بل لأقترب منه وأحبه..

أعطاني فرصة لأعيش حبيّ الأول ولو لبضع أسابيع..

خطأ واحد صنع منّي رجلاً يقف أمامكم ليتكلّم عن أوجاعه ذات يوم..

لم أكن سعيداً ولا حتى حزيناً عندما علمت بحالة الخطأ في التحليل وأن جسدي معافى، لم أشعر حينها بأي شيء، فلم يعد يعنيني هذا الأمر..

الأعمار بيد الله والمرض هو سبب للوفاة كأيّ سبب أخر، إن لم أمت بالمرض سأموت لسببٍ أخر أما الموت فيلزمه الكثيرً من الإيمان باليوم الأخر، ذلك الايمان يأتيك بقوة عندما تكون مريضاً بمرضٍ لا مجال للفرار منه..

لو أنك أيها الطبيب هنا لكنت شكرتك مراراً وتكراراً، أنت أحسن بل أفضل طبيب يخطأ بتشخيص حالة مريضه على الإطلاق..

ممكن للمرض أن يسرق منّا ومن الحياة أناساً نحتاجهم معنا على الدوام لكنه يجعلنا نقترب منهم أكثر ونتعرف عليهم أكثر وأكثر، نقوى بهم ونستلهم منهم أفكاراً جديدة للحياة..

ملهمون كان لأجل نور ملهمتي الأولى في هذه الحياة وستبقى الملهمة الأولى طالما أنها حملت قلباً كقلبها وروحاً كروحها وأفكاراً كأفكارها..

وسنبقى مستمرين لأجلها ولأجل أمثالها..

"

لحظة نزول محمد من المنصة والتصفيق يملأ المكان، اقترب يزن المسئول عن الاضاءة والصوت منه مباشرةً محاولاً اخباره أمراً ما هامساً في أذنه :

– أحدهم لم يفصح عن اسمه قد اخفى وجهه عن الجميع إلا منّي فأنا أعرفه، طلب مني استئذانك للتكلّم عن تجربته أيضاً، إنّه جالسٌ في الغرفة داخلاً كي لا يراه أحد.

– حسناً يا يزن لنراه ونتفق

– لا، لا يريد أن يراه أحد حتى أنت أرجوك سيد محمد دع له خصوصيته، إنّه في الغرفة هنا قرب المنصة وجاهز للتقديم

– لا بأس فليكن ذلك، أعطه الميكرفون ولنستمع ولكن دعني أقدّمه

رفع محمد صوته عبر المايك وقدّم هذا المتخفي على أنّه صاحب تجربة مهمة يريد أن يشارك بها الحضور رغم تخفّيه وعدم اشتراكه مسبقاً في الفريق.

وبالفعل بدأ هذا المتخفي كما السابقين بعرض تجربته دون أن يعرض شخصه للجمهور متخفياً بنفسه في الغرفة المجاورة للمنصة عن الأخرين :

"

منذ مدّة وأنا منغمس في الحياة ومشاغلها ومقبل على الزواج وعازم خطبة الفتاة التي أحببت ولسبب ما لن أذكره، دخل حياتي شكٌ بوجود فيروس الايدز في جسدي، كان شكٌ أقرب للتصديق من عدمه لكن لابد من التأكد بإجراء التحاليل المناسبة، وبالفعل قمت بإجراء تلك التحاليل لكن ظهور النتائج تطلب بعض الوقت أسبوعاً بالتحديد في هذا الأسبوع تحولت حالتي إلى الأسوء على عكس ما تحدّث عنه الغالبية، تخيّلت لو أني

مصابٌ فعلاً وهو الخيار الأقرب صراحةً بالنسبة لي، لكنت تمنيت أن أنقل اصابتي لكل من أعرف، بل للكون بأسره ولن أخفيكم أن الشخص الوحيد الذي لم أتمنى له الأذى هو الفتاة التي أحب لذا فكان خياري الأول عند قيامي بالتحاليل هو ابتعادي عنها بشكل كامل وبكل حزم، أما أنا فأصبحت بقمة الشر والسوء لم أكن أتمنى الأذى لأي أحد كما هذا الوقت، تمنيت لو أني أستطيع نقل الفيروس لكل من أعرف ولا أعرف. وبالأحرى لم يكن تمني وحسب بل كان قراراً كنت أخذته مع نفسي في حال وجود الايجاب في نتائج التحليل.

وفي هذه الفترة وأثناء الانتظار لمحت مرةً الاعلان عن حملتكم واستغربت من موضوع وجود حالة الالهام مع المرض، وضعت نفسي مكان هؤلاء كوني سأنضم إليهم بعد عدة أيام لكن استحال عليّ تخيّل أن أكون ملهماً وأنا في قمة المرض، على العكس رأيت نفسي مريضاً سيئاً شريراً جاهزاً لنشر الفيروس على جميع من حولي.

بالطبع لم أرسل أي مشاركة لصاحب الحملة أنا فقط شاهدت مشاركات لبعض الأشخاص في مصر وراقبت أراء الناس أيضاً، كنت أتابع كل هذا باستغرابٍ شديد وأحياناً ببعض الاستهزاء.

ثمّ مرّ الأسبوع وجاءت النتائج، جاءت النتائج سلبية على غير المتوقع والحمد لله.

ما لم أخبركم به هو الجزء الأول من حكايتي والتي كان محمداً سبباً به وربما هو من جعل منّي في حالة الانتقام التي كنت أعيشها قبل ظهور النتائج.

نعم أنت يا محمد من أخفيت عن صديقك الأقرب أنك حاملٌ للفيروس،

اكْتَشَفْتَ ذلك وتركتني حتى دون أن تحذرني أو أن تحسب حساباً لي ولما سيحدث لو أني بقيت دون علم بإصابتي بالايدز، فإصابتك تعني إصابتي أيها الصديق، فنحن الاثنان كنّا ًمتلازمان دوماً وكأننا واحد. لقد كنت أنانياً يا محمد.

كان عليّ أن آتيك اليوم لأخبرك بقصتي لترى أنك حتى ولو كنت ملهماً من جانب فأنت أسأت لي من الجانب الأخر..

نحن بشر يا صديقي لسنا ملائكة بالمطلق نعمل من الشر ومن الخير ما يكفي لأن نكون بشرٌ وحسب. عليك أن تفهم ذلك.

أنت أناني بالفعل طالما أنك رفضت زواجي بمن أحب وهي شقيقتك رغم موافقتك على زواجك ممن تحب طالما أننا نحن الاثنان في الهوا سوا أي أننا مصابان بالفيروس نفسه، ما رضيت به على نفسك وبحق من تحب رفضته علي وعلى شقيقتك.

هل تذكر يا محمد عندما كنا أصدقاء قبل المرض وكنت أطلب منك مراراً وأنصحك أن نبتعد عن ذلك الطريق السيء ونبدأ من جديد حياةً خالية من الأخطاء على قدر استطاعتنا كبشر، كنت تستهزأ منّي آنذاك ومن ضميري ومن ايماني بالله الذي أخبرتك عنه مراراً، أخبرتك أنّ الله سيقبل توبتنا في حال عودتنا إليه، كنت تستهزأ من هذا الكلام، وللأسف كنتُ الأضعف بيننا وكنتَ مسيطر علي بقوة شخصيتك آنذاك وضعفي أمامك وأمام ملذات الحياة، أنا أعترف كم كنت سيء ومع ذلك كنت على الدوام أنتظر الفرصة، فرصة نجاتي من ذلك الطريق بلهفة وأولى فرصي كانت مشروع زواجي الذي لم يعطله سوا عدم عثوري على تلك الفتاة التي ستعينني على

التوبة والبدء من جديد. وأيضاً كنت أنت عقبة أمام توبتي على الدوام كنت ومازلت أحبك وأخاف عليك وأحسب حساباً لعودتك للطريق الصحيح معي، لم اكن أريد أن أتركك وأمضي، على الدوام أردتك معي وأردت انقاذك وإنقاذي من السوء الذي كنا نعيشه.

لم اكن أنانياً معك يا محمد كما كنت أنت.

أتيت إلى هنا لأخبرك أنك مخطئ في تقدير حالتك على أنك ملهم لجميع من حولك أنت مخطأ أيضاً بحق آخرين ربما، ولنقل مخطأ بحق واحد على الأقل اسمه أسامة وأخرى اسمها زينب أتمنى أن لا تنسى ذلك

"

خرج أسامة من الغرفة ظاهراً بنفسه على الحاضرين ومتجهاً نحو الباب للخروج من المنزل، محمد أسرع راكضاً وراءه حيث الباب أمسك به وأعاده حيث الحضور جلس على احدى المقاعد الفارغة ثم اتجه محمد حيث المايكرفون مخاطباً أسامة أمام الحضور :

"

أنا أناني بالفعل يا أسامة، كل ما حدثتنا به منذ قليل صحيحٌ بالفعل ولا يمكن أن أبرر لنفسي أي شيء ولكن أريد أن تسامحني وحسب عندما علمت بإصابتي بالفيروس لم أعي تماماً ما أنا عليه هربت وحسب، هربت من كلّ شيء حتى منك ومن أسرتي ومن الناس جميعهم وذهبت إلى مصر وهناك تحدّثت منذ قليل كيف تغيّرت أحوالي إلّا أنّي فتحت باب التوبة لنفسي ومنعته عليك أنت تحديداً لا أدري بالضبط لما فعلت ذلك رغم أنّ ذلك لا

يحق لي ولا لغيري وأذكر تماماً نصائحك لي منذ زمن.

لم أستوعب وجود زينب أختي في ماضييّ السيء المتمثل بك، أرجوك سامحني أيها الصديق.

يمكن للمرض أن يكون سبباً لجعلنا ملهمين للآخرين كما يمكن أن يكون العكس نحن فقط من نختار أسباباً لجعلها فرص إمّا للخير أو الشر.

لا يمكن لنا كبشر أن نكون ملائكة على الدوام..

كلّ منّا لديه من الشر أو لنقل السوء ما يجعله بشراً كما أراد الله له أن يكون..

نحن لسنا إلّا بشر ممتنين لكلّ من يتحمّل السوء الذي بداخلنا دائماً..

كل الشكر والحب لهم جميعاً

"

انتهت الفعالية هنا، اجتمع محمد بأسامة جانباً وأعتذر له كثيراً وأبدا اشتياقه الشديد له ولم يمضي من الوقت الكثير حتى انضمت زينب إلى الاثنين بطلب من محمد أمّا محمد فبادر في الحديث عن خطوبتهما مجدداً وكان لزينب رأيها في الموضوع :

- أراكما تتفقان على الموضوع وكأنني قد وافقت على ذلك، أنا لم ولن أوافق على هذا الموضوع يا محمد إلّا بشرطٍ واحد وهو أن تجعل من يوم خطوبتي يوماً لخطوبتك أيضاً يا محمد

- خطوبتي ؟

- نعم خطوبتك من زينة، زينة فتاة تستحق أن تكون شريكةً لشخص مثلك خاصةً أنّي رأيت نظراتها لك هذا اليوم وهي تلقي مشاركتها، عليكً ان تفكّر بذلك يا أخي وإلّا فلن أوافق على خطوبتي على الاطلاق

ضحك محمد وهزّ رأسه على أساس موافقته الموضوع لكنّه لم يتكلّم خاصةً أن أحدهم اقترب منه وسلّمه ظرفاً وأخبره أن صاحب الظرف خرج حالاً بعد ان سلّمه اياه وطلب منه تسليمه إليه.

فتح محمد الظرف وبدأ يقرأ ما جاء به :

"

أنا الدكتور عصام هل تذكرني ؟

طبيب المخبر في سوريا الذي من المفترض أنّه أخطأ بنتائجك الأولى في تحليل الإيدز كما رويت منذ قليل، لقد دعوتني وهأنذا لبيت دعوتك ولكنّي فضّلت عدم اشهار حضوري أمامك بالفعل، لذا كان لابد من ترك تلك الرسالة لديك، ربما كان يجدر بي أن أتكلّم ما كتبته في رسالتي إليك عبر مكبر الصوت وأمام الحضور لكنّي وبعد سماعي مشاركتك فضّلت السرية فيما أريد أن أخبرك به.

هل تذكر يا محمد عندما أخبرتك قصة اصابة زوجتي بالفيروس ؟!

وكيف أنّ هذا الشاب استعجل زوجتي في تحليله وأربكها مما ادّى إلى سكب عينة الدم على يديها المتشققة وانتقال الفيروس عبرها إلى جسدها ومن ثم إلى طفلها والتسبب بوفاتهما الاثنان.

هذا الشاب يا محمد كان أنت، نعم أنت لا تتعجب من ذلك لكن بفارقٍ

صغير سأخبرك به لاحقاً ولأنك انت من تسبب بوفاة زوجتي وطفلي قمت بإجراء تحاليل مجانية في البنك الذي تعمل به متعمداً ذلك بعد أن بحثت في اسمك عن طَّريق المعلومات التي تركتها لدينا في المخبر حينئذٍ وعلمت أنك تعمل هناك محاسباً.

أردت أن أنتقم منك، في الحقيقة الفارق الوحيد في قصة اصابة زوجتي في المخبر حين دخلت عليها وهي تعمل مستعجلاً إياها هو أنّك لست انت صاحب الدم الذي انسكب على يديها، أنبوبة الدم التي انسكبت آنذاك كانت لشاب أخر قد توفي تقريباً بالتزامن مع وفاة زوجتي ولم يكن يعلم بإصابته إلّا بعًد أن أخبرناه بذلك بعد تلك الحادثة وبعد علمنا بإصابة زوجتي من خلالها.

أردت أن انتقم منك أنت فأنت من دخل غرفة التحاليل بطريقةٍ غبيةٍ ومجنونة، كنت نافشاً ريشك معتزاً بنفسك تصرخ بطريقةٍ همجية لأجلِ لفت النظر لا أكثر فلا أظنّ أنك كنت متأخراً لا عن موعد سفر ولا غيره، ذلك الشاب الحامل للفيروس لم يخطأ أو يذنب بشيء على العكس ربما كان ضحيّة من ضحايا أحد الأطباء وقد نُقِل المرض إلى جسده عن طريقه هذا ما فهمته بعد البحث في الموضوع.

أردت الانتقام من هذا المتعجرف الذي جعل من قلب زوجتي الصغير يرتجف من صوته المؤذي للأذن آنذاك، كنت ترفع صوتك و تصرخ تريد نتائج تحاليلك بأسرع وقت مما جعل زوجتي تسرع وترتبك بحمل الأنابيب وترمي إحداها لينسكب على يديها ناقلاً إليها فيروساً تسبب بوفاتها وجنينها.

فكّرت بنقل الفيروس إلى دمك متعمداً ذلك بعد تدبير تمثيلية التحاليل

المجانية في البنك وسحب عينة من دمك وأثناء السحب نقوم بحقن الفيروس عن طريق الحقنة، لكن في لحظاتي الأخيرة تراجعت وفكّرت بتمثيلية أكثر براءة من تلك، فقمنا بسحب الدم منك بشكلٍ طبيعي كما باقي الموظفين ثم قمت باستدعائك أنت تحديداً لأخبرك أنك ًحاملٌ للفيروس بعد روايتي لقصة حادثة اصابة زوجتي التي حملت بعض التغيير علّك تتذكر هذا اليوم لكنك بالتأكيد لن تتذكر مثل ذلك اليوم العابر في حياتك الغبية آنذاك.

بالطبع لم تكن حاملاً لفيروس الإيدز ولا غيره ولكنّي تعمدّت ذلك حتى أجعلك تذوق العذاب مراراً ومراراً ومراراً فربما لن توافيك المنيّة بتلك السرعة التي توافي حامل الفيروس الحقيقي، خلت أنّك ستتمنى الموت كثيراً لا لشيٍء إلا لترتاح من العذاب النفسي الذي بالتأكيد سيصيب إنساناً مغروراً مختالاً بنفسه مثلك عند ضعفه ومرضه لكن بصراحة ما رأيته الآن كان عكس توقعاتي وبكل صراحة وبغض النظر عمّا حدثتنا به اليوم فقد ندمت مما فعلته معك مراراً خاصةً بعد أن مررت عليّ في ذلك اليوم وأنت بقمة خضوعك لنفسك قبل أيّ شيء وأخبرتني بموضوع سفرك، للحظات كنت سأعترف لك لكنّي تذكّرت زوجتي وطفلي فلم أفعل.

بعد مدة نويت بالفعل أن أخبرك الحقيقة أو على الأقل أعتذر لك وأخبرك بخطأي في تحليلك لكنّي لم أستطع الوصول إليك بعد سفرك رغم محاولتي ذلك.

أنا الآن لست نادماً على فعلتي يكفيني أنّي كنت سبباً في انعاش شخص جديدٍ في داخلك يختلف عن ذلك الذي رأيته في ذلك اليوم في المخبر أثناء عملي مع زوجتي، وربما لن أخفيك أنني أشعر بالقليل من النصر بعد أن

جعلتك تشعر بشعور الفقد الذي طالما شعرت به بعد وفاة زوجتي وأنت الآن فاقدٌ لزوجتك أيضاً.

أتمنى لك حياة تستحق الانسان الحقيقي الذي تحدّثت عنه اليوم يا محمد وبالطبع نحن البشر يستحيل أن نكون ملائكة على الدوام كما تحدّثت أنت أيضاً، كلّنا نعمل من الشر ومن الخير ما يكفينا لنكون بشرٌ وحسب.

جميعنا يحمل الشر في داخله عندما يريد ويحمل الخير أيضاً عندما يريده ويبحث عنه.

نحن بشرٌ لا أكثر يا محمد نحن بشر فسامحني على فعلتي فأنا سامحتك أيضاً.

انتهت

منى أحمد الضايع